تاريخ مجموع النوادر

مما جرى للأوائل والأواخر

للأمير شهاب الدين قرطاي العزّي الخزنداري

تحقيق ودراسة

هورست هاين و محمد الحجيري

بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
يُطلب من دار النشر «كلاوس شڤارتس» برلين

النشرات الإسلاميّة

أسسها هلموت ريتر

يصدرها
لجمعيّة المستشرقين الألمانيّة
تيلمان زايدنشتيكر وَ منفرد كروپ

جزء ٤٦

٩٩. معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين ... [illegible] بيروت ...

١٠١. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، [illegible] تحقيق حسنين محمد ربيع، وزارة الثقافة، مطبعة دار الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.

١٠٣. المقفى الكبير، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، [illegible] تحقيق محمد اليعلاوي، [illegible]

١٠٤. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، [illegible] يوسف بن تغري بردي، [illegible]

١٠٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، [illegible] المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ [illegible] (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية).

١٠٦. نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تأليف موسى بن يحيى اليوسفي، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦.

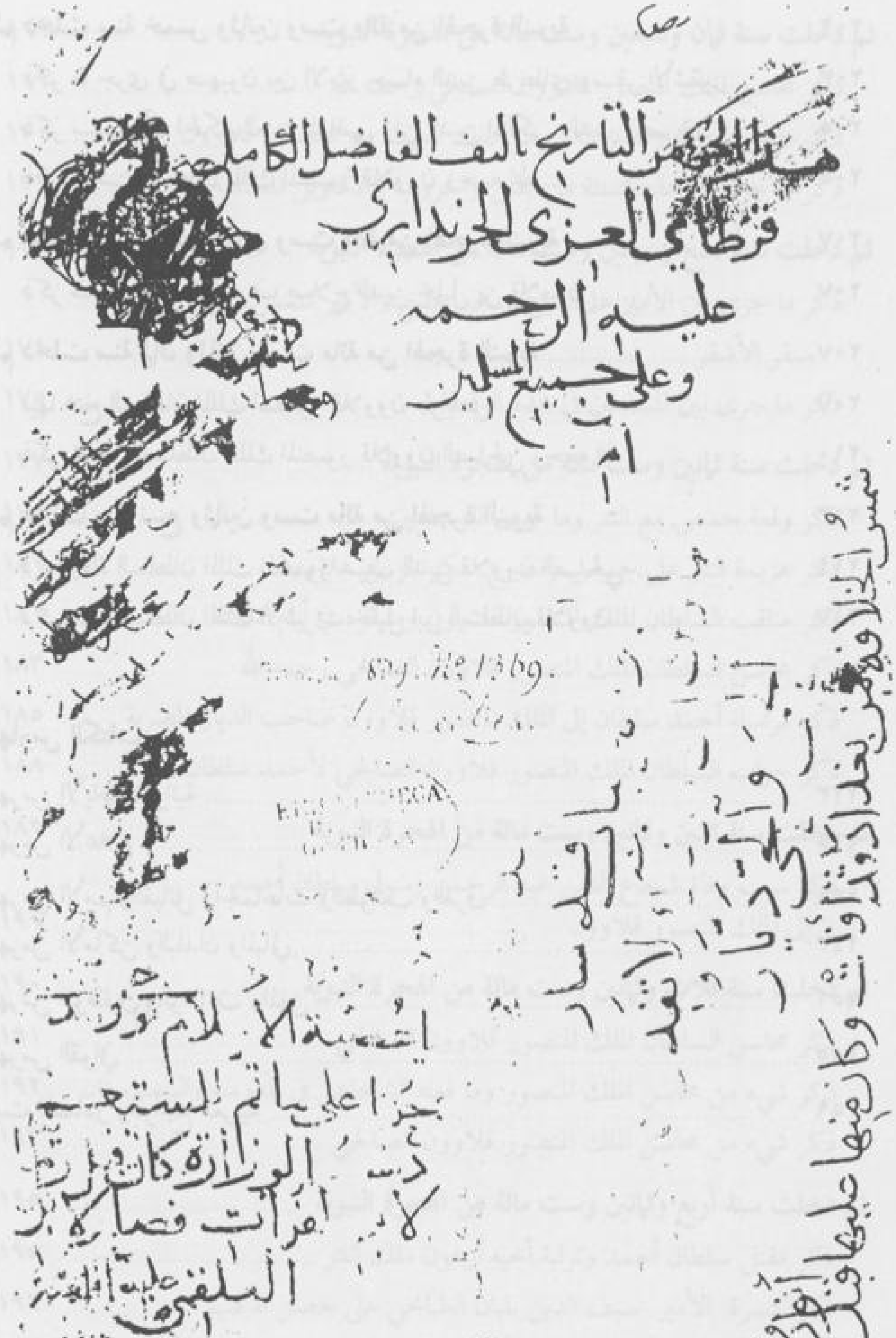
١٠٧. نكت الهميان في نكت العميان، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد زكي، مطبعة الجمالية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩١١.

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

طُبع على نفقة
وزارة الثقافة والأبحاث العلمية التابعة لألمانيا الاتّحادية
بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقيّة في بيروت
في مطبعة درغام، بيروت – لبنان

محتويات الكتاب

فهارس الكتاب


هذا الكتاب التاريخ للفاضل الكامل
قرطاي العزي الخزنداري
عليه الرحمة
وعلى جميع المسلمين
آمين

هذا الجزء من التاريخ تأليف الفاضل الكامل قَرَطاي العِزِّي الخزنْداري

عليه الرحمة

وعلى جميع المسلمين

آمين

لِسائلِ الدمع عن بغدادَ أخبارُ　　فما وُقُوفُكَ والأحبابُ قد ساروا؟
يا زائرينَ إلى الزَّوراء: لا تَفِدوا　　فما بقي في الحِمَى والحيِّ دَيّارُ[(١)]
شمسُ الخلافةِ من بغداد قد أفَلَتْ　　وكان منها عليها قبلُ أنوارُ[(٢)]

يا عُصْبةَ الإسلامِ نوحي واندبي　　حُزْنًا على ما تَمّ للمسْتعصمِ
دَسْتُ الوزارةِ كان قبلَ زمانِه　　لابنِ الفراتِ فصار لابن العَلْقمي[(٣)]

---

(١) في النجوم الزاهرة جاء عجز البيت كما يلي:

فما بذاك الحِمَى والدارِ دَيّارُ

(٢) نفسه:

تاجُ الخِلافة والربعُ الذي شَرُفَت　　به المعالمُ قد عَفّاهُ إقفار

والبيتان لتقي الدين بن أبي اليسر كما ورد في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٣.

(٣) البيتان لشمس الدين محمد بن عبيد الله، الواعظ الكوفي خطيب جامع السلطان ببغداد، أنظر: الحوادث الجامعة لابن الفوطي ٣٣٥؛ والوافي بالوفيات للصفدي ٢/٩٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أصحابه أجمعين.

وكنا قد انتهينا في الجزء الثالث أنه في سلطان الملك الكامل محمد أبو المعالي[١]، نزلت الفرنج على ثغر دمياط من أعمال مصر وملكوه مدة ثلاث سنين وأشهر.

وذكرنا ما جرى للسلطان الملك الكامل مع الفرنج، وأنه انتصرَ عليهم هو وإخوتُه الملوك، بعد أن أراد أن يتركَ الديار المصرية للفرنج ويهرب إلى اليمن.

وذكرنا ما جرى للملك الكامل مع ابن المشطوب، وهو أجَلُّ أمراء مصر وأُكبرُهم[٢]. كان في ذلك الوقت أكبرُ أمراء الديار المصرية أكرادًا.

وذكرنا نفيَ ابن المشطوب إلى الشرق، وكان بأمثاله الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق[٣].

---

(١) السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي وأبو المظفّر. أحد الملوك الأيوبية، ترجمته في الوافي بالوفيات ١/١٩٣ رقم ١١٩.

(٢) الأمير عماد الدين أحمد بن علي بن أحمد بن أبي الهيجاء الهكّاري، ترجمته في الوافي بالوفيات ٧/٢٢٥ رقم ٣١٧٩.

(٣) الملك الأشرف مظفّر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر بن محمد الأيوبي، ترجمته في وفيات الأعيان ٥/٣٣٠–٣٣٦؛ والوافي بالوفيات ٢٦ رقم ٣٧٨.

ثم دخلت سنة ست عشر[١] وستمائة من الهجرة النبوية

والملك الكامل بالديار المصرية، وهو أجَلُّ ملوك بني أيّوب. وقد رسم لجميع الملوك إخوته وأبناء عَمِّه أن يتوجَّه كلٌّ منهم إلى مملكته وإلى إقليمه، وذلك بعد ما جَرى، ما سنذكره من الخير والشريرة[٢] على الفرنج.

ذكر ما فعله الملك الكاملُ بعد إقامته بالديار المصرية عشر سنين[٣] / وخراب دُمياط ونصرته على الفرنج. [٢و]

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها تجهّز السلطان الملك الكامل[٤] لأخذ الروم من السلطان ركن الدين[٥] ابن السلطان غياث الدين كيخصروا[٦] ابن قِلِج أرسلان[٧] السلجوقي.

قال صاحب التاريخ: وكان للملك الكامل ثلاثة أولاد: أكبرهم الملك المسعود صاحب اليمن وكان ثانيه بمكة[٨]، والثاني السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب استاذ المماليك الملوك التركية[٩]، والثالث الملك العادل وهو أصغرهم[١٠]، وهو وأمه كانا عند الملك الكامل أوفر نصيبًا من الملك الصالح.

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: عشرة.

(٢) القراءة هنا غير واضحة، وربما كانت: والشِّدَّة.

(٣) بضع كلمات مطموسة.

(٤) السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، ترجمته في الوافي بالوفيات ١/١٩٣ رقم ١١٩.

(٥) السلطان الملك سليمان بن قلج أرسلان ملك الروم، ترجمته في الوافي ١٥/٤٢١ رقم ٥٦٩.

(٦) كذا في الأصل، وفي سائر المصادر: كيخسرو.

(٧) في الأصل: رسلان.

(٨) أقسيس السلطان الملك المسعود صاحب اليمن، ترجمته في الوافي ٩/٣١٥ رقم ٤٢٤٩.

(٩) السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ترجمته في الوافي بالوفيات ١٠/٥٥ رقم ٤٥٠٠.

(١٠) السلطان الملك العادل أبي بكر بن محمد بن محمد بن أيوب بن شاذي، ترجمته في الوافي ٢/٢٣٥ رقم ٦٣٨.

ذِكْرُ ما جَرى للملك الكامل

قال: ولما تجهَّز الملكُ الكامل، طلب الملكَ الصالحَ ولدَه إلى بين يديه وقال له: «يا ولدي، أنت إبني ووليّ عهدي من بعدي، وصاحبُ المملكةِ والرأيِ والحَزْم، فلا تخالفني فيما أوْمُرُكَ فيه. وهذا أخوك الملك العادل صغير السنّ وأمّه غريبة منا. فتلطُفْ بهما، وتكرمهما، ولا تشوِّش عليهما. ومهما فعلته معهما كان معي. وأنا متوجّه إلى بلاد الروم، والله العالم من يعيش إلى الغد».

فامتثل الملك الصالح ما أمر له به أبوه بالسمع والطاعة، وأقام الملك الصالح بالديار المصرية/ [٢ظ] [و رحل؟](١) الملك الكامل إلى الشام ودخل دمشق ونزل بالقلعة بها، وكتب إلى ساير الملوك إخوته وأولاد عمه يأمرهم بالاجتماع على حلب.

فركب الملوك ومنهم الملك الأمجد، والملك المنصور، والملك العزيز، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص. واجتمع جميع العساكر، وركبوا وركب الملك الكامل ونزل الجميع على الفراة. فلما اجتمع الملوكُ، أمرهم الملك الكامل أن يتجهَّزوا إلى الروم، وأن يفتحوها من السلطان ركن الدين. فامتثل الملوكُ ما رسم به الملك الكامل، وركبوا وصحبتهم الطواشي رشيد الدين الكبير وهو مقدّم على ألف فارس(٢).

فلما اجتمع الملوك على الفراة، ضربوا مشورةً فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: «نحن وأنتم تعرفون أن أخانا الملك الكامل قليل الإنصاف، وبعيد من الخير، وشحيح النفس، فمتى فتحنا له البلاد يأمر لكل ملك منا بقلعة ويقعد بالديار المصرية والشام». فاتفق الحال بينهم، وكتبوا كتابًا من عندهم إلى السلطان ركن الدين صاحب الروم أنْ: «نحن إذا قَدِمنا عليك فلا تَخَفْ مِنّا». وحلفوا له أربعين يمينًا أن:

«نحن لا نقاتلكَ ولا نملكُ إقليمكَ، وإنَّما جيناك طاعةً لأمر أخينا. فإذا اصطفَّت عساكرُنا وعساكرُك، فاحمِلْ علينا، ونحن ننهزم من بين/ [٣و] يديك. فإذا انهزمنا من بين يديك وأسرتَ منا أحد(٣) فافعل معه ما يخلِّصُكَ من الله تعالى».

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أنظر: السلوك للمقريزي ١/٣٢١.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: أحدًا.

ثم سارت العساكر ومعهم الملك الأشرف طالبين الروم. ودخلوا من جهة ملطية، فإن الجبال كانت ضيقةً عليهم لدخول الروم. وخرج لهم السلطان ركن الدين صاحب الروم، والتقا العسكران، وانكسرت العساكر الاسلامية، وتشتّت شمل عسكر مصر والشام، وعدمت أثقالهم وقماشهم. وأسرَ السلطانُ ركن الدين من الملوك سبعة وهم أكبر ملوك بني أيوب.

ثم نزل في خدمتهم وأنزلهم بأماكن عظيمة وأمر لهم بالخيول والأموال والخِلَع والأنعام والمماليك والجوار[1] والمغاني والمآكل والمشارب. وخرج عن نصف مملكة الروم لهم، وذلك فرحًا منه بهم وكون أنهم تركوا أخاهم وتبعوه.

وجعل السلطان ركن الدين في كل يوم يركب وينزل عندهم على قدر مراتبهم ويمتثل أمورهم، ولو أمكنه وقفَ في خدمتهم. فأقاموا كذلك أحد وعشرين يومًا. ثم جهزهم السلطان ركن الدين وقال لهم: «إن مولانا السلطان الملك الكامل ملتفتٌ إليكم ومنتظر أخباركم، فما الذي تأمرون به؟» قالوا: «ما تأمرنا به». قال السلطان/ ركن الدين: [٣ظ]
«الرأي أن تركبوا إلى مولانا السلطان الملك الكامل، فإنه أستاذنا وكبيرنا والحاكم علينا».

ولما تجهَّز الملوك إلى الشام وتوجَّهوا، جهَّز السلطان ركن الدين لكل ملك منهم خمسة آلاف دينار، وخمسين فرسًا، وخمس مائة تفصيلة من ساير الأصناف، ومائة هجين. وأكرمهم إكرامًا عظيمًا، وتوجّهوا إلى الشام.

فلما وصلوا إلى الملك الكامل، ورأى إخوته وأبناء عمه وعليهم ما ذكرناه من الخِلَع والأنعام، عَظُمَ عليه ذلك، وعلم أنّ صاحب الروم قد خدعهم وصادقهم وأفسدهم على ما يختار لنفسه وظاهرهم. فقال الملك الكامل في نفسه: «ما بقي لي مع إخوتي وأولاد عمي حرمة ولا كلمة، ومتى كلّمت أحد منهم رحل إلى صاحب الروم».[2]

وأما الملك الصالح نجم الدين أيوب، فإنه لما توجَّه أبوه طالب[3] الروم ونزل بالفراة، وبعث الملوك إلى الروم وانكسر الملوك من صاحب الروم وجرى ما ذكرناه، لم يكن للملك الصالح شغل ولا فعل ولا همّة غير الملك العادل أخيه وأمه، نكَّد عليهم، وضيَّق

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: الجواري.
(٢) كذا في الأصل، والصواب: أحدًا.
(٣) كذا في الأصل، وصوابه: طالبًا.

عليهم، ونَغَّص عيشَهم، وشوّش قلوبهم، وشغل سِرّهم. وشرع يشتري المماليك. [٤و] واشترى أربع مايه مملوك وسماهم البحرية وأعطاهم الأخباز الثقال ما/ بين العشرين ألف والثلاثين ألف، وكَبَّرهم وعَظَّم منازلهم، وصار محلُّهم عنده أعظم من محل والده الملك الكامل.

وأما الملك الكامل، فإنه لما أتاه الملوك إخوته وأبناء عمه على الهيئة التي ذكرناها، وقد تظاهروا مع صاحب الروم، كتب الملك الكامل إلى صاحب الروم: «أنت تُظاهر إخوتي الملوك عليّ، والله لآتينّكَ بما لا لك به قِبَل». ثم أمر للملوك أن يتجهّزوا إلى أقاليمهم، واعتذر لهم، وأعطا كُلًّا منهم على قدر منزلته ومملكته. ثم سار إلى قلعة من بعض قلاع الروم، فنزل عليها وحاصرها مدة يومين وفتحها ممن كان بها، وأخذ النائب الذي كان بها، قطع أنفَه وحلَقَ ذقنه وسَيّره إلى السلطان ركن الدين.

فلما وصل نائب القلعة التي فتحها الملك الكامل، وهو مقطوع الأنف محلوق الذقن، عَظُمَ ذلك على السلطان ركن الدين وكتب إلى الملك الكامل: «أمّا أنا عملت ما يشبهني وأنت فعلت ما يشبهك. أما أنا فقد أسرتُ ملوك أقلّهم أكبر منك، وفعلت معهم صفات الناس، وأنت مسكت رجالًا أقلّهم خير منك ففعلت بهم ما فعلت. والله لأعطينّك حقّكَ ولأكونن أنا وإخوتك وأولاد عمك عليك».

[٤ظ] قال صاحب هذا الكلام: لما وصل كتاب السلطان/ ركن الدين إلى الملك الكامل بما نقلناه عَظُمَ عليه وهو متفكّر فيما يصنع مع السلطان ركن الدين صاحب الروم ومع إخوته وأولاد عمه. إذْ ورد كتاب الملك العادل ولده وأمه[1] وهم يقولون للملك الكامل:

«استيقظْ من نومكَ فإنّكَ لما رحلت متوجهًا إلى الروم، وأوصيت الملك الصالح علينا، لا تسَلْ ما نحن معه من الضّنك والذلّ والإهانة والجوع والقِلّ. وقد اشترى مماليك ما مقداره خمس مايه مملوك وسماهم البحرية، وأعطاهم الأخبازَ الثِّقالَ ما بين العشرين ألف والثلاثين ألف، وقد استولَى على الديار المصرية. فداركْ أمركَ وانهضْ إن كنتَ نايمًا فاستيقظ والحق الديار المصرية قبل أن يفوت أمرها».

---

(١) وهي الست السوداء بنت الفقيه نصر، أنظر: السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ص٢٦٧.

قال صاحب التاريخ: فركب الملك الكامل من فوره وتوجه إلى الديار المصرية ونزل بالقلعة، ولم ينم في تلك الليلة حتى طلَبَ الملكَ الصالح ولده. فلما مَثُلَ بين يديه، نظر إليه الملكُ الكامل وقال له:

«يا عبدَ النحس، يا كلب، يا ملعون، واللهِ لا أبقيتُكَ بعدَها». ثم أمر أن يُغرقوه في البحر بشطنوف[1]. فقام بعض أصحاب الملك الكامل وقبّلوا الأرض بين يديه وقالوا: «يحفظك الله يا مولانا/ لا تعجَلْ على ولدك، فوالله هو الملك بعدكَ وجميعُ خصايله [٥و] وعظمته منك، وهو صاحب الديار المصرية، فلا تعجَلْ عليه بالقتل. وإنْ فعلتَ ذلك ستندَمُ عليه».

قال: فعند ذلك طلب السلطان الملك الكامل الطواشي محسن الكبير وقال له: «خذ هذا – يعني الملك الصالح – واخرج به من وجهي ولا ترني وجهه بعدها، وامضِ إلى حِصْن كيفا، ولا تمكّنه أن يركب فَحْلًا، ولا يسيرُ وحده، ولا يركب غير إكديش. وإذا ركبَ يسير تحترز عليه، فإني أخاف أن يهربَ إلى عدوي ركن الدين صاحب الروم». ثم أكّد على الخادم في الوصية. وأقام الملك الصالح بحِصْن كيفا منفيًّا سبعَ سنين، وقيل: تسع سنين.

قال: ولما توجّه الملكُ الصالح إلى حصن كيفا واستقر بها، عَظُمَ ذلك على مماليكه البحرية وثَقُلَ عليهم خدمة الملك الكامل. فإن الملك االكامل كان قليلَ المكارمِ، وقليلَ بذل الأموال، وقليل الموافاة للعساكر والجند وأرباب الفضايل. فصارت البحرية يودّوُن رجوع الملك الصالح إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة مات الأمير مقلّد الدولة صاحب صَرْخَد، ويقال مخلّص الدولة[2]. وكان قد/ أسَنَّ، وكان عمره نيَّفَ عن مابة وخمس سنين، وكان أكبر من بقي من دولة [٥ظ] بني منقذ، وكان رجلًا شجاعًا مقدامًا حليمًا كريمًا كثيرَ الموافاة للناس والفضلاء والشعراء. ولما مات رثته الشعراء. ووردت قصيدة القاضي الصدر الأجل الشيخ الإمام حمزة ابن عبد الرزاق المعروف بابن أبي يعلا، وله ديوان مشهور يسمى ديوان شعر أبي يعلا، ويعرف بابن أبي حُصَين[3]: [من الطويل]

---

(١) في الأصل: بشطنوف.

(٢) ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٢٦٩–٢٧٣.

(٣) انظر القصيدة كاملة، وتتألف من ٥١ بيتًا في وفيات الأعيان ٥/٢٧٠–٢٧٣.

أَلا كلُّ حيٍّ مُقصَداتٌ مَقاتِلُهْ ... وآجِلُ ما يُخْشَى من الدهر عاجِلُهْ
وهل يفرحُ الناجي السليمُ وهذه ... حُبولُ الردَى قُدّامَه وحبائلُهْ
لعمرُ الفتَى إنّ السلامةَ سُلَّمٌ ... إلى الحينِ والمغرورُ بالعيش آمِلُهْ
فيسلب أثوابَ الحياة مُعارُها ... ويقضي غريمَ الدين من هو ماطلهْ
مضَى قيصرٌ لم تُغْنِ عنه قُصورُه ... وجُدِّلَ كِسْرَى ما حَمَتهُ مجادلُهْ
ولا صَدَّ هُلْكًا عن سليمان ملكُه[1] ... ولا مَنَعَت عنه أباه سرابلُهْ
ولم يبقَ إلّا مَن يروح ويغتدي ... على سفَرٍ ينأى عن الأهل قافلُهْ
وما نفَّس الإنسانَ إلّا خِزامَةٌ ... بأيدي المنايا والليالي مراحلهْ
فَهَلْ غال بَدْءًا مُخْلص الدولة الردَى ... وهل تَنْزوي عما سِواه غوائلهْ
[١٦] ولكنّه حَوْضُ الحِمامِ ففارضٌ ... إليه[2] وبالٍ[3] مسرعاتٍ رواحِلُهْ/
لقَدْ دفن الأقوامُ أروع لم تكُنْ ... بمدفونةٍ طولَ الزمانِ فضائلُهْ
سقَى جَدَثًا هالت عليه ترابَه ... أكفُّهمُ طَلُّ الغَمامِ ووابِلُهْ
ففيه سحابٌ يَرْفَع المَحْلَ هُدْبُهُ ... وبحرُ ندىً يستغرق البحر[4] ساحلهْ
كأن ابن نصر سائر في سريره[5] ... جَنِيٌّ من الوَسْميِّ أقشَع هاطلهْ[6]
يمرّ على الوادي فتثني رمالُه ... عليه وبالنادي فتبكي أراملُهْ
سرَى نعشُه فوقَ الرقاب وطالما ... سرى جُوده فوق الرِكاب ونائلهْ
أناعِيَه إنّ النفوسَ مَنُوطَةٌ ... بقولك فانظر ما الذي أنت قائلهْ
بفيكَ الثرَى لم تَدرِ من حل بالثرَى ... جهلتَ وقد يستصغرُ الأمرَ جاهلهْ
هو السَيِّد المهتزُّ للتَّمِّ بدرُه ... وللجود عِطفاه وللطعنِ عامِلُهْ
أفاضَ عيونَ الناسِ حتى كأنما ... عيونهمُ مما تَفيضُ أنامِلُهْ
فيا عَيْنُ سحّي لا تَشِحّي بسائلٍ ... على ماجدٍ لم يَعرف الشُحَّ سائلُهْ

---

(١) وفيات الأعيان: وما صَدّ.
(٢) كانت «إليه» في الأصل ملصقة بصدر البيت الشعري، وجاءت هكذا: ففارط إليه.
(٣) في الأصل: وبالكٍ، وفي وفيات الأعيان: وتالٍ مسرعات.
(٤) وفيات الأعيان: البرّ.
(٥) نفسه: سائرًا.
(٦) نفسه: حبيٌّ.

متى سألُوه المالَ تَنْدَ بنَانُه وإن يَسْلوه الضَيْمَ تندَ عواملهْ(١)
وكم عاد منه بالخسار مقنعٌ(٢) وكم نال منه قانع ما يحاولهْ
٣ له الغَلَبُ القاضي على كل باسلٍ يجالده، أو كلِّ خصمٍ يجادلهْ
محاسنه في روضةٍ ظلها الندى(٣) ولكنه في المجد مات مُساجلةً/ [٦ظ]
فيا عُمرَه أنَّى قَصُرتَ ولم تَطُلْ منازله بل كَفُّه بل حمائلُهْ
٦ جرَت تحته العلياء ملء فروجها إلى غايةٍ طالت على من يطاولهْ
وما مات حتَّى نال أقْصَى مُرادِه(٤) كما يستسرّ البَدْر تمّت منازلهْ
فتًى طالما يعني له الجيش عافيًا(٥) فيُنْزله أو عاديًا فينازلهْ
٩ صَفوحٌ عن الجاني وصَفْحةُ سيفِه إذا هي لم تقتله فالصَفْحُ قاتلهْ
وأدمَى عسيبَ الطِّرْفِ بعدَك هلبُه وعادتُه أن يقذفَ الدمَ كاهلُهْ
فيا طرفَه ما كان عجزُكَ حاملًا إذًا صارم لو كان ظهرُكَ حاملُهْ(٦)
١٢ لقد كَثُرَ الملبوسُ بعدَ مُوَرِّعٍ(٧) جرت ببيان المشكلات شواكلهْ
إذا ظنَّ لا يُخطي كأن ظنونَه على ما يضلُّ الناسُ عنه دلائلهْ
فلا رحلتْ عنه نوازل رحمةٍ ضحاه بها موصولةٌ وأصائلهْ
١٥ وروَّى ثراه مَنْهَل العفو في غدٍ فقد روَّتِ العافين أمسِ مَنازلهْ
قضَى اللهُ أن يُرزَى الأميرُ وهذه صَوافنهُ موصولة ومناصلهْ(٨)
وكل فتى كالبرق أبرق غِمْدُه(٩) إذا سامه أو كالذبابة ذابلهْ

---

(١) وفيات الأعيان: متى يسألوه... وإن يسألوه.
(٢) نفسه: عاد عنه.
(٣) نفسه: طلّها.
(٤) نفسه: فما مات.
(٥) نفسه: يعتاده.
(٦) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: أذى صارمٍ لو أنّ...
(٧) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: مروّع.
(٨) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: موقورة، وفي رواية أخرى: موفورة.
(٩) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: إبريق... شامه.

فليبت ضياه اليوم طَلَّت أمامه[1] ... وظَلَّت على غير الصيام صَواهلهْ
[٧و] بني مُنْقذٍ صَبْرًا فإن مُصَابكم ... يُصاب به حافي الزمان وناعلهْ[2]/
لقد جَلَّ حتى كلُّ واجدٍ لَوعةٍ ... إذا لَجَّ فيها ليس يوجد عاذلهْ
إذا ضُوِّعَتْ أيدي الرجال فأنتمُ[3] ... بني منقذٍ رَوضُ النَدَى وخمَائلهْ
وإنْ فَرَّ من وِزْر الزمان مُفَرِّحٌ ... فإنكمُ أوزارُه ومعاقلهْ
وصاحب أغْوَى الصَبْرَ عنه فما غوَى[4] ... مُصاحبُ صَبْرٍ عن حبيبٍ مزايلهْ[5]
وما نام حتّى قام منه وراءه ... أخو يَقظاتٍ وافرُ العَزْم كاملُهْ[6]
كأنهما نَجْمان في فَلَكِ العُلَى[7] ... فطالعه هذا وذلك آفِلهْ
وما كَفَلوكَ الأمر إلا لعلمهم ... قيامك بالأمر الذي أنت كافلهْ
سَعَيْتَ إلى نيل المكارم سعيه ... ولو كنت لا تسعى كَفتك فواضلهْ
ولم يرَ أن ترقا بما كان فاعلاً[8] ... أجلْ إنما المرفوع بالفعل فاعلهْ
لَعمرُكَ إني في الذي عنَّ كلُّه ... شريكُ عنانٍ ناصحُ الودِّ ناحلهْ
وكيف خُلوُّ القلب من ذلك الأسَى ... وقد خُلِّدت بين الشِّعاب دواخلهْ[9]

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستماية من الهجرة النبوية

والسلطان الملك الكامل بالديار المصرية، والمماليك الأيوبية في خدمته.

وفيها ثارت نارُ الحرب بين التتر والقفجاق.

وفيها عَظُمَ شأن السلطان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وصار له

(١) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: ظُباه اليوم صَلَّت خلفه.
(٢) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: حافي الأنام.
(٣) كذا في الأصل، وفي وفيات الأعيان: صُوِّحت.
(٤) وفيات الأعيان: وصاحِبٌ، عليٌّ.
(٥) نفسه: يزايله.
(٦) في رواية من روايات وفيات الأعيان: العقل.
(٧) وفيات الأعيان: كأنكما.
(٨) نفسه: ولم ترَ.
(٩) نفسه: الشّغاف.

عند الملوك/ والخلفاء شأن عظيم، واستولى على مملكة بني زنكي، وحكم في بلاد أستاذه، وصارت أولاد أستاذه في خدمته. [٧ظ]

وفيها تحرّكت الملاعينُ التتر إلى بلاد العراق والشرق.

وفيها ظهرت كلمة هلاوون، ويقال هلاكو ابن طولوخان ابن شنكزخان.

ولما علم بدر الدين لؤلؤ أن المسلمين لم يقدروا على التتر ولا على حربهم، ولا يقدروا أن يمنعوهم عن البلاد، رحَل إلى خدمة هلاوون، وأخذ معه تحفًا عظيمةً وأشياء كثيرة. ولما حضر بدر الدين لؤلؤ بين يدي هلاوون أحسن إليه وأقبل عليه وصار يجلسه في مجلسه واستقره[1] على مملكة الموصل على جاري عادته.

وفي هذه السنة، توجّه الملكُ الأشرف شاهرمان صاحب الشرق وأخلاط وسنجار إلى خدمة أخيه الملك الكامل محمد أبي المعالي صاحب الديار المصرية، وأقام في خدمته مستنزهًا.

وفي هذه السنة وهبَ الملكُ العزيز صاحب حلب لشهاب الدين غازي شغر بكاس[2] وأخذ منه شيزر.

وفي هذه السنة، توجّه الملك المعظم أبو العزايم عيسى صاحب دمشق إلى حماة وأقام بها، وربما قصد أن يستولي عليها.

وفي هذه السنة/ استولى الملك المسعود على مكة، شرّفها الله تعالى. [٨و]

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستماية من الهجرة النبوية

فيها كان الملك المسعود ابن الملك الكامل مجاورًا بمكة – شرّفها الله تعالى –. ولما صعد الأمراء والحجّاج والعالم عَرفة، صعدت سناجق الإمام المستنصر ليكونوا أمام الناس على جاري عادتهم، وتكون سناجق الملوك خلفهم. وهكذا كانت عادة الحاجّ. فمنعهم الملك المسعود عن ذلك، وقدّم سناجق أبيه الملك الكامل صاحب مصر، وأخّر سناجقَ

(١) كذا في الأصل، والأدنى إلى الصواب أن تكون: وأقرّه.

(٢) كذا في الأصل وكنز الدرر لابن الدواداري، وهما: الشُّغر وبكاس، قلعتان حصينتان على جبلين بينهما وادٍ عميق قرب أنطاكية، راجع: معجم البلدان لياقوت.

الخليفة. واستمر الحال على ذلك، وصار إلى الآن سناجقُ صاحب مصر هي المتقدمة وساير الملوك خلفهم.

وفي هذه السنة، اتّفق الأمير حسامُ الدين إبن أمير تركمان والسلطان الملك المعظّم عيسى وناصر الدين منكورس إبن خمرتكين صاحب صهيون، ونزلوا على جبلة واللاذقية، ولم يبلغوا من هاتين البلدتين مقصودًا.

وفي هذه السنة رحل الملك المظفر صاحب حماة قاصد[١] الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وشكى من الملك المعظّم صاحب دمشق شكوًى كثيرة. فكتب الملك الكامل إلى الملك المعظّم كتابًا ينكِرُ عليه ويهدده ويخوفه. وكان الملك الكامل في ذلك الوقت/ أكبر ملوك بني أيوب شرقًا وغربًا. [٨ظ]

وفيها سَيَّرَ الملكُ الكامل مع الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق الخِلَع والتقليد والمنشور بالسلطنة إلى الملك العزيز إبن الملك الظاهر صاحب حلب. واستقر[٢] السلطنة بحلب للملك العزيز. ولما وصل الملك الأشرف إلى حلب بالخِلَع والتقليد، تلقّاه الملكُ العزيز من مسيرة يومين، ووقف في خدمته هو والأمراء والأشراف والقضاة، وسَراة الناس والعلماء والفقهاء. وكان في حلب يومًا عظيمًا. كل هذا والتتر ببلاد العجم يقتلون وينهبون ويسفكون ويخربون ويحرقون، وذلك لخلوّ أقاليم العجم من الملوك.

وفي هذه السنة كان ملوك بني أيوب في غاية ما يكون من السرور في أقاليمهم خاصّة. والسلطان الملك الكامل بالديار المصرية وهو أكبر ملوك بني أيوب، والأمراءُ في خدمته على ما كانوا عليه. والملك المعظم بدمشق وبلادها إلى العريش، والملك المجاهد بحمص والرحبة وتدمر، والملك المنصور ناصر الدين بحماة والمعَرّة وبعرين وما بينهما، والملك الأمجد بهرام شاه ببعلبك وأعمالها ووادي التَيْم وإقليم الخَرّوب وبعض جبال الكسروان، والملك/ العزيز بحلب وأعمالها، والملك الأشرف بالشرق، ومظفّر الدين [٩و] غازي بأخلاط.

كل هذا والتتر دايرون في أقاليم العجم ينهبون ويفسدون ويسفكوا الدماء. وقد ساروا إلى الرَّيّ ونهبوا ما بقي فيها من البلدان والبلاد خراب. وكانوا قد تركوا البلاد قاعًا صفصفًا

---

(١) كذا في الأصل، وهي: قاصدًا.

(٢) كذا في الأصل، وهي ربما كانت: استقرت.

في المرة الأولى كما ذكرناه، وفعلوا من الفَساد والحريق والأفعال الذميمة – لعنهم الله –. وكانت التتر لما رحلوا عن البلاد في المرة الأولى لم يبقَ فيها إلّا قليل من الناس، فأقاموا ببلادهم. فرجعَت التترُ عليهم فقتلوا كُلَّ من وجدوه في طريقهم. وكان المسلمون اعتقدوا أن التتر لا تعود إليهم، كون أنّ البلادَ خرابٌ، فلم يشعروا حتى رَدّت التتر عليهم.

وساروا إلى مدينة ساوة[١] وقتلوا كُلّ من فيها، ولم يُبقوا على أحدٍ من المسلمين. ثم ساروا إلى قُمّ وقاشان، وكانتا هاتان البلدتان قد سلمتا[٢] من التتر في المرة الأولى، فإنّ التتر لم يكونوا يعرفونهما. فأتوهما في النوبة الثانية، فنزلوا عليهما وقتلوا كُلّ من كان فيهما وحرقوهما وألحقوهما بغيرهما. ثم ساروا في البلاد [يخربون][٣] وينهبون ويسفكون ويحرقون.

ثم ساروا إلى همذان، وكان قد اجتمع إليها جمع قليل ممن سلم من[٤]/ بعض [٩ظ] الأقاليم من المسلمين، فقتلوا الجميع وحرقوا البلد، وهذا ثاني مرة. ثم هرب الناس الذين بقوا من السيف، منهم من راح إلى أذربيجان، ومنهم من راح إلى أطراف البلاد، فلم يدروا إلّا والتتر معهم. فقتلوا كُلّ من قدروا عليه، وهرب من هرب، وسلم من سلم. ثم ساروا قريبًا من توريز، فلم يجدوا في طريقهم أحد[٥] فساروا إلى أذربيجان وصاحبها مظفّر الدين أُزبك ابن البهلوان، فسيّرت التتر إليه يقولون: «إنْ كنت مِنّا وأنت صاحبنا فتسيّر لنا جميع من نفي[٦] عندك من جيش الخوارزمية، ولا تدعْ عندك منهم رجلًا واحدًا، ولا تستخدم من عسكر جلال الدين رجلًا واحدًا»

قال: ولما وصل كتاب التتر إلى أُزبك ابن البهلوان، فعل ما أمرته به التتر، وجمع الخوارزمية وقتل بعضَهم وسير الباقين إلى التتر مربوطين بالحبال، وسير

---

(١) في الأصل: شاوه، انظر: مفرّج الكروب لابن واصل ٤/١٣٤؛ والكامل لابن الأثير ١٢/٤١٩، ذكر ياقوت في معجم البلدان أن ساوة مدينة حسنة بين الري وهمذان، وأنه كان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها، حرقها التتر.

(٢) في الكامل لابن الأثير ومفرج الكروب لابن واصل: وكانتا قد سلمتا...

(٣) في الأصل: بياض، وما بين الحاصرتين من ابن واصل ٤/١٣٥: يخربون؛ وابن الأثير ١٢/٤١٩: يخربون.

(٤) مكررة.

(٥) كذا في الأصل، وهي: أحدًا.

(٦) كذا في الأصل، وهي ربما تكون: من بقي....

صحبتهم هدايا وأموالًا وتحفًا وأشياء كثيرة، وذلك خوف[(١)] من التتر[(٢)].

قال صاحب التاريخ: إن التتر الذين جاؤا إلى صاحب أذربيجان أُزبك ابن البهلوان لم تصل عدّتهم ألفَ فارس، وكان عسكر أُزبك إبن البهلوان عشرين ألف، والخوارزمية الذين عنده عشرة آلاف./ وبعد ذلك كله خافوا جميع هؤلاء من التتر[(٣)]، وامتثلوا ما [١٠و] أمرهم التتر به، ولم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب العالم بأسرها.

وفي هذه السنة مات الإمام الظاهر بأمر الله – رحمه الله – وكانت سيرته أحسن السير.

وفيها تولّى الخليفةُ المستنصر بأمر الله أبو جعفر أمير المؤمنين. وكان صاحب هذا التاريخ قد ذكر نسبة الخلفاء أولًا فأولًا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه أجمعين –. ثم من عبد مناف أبًا فابًا إلى الإمام الناصر، ولكن اختصرناه فإنه أمر مشهور لا يكاد أن يخفَى إلّا على من لا يطالع العلوم.

وفي هذه السنة رجع العرب الايوانيه[(٤)] إلى بلادهم، ولكن بعد وفاة جلال الدين، وأقاموا ببلادهم على ما كانوا عليه، وهما بلدان معروفان وهما أُشْنُهْ وأُرمية[(٥)]، وكان جلال الدين قد نهبهم وأباع حريمَهم وأولادهم في أيام دولته كما ذكرناه.

---

(١) كذا في الأصل، والأولى أن تكون: خوفًا من.

(٢) قارن برواية ابن واصل ٤/١٣٥.

(٣) قارن برواية الكامل لابن الأثير ١٢/٤٢٠؛ ومفرّج الكروب ٤/١٣٥.

(٤) في الأصل: الايونيه. انظر ابن واصل: ٤/١٩١ (حاشية ١)، ٢٠٢: الايوانية: وهم التركمان الإيوانية. راجع الكامل لابن الأثير ١٢/٤٦٢.

(٥) في الأصل: أرمينية، انظر: مفرّج الكروب لابن واصل ٤/٢٠٢، وأُشْنُه: بلدة في طرف أذربيجان من جهة إربل، ذات بساتين. وأُرميَة: مدينة كبيرة بأذربيجان. راجع: معجم البلدان لياقوت.

ثم دخلت سنة اثنين[١] وثلاثين وستماية من الهجرة النبوية

فيها[٢] مات السلطان الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق ابن الملك العادل أخو الملك الكامل – رحمه الله –. وكانت سيرته سيرة حسنة، وكانت مدة مملكته بدمشق تسع سنين./ وكان جليلَ القَدْر، عظيمَ الشأن، كبيرَ الرأي بين إخوته. وعَهِدَ بعد وفاته لولده السلطان الملك الناصر صلاح الدين داوود. [١٠ظ]

وفي هذه السنة استولَى الملك الأشرفُ على معظم بلاد الشرق. ولم يزل الأمر كذلك، والملك الكامل محمد أبو المعالي مقيم بالديار المصرية، والملك الناصر داوود بدمشق.

وفي هذه السنة توجَّهَ الملك الكاملُ بعساكره إلى الشام، وقصد أن يستولي على دمشق، وعَهِدَ عَهْدَ السلطنة لولده السلطان الملك العادل، ولقّبه سيفَ الدين أبي بكر وهو العادل الصغير.

ذِكْرُ مَولد الملك الصالح

كان مولد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل سنة ثلاث وستماية، فكان عمره حين بويع له بالسلطنة سبع عشر سنة[٣]. ولما رحل الملك الكامل إلى الشام، نزل على تَلّ العُجول بغزة. وبعث نوابه إلى نابلس والبيت المقدّس والخليل، واستولَى على هذه الأماكن. ووصل إلى خدمته الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب ووقف بين يدي الملك الكامل خوفًا منه.

وفي هذه السنة اتفق جماعةٌ من أهل بعلبك من الرجال الذين بالقلعة أن يخامِروا على الملك الأمْجد صاحب/ بعلبك ويسلموه للملك الكامل. فبلغ ذلك الملك الأمجد [١١و]

---

(١) كذا في الاصل، وصوابها: اثنتين.

(٢) بالهامش: دخول سنة ٦٢٩[؟] والخليفة الإمام المستنصر بالله، والملوك على حالهم كما تقدم في السنة الخالية. سنة ٦٣٠، والخليفة الإمام المستنصر بالله والملوك على حالهم. وفي السنة المذكورة ٣ رمضان [؟] سلطن الملك الكامل ناصر الدين محمد ولده العادل سيف الدين أبو بكر، وركب وشق القاهرة، وركب في خدمته جميع الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين وغيرهم. وفي السنة المذكورة توجه الملك الأشرف إلى خدمة أخيه السلطان الملك الكامل صاحب الديار المصرية سنة ٦٣٢.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: سبع عشرة سنة.

فمسكهم الجميع[١]، وقتل بعضهم، وحبس بعضهم، وسير من بقي منهم إلى الملك الكامل، وذلك طاعةً له وخوف منه[٢].

وفي هذه السنة ثبت المُلْكُ للملك العادل ابن الكامل بالديار المصرية.

وفيها مات الفقيه العدل الشيخ الإمام حمزة ابن عبد الرزاق المعروف بأبي يعلا صاحب الشعر، ومن جملة شعره وفضايله هذه الأبيات وهي لم يردْ مثلها شعر: [من الكامل]

صَبٌّ إذا بَرْقٌ برامة أَوْمَضا ... حُنِيَت أضالِعُه على جَمرِ الغضا
حَيْرانُ بات يظنّه بان الحِمَى ... أو ثَغْر لَيْلَى قد أضاء لِذي الإضا
لَولا حِجابُ الدَمْعِ حقَّق أنّه ... سَيف الشهاب على النواظر يُنْتَضَا
مَنْ مُبْلِغُ النائينَ عنه بأنّهُ ... من حينَ أومَضَ بَرْقُهم ما أغْمَضا
تركوه والليل الطويل وطالما ... قد كان يُرعبه الصّباحُ إذا أضا
وحَمَوْه قُربَهمُ ولو أبقَوا كرًى ... يلقا خيالَهُمُ به لتعوّضا
وجَنَوْه أشوق ما رأوه إليهمُ ... فأطاع حُكْمَ صُدودهم لا عن رِضا
لو أنصفوا يومَ الوَداع توقّفوا ... حتى قضَى وَطَرَ المودِّعِ أو قضا
يا صاحبَيَّ وأنتما أولَى إذا ... قَعَد الغرامُ بصاحبٍ أن تَنْهَضا/ [١١ظ]
إن جئتما عَذَبات رامة يَمِّما ... رَوْضًا هُناك بماءِ دَمْعي رُوِّضا
وتَعَرَّضا لِضناء وجرةَ واشْرحا ... وجدي وإنْ لم تذْكُراني عَرِّضَا
قُولا لهم: أَتُرَى دُيونُ عَبيدكم ... تُقضَى؟ وهل بِسوَى حياتي تُقْتَضا؟
وإذا همُ سَألوا أأصبح بعدنا ... حيًا؟ فقُولا: كان ذاك وقد قضا
فأنا الخليل وإنْ أُذبْ بِصُدُودِهم ... وأنا الصحيحُ وإنْ هواهُم أمْرَضا
وأحبُّ مَن أهْواه نحوي مُقْبِلٌ ... بودادِهِ وأصُدُّ عنه مُعْرِضا
حاشا قديمُ هَواكمُ أنْ تَنْقَضي ... أيّامُه وعهودُكم أن تُنْقَضا
ولقد جَزِعْتُ من الفِراق وطولِهِ ... وخَشيتُ أن أقضي الحِمامَ وما اقتَضا
لما وقفتُ على المنازِلِ بعدهم ... وسألت: كم بين العقيق إلى الغَضا؟
ساروا، وخلّفني الهوَى من بعدِهم ... أبكي الطُلولَ مصرّحًا ومُعَرِّضا

(١) كذا في الأصل.
(٢) كذا في الأصل، وصوابه: وخوفًا منه.

وَلَوِ استَطَعْتُ فِراقَها لَتَبِعتُهُم ... فَزِمامُها بِيدي وما ضاقَ الفَضا
وعلى فُروعِ البانِ كلَّ مَليَّةٍ ... بالوَجْدِ أيْقَظَها النسيمُ وحَرَّضا
كلفتُ بِوَرْدٍ كالخدود مُذَهَّبًا ... وأقاحِ روضٍ كالثُغُورِ مُفَضَّضا
وبِمُهْجَتي مَن ناظِراه على دَمي ... يومَ التفَرُّقِ جَهَّزاه وحَرَّضا
وسَألتُ يومَ فراقِه رُقَباءَه ... نَظَرًا إليه فحِينَ أنْكَرَ أعرَضا[١]

/ فهرب [الملك الصالح] إلى سنجار واختفى بها أيامًا. ثم ظهر وطلب الخوارزمية [١٢و]
إلى عنده، وكتب لهم كتبًا بما يرضيهم، وحلف لهم أيمانًا كثيرة. ثم استخدمهم في جملة من استخدم[٢].

وفي هذه السنة وقع الاختلاف في ساير الأقاليم بالعجم والعراق والروم والشام ومصر، ولا مثل ما جرى لملوك بني أيوب، فإنهم بعد هذه السنة لم ينتظم لأحد منهم شمل مع الآخر، ولا حلف منهم أحدٌ للآخر وصدق، ولا وعد [واحد] منهم لأخيه وَعْدًا ووفا.

وفي هذه السنة اتفق الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب مع السلطان غياث الدين ابن كيقباذ صاحب الروم، واتفق معهم خلق كثير من التركمان على قتال السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها خطب السلطان غياث الدين بن كيخصروا صاحب الروم إبنةَ السلطان الملك العزيز صاحب حلب، وأرسل رسُله إلى الصاحبة خاتون والدة السلطان الملك العزيز صاحب حلب، يطلب منها أن تزوِّجه ابنة ابنتها[٣] أخت الملك الناصر صاحب حلب، فوقع الاتفاق على ذلك[٤].

وفي هذه السنة اجتمع جميع أمراء الشام وبعض ملوك الشام والشرق، وحضروا إلى
مدينة/ حلب وصعدوا القلعة الشهباء اليمانية، وصحبتهم القضاة والأشراف وسَراة [١٢ظ]

---

(١) هنا انقطاع في سياق المتن الأصلي، ولا ندري ما هو حجم السقط.

(٢) انظر : مفرج الكروب ١٧٨/٥ : وقصد [الملك الصالح] سنجار فاختفى بها خوفًا على نفسه، ثم ظهر؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٣٣٠/٧ : ورجع هاربًا إلى سنجار.. إن الملك الصالح سيّر إلى بعض الخوارزمية واسترضاهم، وأنعم عليهم، وعادوا إلى خدمته.وهذه الأحداث تنسبها سائر المصادر إلى السنة ٦٣٥هـ.

(٣) راجع الرواية في مفرج الكروب ١٨٣/٥؛ وزبدة الحلب لابن العديم ٢٣٧/٢؛ والسلوك للمقريزي ٢٧٢/١؛ ومختصر أبي الفداء ٦٤/٦.

(٤) كذا في الأصل، وصوابه: ابنة ابنها السلطان الملك العزيز أخت الملك الناصر....

الناس، وعُقِدَ عقدُ التزويج للسلطان غياث الدين على الست غازية خاتون ابنة السلطان الملك العزيز صاحب حلب، أخت الملك الناصر كما ذكرنا. وتولى قبول العقد القاضي كمال الدين ابن العديم على مذهب الإمام أبي حنيفة، وذلك لصغر سن الزوجة على صداق مبلغه مايه ألف دينار(١).

وعَقدَ عقْدَ النكاح القاضي عز الدين قاضي توريز(٢)، وهو الوارد من جهة السلطان غياث الدين. وعند الفراغ من العقد نُثِرَت الدنانيرُ والدراهمُ على رؤوس القضاة والأشراف والعُدول، وبذلت الناسُ الأموالَ والتفاصيلَ والشقق المكللة باللؤلؤ.

وفي تلك الساعة وهي ساعة العَقْد، وصل الخبر على جناح الطاير أن عسكرَ حلب قد أخذوا قلعة المعرة بالسيف، وكان ذلك مما يوافق صاحب حلب وأهلها. قال: فعند ذلك دقت البشاير، وكان بحلب يوم عظيم.

ثم إنّ السلطان الملك الناصر صاحب حلب سَيَّر الأميرَ عز الدين النجاحي رسولًا
[١٣و] للصاحبة أمّ السلطان غياث الدين صاحب الروم، يطلب منها أن تزوجَه/ بالملكة خاتون ابنة السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم، ووكّل في قبول عقد التزويج الأمير كمال الدين كيميار(٣).

وفي هذه السنة عُقِدَ عقدُ تزويج صاحب حلب على بنت صاحب الروم، وصاحبِ الروم على بنت صاحب حلب.

قال: ثم إنّ الأميرَ كمال الدين كيميار رحل من بلاد الروم بعد ما اجتمع بالسلطان غياث الدين ابن كيقباذ، وكان اجتماع الجمعَين يوم الثلاثاء لاربع عشرة بقين من شهر صفر سنة خمسٍ وثلاثين وستماية. وكان الوكيل في أمر التزويج عن السلطان غياث الدين كيخصروا الأمير كمال الدين كيميار، فكان حينئذٍ الوكيل عن الملكين وعن الزوجتين والزوجين.

ولما اتفق أمر العَقْد وتقرر حال التزويج، دخل الأميرُ كمال الدين كيميار إلى القصر وطلب الفقهاء والقضاة والعُدول والأشرافَ وسادات الناس الذين حضروا من الروم،

---

(١) راجع الرواية في زبدة الحلب حيث يقول ابن العديم: «وتوليت عقد النكاح... على خمسين ألف دينار».

(٢) في زبدة الحلب: قاضي دوقات حينئذٍ، ولَعلّها مصحّفة عن «توقات» وهي بلدة على مسيرة يومين من سيواس بآسية الصغرى. أنظر: معجم البلدان لياقوت.

(٣) زبدة الحلب: كاميار.

وعقد الأمير كمال الدين كيميار عقد النكاح بحضورهم، وذلك على صداق مبلغه مائة ألف دينار[١].

ثم بعد ذلك نثرَ الناسُ الدنانيرَ والدراهم والثياب واللآلي والجواهر على رؤوس القضاة والأشراف والشهود/ ومن كان حاضرًا. ثم بعد ذلك أحضر السلطان غياث [١٣ظ] الدين توقيعًا جليلًا مشرَّفًا بخطه، صحبة الصاحب كمال الدين ابن العديم، يتضمن تسطيره «أن السلطانَ الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز، قد قبلَ ما وهَبه له السلطان غياث الدين صاحب الروم، وهو الرّها وأعمالها وسَروج[٢] وأعمالها، وملك هذين البلدين تمليكًا لا رجعة فيه».

قال ابن واصل: إن هذين البلدين لم تكن للسلطان الملك الناصر صاحب حلب ولا تحت أمره، ولا للسلطان غياث الدين ولا تحت أمره، ولكنهما تحت حكم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[٣]. قال: ولما وصل الخبر إلى الملك الصالح وهو يومئذ بحصن كيفا أنّ صاحب الروم وصاحب حلب قد تصاهرا وتظاهرا عليه وعلى غيره ووهبا هذين البلدين وهما في مملكته وحكمه، عظم ذلك على الملك الصالح ووقع التشويش.

وفي هذه السنة أراد بدر الدين لؤلؤ أن ينزلَ على سنجار ويحاصرها ويضيّق على أهلها ويناكد السلطان الملك الصالح نجم الدين، فاختار الرجوعَ فغلبت عليه/ نفسه، [١٤و] فنزل أيامًا وقيل ستة أيام. ثم رحل عنها ورجع إلى الموصل. ولما بلغ الخوارزمية أن بدر الدين لؤلؤ قصد مضايقة الملك الصالح، سَيّروا رسلهم إلى الملك الصالح يقولون: «نحن مماليك مولانا الملك الصالح».

فطلبهم الملك الصالح إليه وأرضاهم، واستعبدهم بالأموال، ووعدهم بالمواعيد الكثيرة والإقطاعات والبلاد والرِّباع. وكان الرسول بين الخوارزمية والملك الصالح القاضي شمس الدين يوسف ابن الحسن[٤]. ولما اجتمع القاضي بالخوارزمية وضَمِنَ لهم

---

(١) زبدة الحلب ٣/٢٤٠: خمسين ألف دينار سلطانية، مثل صَداق «كيخُسْرو» الذي كُتب عليه لأخت السلطان الملك الناصر. وفي مفرج الكروب ٥/١٨٥: «خمسين ألف دينار مصرية».

(٢) راجع معجم البلدان لياقوت.

(٣) مفرج الكروب ٥/١٨٥: «وهما من بلاد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل...

(٤) كذا في الأصل، وفي السلوك ومفرّج الكروب: القاضي بدر الدين قاضي سنجار يوسف بن الحسن الزرزاري. ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي ٢٩/١٨٣–١٨٥ «أبو المحاسن الشافعي الزرزاري»؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٦١–٦٧٠) ١٦٢–١٦٤.

عن السلطان الملك الصالح كل ما يختارون، وأقطع لهم البلادَ والأموالَ، وكتب مناشير المقدّمين اللذين للخوارزمية هذين البلدين حرّان وسروجَ والرّها وما بينهما[١]. وكان مقدّمي[٢] الخوارزمية رجلين أحدهما يُسمّى صاروخان والآخر صارْبَرْدي[٣].

قال: فعند ذلك، جاء مقدّمو[٤] الخوارزمية إلى الملك الصالح. ولما بلغ بدر الدين صاحب الموصل حضور الخوارزمية إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، ندم على ما صنعَ بنفسه، وقال في نفسه: والله لأُرضِيَنَّ الملك الصالح بما تصل قدرتي إليه، ورجع إلى الموصل/. [١٤ظ]

وفي هذه السنة اتّفق الخوارزمية مع عسكر الروم وعسكر حلب، وانكسر عسكر الروم وعسكر حلب، وكانت فتنةٌ عظيمةٌ بين عساكر المسلمين.

وفيها وقع الاختلاف بين الملك الجواد صاحب دمشق والملك الناصر صاحب حلب.

ثم دخلت سنة سِتّ وثلاثين وستماية من الهجرة النبوية

والملك العادل الصغير ابن الملك الكامل صاحب الديار المصرية وهو صغير دون عشرين سنة أو أقلّ من ذلك، وصاحب دمشق الملك الجواد يونس، وصاحب حلب الملك الناصر ابن الملك العزيز، وصاحب الكرك والقدس والبلقاء وبعض الأغوار الملك الناصر داوود. وكان الملك الناصر داوود أعرجًا فاضح العراج إلى الغاية، وكان ذا سياسةٍ وعَقْلٍ وعَزْمٍ وحَزْمٍ وتدبيرٍ وفكرة، ولكن كان سعده قليلًا.[٥]

---

(١) عن سَروج والرها وحرّان، أنظر: معجم البلدان لياقوت.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: مقدّما.

(٣) عن هذين المقدمين، أنظر: الوافي بالوفيات ١٦/٢٢٦ رقم ٢٤٩؛ والأعلاق الخطيرة لابن شداد ٣/١/٨٢؛ وتاريخ الإسلام الذهبي (وفيات سنة ٦٤٣هـ) ١٦٦ رقم ١٧٧. وقد ورد إسم المقدم الثاني: بَرْدي خان.

(٤) كذا في الأصل، والصواب: مقدّما.

(٥) للاطلاع على تفاصيل أحداث هذه السنة، يراجع النجوم الزاهرة ٦/٣٠٣؛ ومرآة الزمان ٨/٧١٨؛ ونهاية الأرب للنويري ٢٩/٢٣٨؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٣١-٦٤٠) ٢٧؛ ومفرّج الكروب لابن واصل ٥/١٩٧؛ والسلوك للمقريزي ١/٢٧٤؛ ومختصر ابن كثير ٦/٦٤؛ وكنز الدرر ٧/٣٢٦.

وصاحب سنجار والرّها وحرّان والخابور وحصن كيفا وبعض الشرق نجم الدين أيوب إبن الملك الكامل، وملك العربان بالشام مُهَنّا بن عيسى، وعز الدين أيبك الناصري بيده صَرْخد. وكان رجلًا دَيِّنًا وَرِعًا كثير الحِلم والعلم، مشتغلًا بتلاوة/ القرآن. وكان له في كل يوم وليلة ختمة، وكان من جملة مماليك الملك [١٥و] الناصر داوود صاحب الكرك. والملك الأمجد ببعلبك وبقاع العزيز وأعمالها، وصاحب حمص الملك الأشرف، وصاحب حماة وأعمالها الملك المظفّر، وصاحب الموصل وأعمالها السلطان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، وصاحب خَرْتَبرت الملك المنصور، وصاحب ميّافارقين شهاب الدين غازي، وصاحب ماردين الملك السعيد ايلا غازي، وصاحب سيس لاوون ابن لافون، وصاحب طرابلس البرنز أرناط، وصاحبة بيروت امرأة وتُسمّى عند الفرنج الست بيروت، فإنها عندهم أعظم من ساير ملوك الفرنج وأدينهم. وصاحبة عكا امرأة، والداوية متصرّفون في عكا وأموالها وحواصلها وبلادها. وصاحب جُبيل سير طرياط[١]، وصاحب أنفا برْنَرد وهو مظاهر مع المسلمين، والخوارزمية مشتتون في أطراف البلاد كل يوم عند ملك، ولا يقفون عند ما يقولون ولا عند ما يقال لهم، وإن حلفوا كذبوا، وإن استؤمنوا خانوا، وإنْ قيل لهم غدروا،/ وكان كل ملك خدموه أساؤوا في حقه، ولا يقدر أحد على [١٥ظ] مقابلتهم ولا على مصاحبتهم ولا يمشي معهم، وكل من صاحبهم أو قاربهم حصل له منهم أذًى ونكَد وضرَر.

والبحرية بالديار المصرية وأعمالها، وهم غيرُ راضين إلا بأستاذهم الملك الصالح نجم الدين، والملوك الإسلامية جميعهم مختلفون، والخليفة مشتغل بما لا يمكن شرحه، والتتر قد استولوا على معظم البلاد الإسلامية من جهة العجم، وزادوها خرابًا على خرابها، فلا رادّ لمشيئة الله تعالى. ولم يبقَ قُدّام التتر غير إقليم خراسان وبغداد. وقد قوي ذكر هلاوون ابن طولوخان ابن شنكزخان.

وفي هذه السنة رجع عسكر حلب إلى حلب، ورجع كل عسكر من العساكر الإسلامية إلى إقليمه، وذلك لمّا بلغهم حركة التتر.

---

(١) كذا في الأصل. من المحتمل أن طرياط تحريف لأرناط، يعني الريد أرناط صاحب جبيل. راجع الصفحة ١٣٦ مما يلي.

وفيها قدم الأمير فخر الدين ابن الشيخ من عند الملك العادل ابن الكامل صاحب مصر إلى عند الملك الجواد بدمشق، وعلى يده كتاب مفتوح بغير عنوان للملك الجواد والأمراء بدمشق والأجناد، مضمونه:

«إنكم تعلمون أن دمشقَ كانت لأبي السلطان الملك الكامل، وأني وارث مملكة أبي، [١٦و] وأنتم والملك الجواد طمعتم وتهاونتم حتى ملّكتم الملك الجواد دمشق/ وسلمتموها له، وما أعرفُ خلاص دمشق إلّا منكم، وقد أعذَرَ من أنذَرَ». ثم استثنا في كتابه للملك الجواد: «قد أسأت التدبير، وأخذت بغير حقّك، واللهِ لئن لم ترجع عما أنت فيه، لأفعلنّ وأفعلن». قال: ولمّا وصل هذا الكتاب من عند الملك العادل صاحب مصر إلى الملك الجواد صاحب دمشق خاف على نفسه.

ذِكْرُ ما جَرى بين الملوك، وهم ملوك بني أيُّوب من الاختلاف والنَّكْثِ والحرُوب والآراء المختلفة

قال: ولما تيقن الملك الجواد أنه لا بد للملك العادل صاحب مصر من دمشق، وأنه لا يرجع عنها، وأنه إنْ ملكها منه غَضْبًا سخط عليه وحبسه. فقال في نفسه: إنَّ الملكَ الصالح نجم الدين أيوب خيرٌ لي من أخيه الملك العادل. فنهض من وقته وكتب كتابًا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، مضمون كتابه: «يا خَوند نجم الدين – أيّدكَ اللهُ– والله ما أخذتُ دمشقَ لنفسي، ولكني احتويت عليها لأحفظها لك إلى أن يحضر رِكابُكَ الشريفُ، وأنا مملوكك ونائبك، وأموت بين يديك». وكتب إليه يستدعيه إلى الحضور[١].

قال: ولما وصل الرسول[٢]، إلى الملك الصالح نجم الدين، وقرأ كتابَ الملك الجواد، [١٦ظ] ركبَ من فوره وطلب الشام ومعه خمسة عشر مملوكًا، ووصل إلى دمشقَ وملكها،/ وسلَّمها له الملك الجواد ونزل إلى دار السعادة. ولما سمع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أن الملك الصالح نزل بدمشق وملكها، سَيَّرَ إليه أربعينَ مملوكًا ملبَّسين بخيولهم وقماشًا

---

(١) قارن برواية ابن واصل في مفرّج الكروب ٥/٢٠٠؛ ورواية السلوك ١/٢٧٤؛ وزبدة الحلب ٣/٢٤٤.

(٢) مفرّج الكروب: الشيخ كمال الدين بن طلحة.

وتفاصيلَ وذهبًا ودراهم، وسَيَّرَ له يعتذر له مما كان صدر منه. وصارا[١] هذان الملكان نفسًا واحدةً بعد العداوة العظيمة، وصار بينهما وُدٌّ لا يكاد أن ينفصلَ.

ولما وصلت هذه التحف من جهة صاحب الموصل، فرح الملكُ الصالح لذلك فرحًا شديدًا، وعلِمَ أن مُلْكَ دمشقَ والشام بكماله قد تقرّر له.

ذِكْرُ ما جَرى بين ملوك بني أيّوب

قال: ولما طارت الأخبار لملوك الشام أن الملكَ الصالحَ نجم الدين أيّوب قد نزل بدمشق وملكها، وأنَّ الملكَ الجوادَ سلمها له، عَظُمَ ذلك على الملك الصالح ابي الخيش، وعلى صاحب حلب، وعلى صاحب حماة، وعلى صاحب حمص، وعلى صاحب بعلبك. واجتمعوا[٢] هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم، وقال بعضُهم لبعض: «ما ترون؟» فأشار الجميع إلى الملك الصالح أبي الخيش وقالوا: «أنت كبيرُنا وما لنا خروج عما تأمرنا به». فاتفق الحال أن تنزلَ الملوكُ بأجمعهم إلى نابلس، ويكتبوا إلى الملك الصالح كتابًا مضمونه:

«إنكَ أنت كبيرُنا وابن كبيرنا، وإنّ الفرنج/ قد نزلت في خلق لا يعلم عِدَّتهم [١٧و] إلّا اللهُ، وهم مقيمون بعكّا، فتحضر إلينا نشاورك على ما تكون مصلحة الإسلام عليه». وقيلَ إنَّ الملكَ الجوادَ بعث إلى ابن شيخ الشيوخ، وهو الرسولُ الذي كان حضر من جهة الملك العادل صاحب مصر بالتهديد وبما نقلناه. فضربه الحشيشي سكينين فقتله[٣].

قال ولما وصل كتابُ الملوك إلى الملك الصالح نجم الدين وهو يومئذٍ بدمشق، وكان قليلَ الرجال، قليلَ المال، قليلَ الجُنْد والعساكر، والذين حوله من الجند والأمراء خلق قليل، خاف على نفسه وقال: «إنْ لم أمشِ إليهم حاصروني بدمشق».

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: وصار هذان...

(٢) كذا في الأصل، وصوابه: واجتمع هؤلاء...

(٣) راجع الرواية مع اختلاف في التفاصيل في مفرج الكروب ٥/٢٠٣؛ والسلوك ١/٢٧٤؛ ومرآة الزمان ٨/٧٢١؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٣١-٦٤٠) ٢٩.

قال الملك الصالح عن نفسه: «فاضطررت وركبت صُحْبَةَ الرسول والبريد الذي جاءني من جهة الملوك، وسِرْتُ معهما حيث شآ[١]». قال الملك الصالح عن نفسه: «والله لقد كنت أيَّ منزلةٍ أتَوا بي إليها أقول: ها هنا يغرقوني، تحت هذا الجبل يقتلوني، في هذا الكوم يدفنوني، إلى أنْ أتَوا بي إلى بركة زيزة[٢]».

قال الملك الصالح: «لما رأيت بركة زيزة، تشاهدتُ وعلمتُ أنّ ملك الموت قد كَشَّر لي عن أنيابه». فقلت للرسول والبريد: «واين الملوك؟ قالا: في الكرك». فتوجهنا إلى الكرَك فلم نجد الملوك». قال الملك الصالح: إنهم جعلوا يدورون بي في الضِّياع والبريّةِ مدّة [١٧ظ] أربعة أيام ويختاروا لي طالعًا نحسًا ليعتقلوني فيه/ وكان الطالع الذي حبسوني فيه أشرفَ الطوالع وأجلّها». قال الملك الصالح عن نفسه: «لما دخلوا بي إلى الكرَك، كانت مُدَّةُ إقامتي في الحبس أربعة وتسعين يومًا، وهي ثلاثة أشهر وأربعة أيام». قال الملك الصالح نجم الدين:

«لما أمر الملوكُ بحَبْسي، وكّلوا عليَّ أربعين جاندارًا. وكان مقدَّمُهم فظًّا، غليظًا، كثيفًا، بغيضَ الوجه، قبيحَ المنظر. وجعلوا معه واليًا من جهتهم وهو عز الدين أيبك صاحب صَرْخَد. وكان رجلًا ديِّنًا – كما ذكرناه – وقالوا له: أنت رجل عاقل، وهذا الملكُ الصالح رجلًا عاقلًا[٣]، فتقف في خدمته إلى أنْ يفعل الله فيه ما يختار.

وتركوا عندي خادمًا صغيرًا دون الخمس عشرةَ سنةً. فأقمت أوّل شهرٍ والثاني والثالث، وأنا لا أُقدِم على الطعام خوفًا أن يكون مسمومًا. وكان عز الدين أيبك صاحب صَرْخَد إذا أتاني بالطعام ويراني لا أُقدِمُ عليه يقول لي:

يا خوَنْد نجم الدين كُلْ وأنت طيِّب القلب، والله ما في الطعام ما يشوّش عليك. ثم يتقدّم فيأكل قبلي ويأخذ شاشتي الطعام في كل يوم وذلك جَبْرٌ[٤] لقلبي وشفقةً عليّ».

---

(١) كذا في الأصل، وهي شاءا.

(٢) زيزة أو زيزاء، المكان المرتفع، وهي من قرى البلقاء، يطأها الحاج، ويقام بها سوق لهم، وفيها بركة عظيمة.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: رجل عاقل.

(٤) كذا في الأصل، وصوابها: جبرًا.

ذِكْرُ ما جَرى للملك الناصر صاحب حلب

قال صاحب التاريخ: وإنّ الملكَ الناصرَ صاحب حلب لما طال حبس الملك الصالح/ نجم الدين أيوب، كتب إلى الملك الناصر داوود صاحب الكرك إنه: «إذا [١٨و] أتاكَ كتابي هذا فاقتل الملك الصالح قولًا واحدًا. قال الملكُ الناصر داوود في نفسه: «كيف يَحِلُّ لي اقتل[1] هذا الملك العظيم وهو كبيرُنا وابن كبيرنا، ويخرج إسمي بين ملوك بني أيّوب قتّال النفس».

فلما كان الشهر الثاني، كتبَ الملكُ الناصرُ صاحب حلب إلى الملك الناصر داوود: «قد تردّد كتابي إليك بقتل الملك الصالح وأنتَ تمتنعُ وتدافع وتسوّف من وقت إلى وقت، فداركْ أمرَكَ واقتله لنستريح نحن وأنت منه، فإنه ما يأتينا منه خير».

قال صاحب التاريخ: لما وصلَ كتابُ الملك الناصر صاحب حلب إلى الملك الناصر داوود صاحب الكرك، وقرأ كتابه قال في نفسه: «والله إن الملكَ الصالحَ نجم الدين أيوب لي خيرٌ من الملك الناصر صاحب حلب وأكثر رحمةً وأقرب للحِلْمِ».

وبقي الملكُ الناصرُ داوود مترقّبًا لوقتٍ يمكن فيه الحديث مع الملك الصالح، فلم يجد وقتًا. وذلك أنّ عليه رُقباء من الجاندارية وجواسيسًا يطالعوا[2] الملكَ الناصرَ صاحبَ حلب بما يتحرّر منه مع الملك الصالح.

قال الملك الصالح عن نفسه قال[3]: «لما دخل عليَّ الشهرُ الثالثُ وأنا في الحَبْس، وقد ضاقَ ذرعي وأخلاقي/ من السجن إذ أتو لي[4] بطعامٍ فأبتْ نفسي الأكلَ، فقلت [١٨ظ] للخادم: خُذْ هذا الطعامَ وامضِ عَنّي. فأخذ الخادمُ الطعامَ وجلسَ يأكلُ، وأمعنَ في الأكل. فمشّى بطنُ الخادم، فتلف البساطُ والنّطْع الذي لي». قال الملكُ الصالح: «فأخذت البساط على كتفي والنطْع على يدي وبعضه على كتفي وخرجت لأغسله، وإذا بالجاندارية والمقدّم الذي لهم جلوس على الباب».

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: قتلُ.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: وجواسيس يُطْلِعون...

(٣) مكررة في الأصل.

(٤) كذا في الأصل، والصواب: إذْ أتوني...

قال الملك الصالح: «فنظَر البردار نحوي وقال: ما حملك على ما صنعت؟ قلت: وما صنعت يا مقدّم؟ قال: تتعدى وتصل إلى هذا الدهليز بغير أمرنا، والله لأن[١] عدت لمثلها لأقطعن رِجلكَ. قلت: يا مقدم، ألا تنظر هذا الحال وما أنا فيه؟ قال: أُعبر بلا هَذَيان واغسله بيدك ونشِّفه بثيابك».

قال الملك الصالحُ: «فرجعت ولم أدرِ كيف الطريق. فجلست على طرف الإيوان وأنا أغسلُ في ذلك الحال وأنظر إلى السماء وأقول: يا ربَّ الأرباب، إمّا فَرَجٌ عاجلٌ وإمّا موت عاجل».

قال الملك الصالح: «والله لم أفرُغْ من غسيل ذلك البساط إلّا وقد دخل عليَّ الملكُ الناصرُ داوود وبين يديه أيبك صاحب صَرْخَد. فلما نظرتُ إليه بكَيت. فلما نظر إليَّ وأنا أبكي، تبسَّمَ وقال: ما يُبكيك يا خَوند نجم الدين؟/ قلت: هذا الحال الذي تراه يا ابن [١٩و]
العَمّ. قال: ما تقول فيمن يُملِكُكَ مصر؟

قال: فنظرتُ إليه وقلت: يا ابنَ العَمّ، أُحْلُبْ حَلْبًا لك شَطْرُه. قال الملك الناصر داوود: إني أخافُ منك متَى مَلَّكتكَ مصر لم تعمل ولايتك إلا في قتال الملك الصالح. فقلت له: يا ابنَ العَمّ، لا تقُلْ هذا أنا في تصريفِكَ، ومهما تفعله معي كأنّ مع الله تعالى. ثم ناولني كتابًا وقال: إقرأْ هذا الكتاب. فإذا هو كتاب الملك الناصر صاحب حلب، وهو ثالث كتاب وهو يقول: والله متى أحوجتني إلى رابع كتاب لأركبن إليكَ بنفسي، أنا ومن يطاوعني من الملوك وأخرب الكَرك على رأسك.

ثم قال لي الملك الناصر: والله يا ابن عمي منذ حَبَسُوكَ عندنا ورَد عليَّ هذا الكتاب ثلاث كتب وهو يشلبني[٢] على قتلتك، ولم أجد لنفسي من القوّة والجَبَروت أن اقتل ملك[٣] مثلك. ترى أنْ تملكَ مصرَ؟ قلت: أنا في تصريفك. قال: فأمرَ الملكُ الناصرُ داوود بالحَمّام فتجهَّزت». ودخلوا بالملك الصالح الحمّامَ، ورسمُوا بالخيل فشُدَّت وبالهُجُنِ فتجهَّزت. وركب الملكُ الناصرُ داوود صاحب الكرَك والسلطان الملك

---

(١) كذا في الأصل، وهي: لَئِنْ.
(٢) أي يغريني، أنظر: لسان العرب (شلي).
(٣) كذا في الأصل، وصوابه: أن أقتلَ ملكًا...

الصالح نجم الدين أيّوب، والأمير عز الدين صاحب صَرْخَد. وللوقت جَهَّزوا البريدَ إلى الديار المصرية إلى المماليكِ البَحْرية الصالحية/ وهم: [١٩ظ]

الأمير علاء الدين قَراسُنْقُر العلائي الذي[١] تنتسب إليه العلائية جميعًا، وسراسنقر[٢] الوزيري، و[سيف الدين] برامق، و[سيف الدين] سكز، و[بدر الدين] بكمش المسعودي، سنقر الأشقر[٣]، [شمس الدين] سنقر الرومي، سنقر الأقرع[٤]، الرشيدي، الفارس أقطاي الجمدار[٥]، المحمّدي، سم الموت، وبيبرس البندقداري[٦]، قلاوون الصالحي[٧]، وعلى يدهم كتاب مضمونه[٨]:

«إذا وقفتم على كتابنا هذا فلتخرجوا للقانا بالعلاقمة[٩] وصحبتكم الملك العادل وأمه ليسلّموا على السلطان الملك الصالح».

قال: ولما وصل كتاب الملك الصالح إلى البحرية في تلك الساعة، ركبوا جميعًا. وكان البحرية في ذلك الوقت أشرّ خلق الله تعالى، وكانت أفعالُهم أنحس من أفعال الخوارزمية. فركبوا من فورهم واستصحبوا صحبتهم الملك العادل وأمه.

قال القاضي جمال الدين [يحي][١٠] ابن مطروح: لما نزل السلطان الملك الصالح منزلة العلاقمة وأتا إليه البحرية، قبلوا يده. ثم وقفوا يمينًا وشمالاً، ودخلوا عليه بالملك العادل وأمه، وقبّلوا يد الملك الصالح. ثم أمر الملك الصالح أن يدخلوا بهم إلى الشقة.

---

(١) في الأصل: الذين.

(٢) في سائر المصادر: قراسنقر.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٥/٤٩١ رقم ٦٥٦.

(٤) ترجمته في الوافي ١٥/٤٩٠ رقم ٦٥٤.

(٥) ترجمته في الوافي ٩/٣١٧ رقم ٤٢٥٠ «أقطاي بن عبد الله».

(٦) ترجمته في الوافي ١٠/٣٢٩ رقم ٤٨٤١ «بيبرس بن عبد الله السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالحي».

(٧) ترجمته في الوافي ٢٤/٢٦٦ رقم ٢٨١ «السلطان الملك سيف الدين ابو المعالي وأبو الفتوح التركي الصالحي النجمي».

(٨) الزيادات من السلوك للمقريزي.

(٩) بليدة في الحوف من أرض مصر دون بِلبِيْس، فيها اسواق وبازار يقوم للعرب. انظر: معجم البلدان لياقوت.

(١٠) الزيادة من السلوك للمقريزي ١/٢٨٤.

قال القاضي جمال الدين [يحي] ابن مطروح : والله نحلف به، منذ قبّلوا يد الملك الصالح ودخلوا إلى الشقّة، لم يَرَوا بعدها إلى يوم تاريخه، ولا يعلم أحد ما فعل الدهرُ بهم.

[٢٠و] وأما الملك الناصر داوود فإنه/ لما رأى المماليك البحرية وما هم عليه من الشجاعة والبراعة والإقدام على سفك الدماء، خاف على نفسه.

قال صاحب التاريخ : إنّ الملكَ الصالح نجم الدين، لما دخل عليه أخوه الملك العادل وقبّل يدَه، ثم دخل الشقّة، رسم أنْ يوتَى بالشراب والمغاني والجنوك، وجلسوا للشراب، وأمر الملك الصالح لبعض مماليكه أن يجلسوا معه. فلما طاب الوقت وسكروا، قال الملك الناصر داوود للملك الصالح : «يا نجم الدين». قال : «لبيك يا خَوند». قال : «قد مَلَّكتُكَ مصرَ ما ثناك عَليَّ؟» قال الملك الصالح : «جزاك الله خيرًا يا خوند، والله لا بد أن أُقبِّلَ رِجْلكَ». قال الملك الناصر داوود : «لا تفعل يا هذا». قال : «والله لا بُدّ أن أُقبِّل رجلك». قال الملك الناصر : «ولا بد؟» قال : «نعم». قال : «فيكون العَرْجاء؟» قال : «والله ولا أَقبّلُ إلّا العَرْجاء». فمد الملك الناصر داوود رِجلَه، وقام الملكُ الصالحُ وقبّلَها. فعَظُمَ ذلك على المماليك البحرية.

وخرج الملك الناصرُ داوود ليقضي شُغْلًا، فلحقه مملوكُه عز الدين أيبك صاحب صَرْخَد[1] وقال له : «ما الذي صنعتَ بنفسكَ؟» قال : «وما صَنعت؟» قال : «تمدُّ رِجْلكَ للملك الصالح ليُقَبِّلَها». قال الملك الناصر : «أنا فعلت هذا؟». قال : «بلَى والله فعلتَه، والله لئن دخلتَ خيمته لم تخرج بعدها». قال : فعند ذلك كان الملك الناصر

[٢٠ظ] داوود[2] نايمًا. فاستيقظ وقال : «الخيل/ مشدودة؟» قال : «نعم». فركب ومعه عز الدين أيبك صاحب صَرْخَد وتوجَّهَا وقصد الكرك. ثم إن الملكَ الصالحَ غفا ساعةً واستيقظ وقال : «اطلبوا الملكَ الناصرَ». فطلبوه فوجدوه قد ركب. فندمَ الملكُ الصالح على ما فَرَّطَ في خروج الملك الناصر من بين يديه.

وفي هذه السنة، سَيَّرَ الخليفة الخِلْعَة والتقليدَ إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب. فلما وصل رسول الخليفة إلى حلَب، وجدَ صاحبها قد مات. فوصل إلى حماة فوجدَ صاحبها قد مات. فوصل إلى الشام ونزل بدمشق، فوجد الملك الصالح محبوسًا. ولما

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٤٨٠ رقم ٤٤٤٢ «أيبك بن عبد الله المعظّمي».

(٢) في الأصل : داوود كان.

وصل رسول الخليفة إلى الشام، ووقع في البلاد والأقاليم غلاء وبلاء ووَخَمٌ ومَوتٌ إلى أنْ فَنِيَ ثُلثَي⁽¹⁾ العالم، ومات من الملوك وأبناء الملوك خلقٌ كثير.

ولما وصلت الأخبار من الشام بما جرَى في الأقاليم من الموت، وأنَّ القاضي محيى الدين رسول الخليفة لم ينزل بأرضٍ ولا إقليمٍ إلَّا ويجد صاحبَه قد مات، فعمل بعض الشعراء هذه الأبيات من الشعر: [من الخفيف]

يـا إمـامَ الهُدَى أبـا جَـعْـفـر المنـ ـصـور يـا مَـنْ لـه الـثـنـاءُ الجزيلُ
ما جرَى من رَسولك الآن مُحيى الد ين في هـذه الـبـلاد قـلـيـلُ
جاء والأرض بالسلاطين تَزْهُوا وعَـدَا⁽²⁾ والبـلاد مـنـهـم أقْـولُ/ [٢١و]
أقْـفَـرَ الـرومُ والـشـآمُ ومِـصـرٌ أفـهـذا مُـغَـسِّـلٌ أم رسُـولُ؟

ثم دخلت سنة سبْعٍ وثلاثين وستمِاية من الهجرة النبوية

فيها خرج السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب من حَبْس الكرك. وفي رواية أخرَى...

ذِكْرُ سبَب خروج الملك الصالح نجم الدين أيوب من حبْس الكرَك

قال: ولما حُبِسَ الملكُ الصالحُ نجمُ الدين أيوب بالكرك، اختار الملكُ الناصر صاحبُ حلب قَتْلَه. فكتب إلى الملكِ الناصر داوود يحثُّه على قتل الملك الصالح. ففكّر الملكُ الناصر داوود في عاقبة الأمر وقال في نفسه:

هذا ملكٌ كبيرٌ أكبر ملوك بني أيّوب، وأبوه أيضًا أكبرُنا وأعظمنا كلمةً. فمتى قتلته أخلفَ عليَّ أخوه صاحبُ مصر، ويطمع في جانبي الملك الناصر صاحبُ حلب، وينفسد حالي مع ملوك بني أيوب، وعند ملوك الشرق، وأُسَمَّا بينهم قَتّالَ النفس بغير نفس⁽³⁾.

---

(١) افنَى وأفنى، وربّما تكون: أن فنيَ ثُلثا العالم.
(٢) كذا في الأصل، وربما كانت: غدا.
(٣) انظر سورة الكهف ٧٤: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

فنهض الملكُ الناصرُ داوود قايمًا، ودخل على الملك الصالح وقال له: «ما تقول لمن يملِّكُكَ الديار المصرية؟» قال له الملك الصالح: «أنا مملوكك وابنُ عَمِّكَ وفي تصريفك، ومهما فعلته معي كنت معتدًا به. واللهُ تعالى يكافيك، ومهما وصل لي من الخير كان من صدقتك». فأخذ الملك الناصرُ داوود الملك الصالح صحبته. وفي تلك/ الساعة ركب [٢١ظ] الملكان الملك الناصر داوود والملك الصالح نجم الدين وتوجها إلى الديار المصرية. وكتبا كتبًا للماليك البحرية وللأمير علاء الدين قراسنقر العلائي أن: «تجتمعوا في وقتِ كذا وكذا على العلاقمة».

وفي هذه السنة أخذ الملك الناصر داوود البيتَ المقدّس من الفرنج، ورسمَ ألّا يبقى فيه أحد من قسيسي النصارى. وقيل إنه غلّق بابَ كنيسة قمامه وحَرَّمَ على النصارَى زيارتَها، ورسم للفرنج أنّ كُلّ من اختار بلدًا يمضي إليها. ولما رسم الملك الناصر داوود بذلك، وخرج الفرنجُ من البيت المقدّس ولم يبقَ به أحَدٌ من النصارَى، قال بعض الشعراء هذه الأبيات من الشعر[١]: [من السريع]

المسجدُ الأقصَى له عادةٌ	سارَتْ، فصارَتْ مثلًا سائرا
إذا غدا بالكفر مُسْتَوطنًا[٢]	أنْ يَبْعثَ اللهُ له ناصرا
فناصرٌ طَهَّره أوّلًا	وناصرٌ طهَّره آخِرا[٣]

وفي هذه السنة دخل القاضي نجم الدين تلميذ إبن الجوزى وصحبته القاضي جمال الدين إبن مطروح وعبرًا إلى دمشق، وجمعا القضاة والأشراف وسراة الناس، واجتهدوا جميعُهم أن يُصْلِحوا بين ملوك بني أيوب، فلم يقدروا على ذلك. وكان ذلك بإشارة الملك الصالح نجم الدين أيوب،/ وقصد بذلك خير[٤] للملك الناصر داوود، لعل أن [٢٢و] يطيِّب قلوبَ الملوك عليه. فإنه كان سبب إطلاقه من السجن وتمليكه الديار المصرية. وكان ذلك سبب تغيّر قلوب الملوك عليه.

---

(١) الأبيات لجمال الدين يحي ابن مطروح، انظر: الديوان ١٨٢–١٨٣؛ ومرآة الزمان ٨/٢/٧٨٩؛ ومفرج الكروب ٥/٢٤٧؛ ونهاية الأرب للنويري ٢٩/٢٥٤؛ والسلوك للمقريزي ١/٢٩٢.

(٢) الديوان: للكفر، وفي نهاية الأرب: للشرك.

(٣) ناصر الأول يعني السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والثاني: الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى.

(٤) كذا في الأصل، وهي: خيرًا.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وثلاثين وستماية

وسلطانُ مصرَ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وصاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، وقد أطمعته آمالُه بدمشق، وصاحب حماة الملكُ المظفَّر، وصاحب حمص الملك الأشرف، وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، والخليفة المستنصرُ بالله أبو جعفر المنصورُ ببغداد، و[صاحب] قلعة جعبر الملك الحافظ، و[صاحب] الكَرك والبيت المقدّس والأغوار الملك الناصر داوود، والتتر قد استولَوا على البلاد الإسلامية بالعجم، وقد زحفوا للعراق. وقد ظهر ذكر هلاوون بن طولوخان ابن شنكزخان، والخوارزمية مشتّتون في البلاد لا يقفون عند ما يفعلون ولا عند ما يقولون، وأيُّ ملكٍ قصدوا أن يخدموه لم يُقْبِلْ عليهم ولا يستخدمهم ولا يقربهم و....... [١].

وفي هذه السنة ملك عسكر حلب قلعة جعبر[٢] وأقامت بها العساكر، وتوجه الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه......[٣] الملك الحافظ إلى حماة بطال. [؟]......[٤].

وفيها اتّقع الخوارزمية مع عسكر حلب، وجرى بين الملوك وأبناء الملوك حروب كثيرة وقتل بينهم خلق/ كثير، وهذا كان سبب استظهار التتر على البلاد الإسلامية [٢٢ظ] بأقاليم العجم، فلا رادّ لمشيئته الله تعالى.

وفي هذه السنة كانت الخوارزمية في أشرّ الأحوال، مشتّتين في البلاد يعبثون على الناس، ويقتلون وينهبون ويخربون ويسفكون ويقتلون كل من يجدوه في طريقهم، ويفعلون ما لا تفعله التتر.

وفيها اتّقع الخوارزمية وعسكر حلب وانكسرت الخوارزمية كَسْرةً شنيعةً[٥]، ولم

---

(١) هنا بضع كلمات مطموسة.

(٢) في الأصل بخط مغاير: «حلب» وهذا غير صحيح. انظر: مفرّج الكروب لابن واصل ٢٧٩/٥؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٦٩/٦؛ ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي ٧٣٣/٢/٨.

(٣) هنا بضع كلمات مطموسة.

(٤) هنا بضع كلمات مطموسة.

(٥) عن كسرة الخوارزمية، راجع: مفرج الكروب لابن واصل ٢٩٢/٥؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٧٠/٦؛ وزبدة الحلب ٢٥٨/٣.

يستجرِ(١) أحد من عسكر حلب، ولا غيرهم يتبعهم، ولا يتحرّش معهم، وذلك لما يعلمون من شجاعتهم وإقدامهم.

وفيها نزل الملك الأشرف صاحب حمص على الخابور من بلاد الشرق، أراد أن يملكها. ونزل السلطان غياث الدين صاحب الروم على آمد واستولى على بعض بلاد الجزيرة.

وفي هذه السنة مات الفقيه العدل زكي الدين السنجاري قاضي ماردين. وكان رجلاً فاضلاً مترسّلاً، ومن جملة شعره وفضيلته هذه القصيدة اللامية: [من الكامل]

قُمْ لا عَدِمْتُكَ فالرياحُ تُغَرْبِلُ ... والرَّعْدُ يَطْحَنُ والغَمامةُ تَنْخُلُ
والجَوُّ قد عَجَنَ الفلا بسَحيقه ... والعُود يَحْرِق والحُمَيَّا تُشْعَلُ
والدَّنُّ تَنُّورٌ تَوَقَّدَ جَمْرُهُ ... المضياءُ باطنه وفار المَبْزَلُ
اللونُ تِبْرٌ والحقيقة جَوْهرٌ ... والريحُ مِسْكٌ والمَذاقةُ فُوْفلُ
[٢٣و] أوَما ترى فَصلَ الربيع وحُسْنَه ... والروضُ يَضْحَكُ والحياةُ تُبَهْلِلُ/
والجَوُّ كافورٌ يَنَثْرُ لُؤلُؤًا ... والريحُ مِسْكٌ والغدير مصندلُ
أَبْدَتْ بدائعُ حُسْنِه لكَ جَنَّةً ... قد زُخْرِفَتْ فَنَعيمُها مُتَعَجِّل
نَسَجَتْ لها الأمطارُ وَشْيَ رقومِها ... ولأجْلِ ذاكَ النَسْجِ عَيْني تَغْزِلُ
فمُحَمَّرٌ ومُصَفَّرٌ ومُخَضَّرٌ ... ومنوَّعٌ ومجزَّعٌ ومُكَلَّلُ
ومُقَضَّبٌ ومخضَّبٌ وملهَّبٌ ... ومذهَّبٌ في لازورد مكَحَّل
قد لاح سوسَنُها وفاح بَهارُها ... وبدى الشقائقُ للأقاح يخجُل
فهَل اليواقيتُ النَفيسةُ زَهْرُها ... أرجوه أم زهر السحاب المُقْبِل
ونضيدُ دُرٍّ زانه فيروزج ... وعُقودُ مِينا بالبَلَخْشِ مُفَصَّل
ذهبٌ وياقوتٌ ونثرُ لآلئٍ ... وزبرجدٌ وزُمُرّدٌ متكلّل
جَلّ المُكَوِّن جوهرًا ما زانه ... حكٌّ ومُبْدع صَنْعةٍ لا تُعْمَلُ
فإذا اجتليتَ فكلُّ باع نُزْهَةٌ ... وإذا ظَمِئتَ فكُلُّ شِبْرٍ مَنْهَل
والطَيْرُ بين تَغَرُّدٍ وتَعَدُّدٍ ... تتلو غرائبَ لَحْنِها وتُرتِّلُ
فهزارُها شُحْرُورُها وقَطاؤها ... سُمّانُها دُرّاجُها والبُلْبُل
هذا يخاطبُ ذا بأفْصحِ نَغْمةٍ ... فإذا شدا الثاني أجابَ الأولُ

---

(١) يستَجْرِي: كلمة شائعة كانت تعني: يجرؤ.

وتُقيم مِنْبَهَها الفواخت غِرَّةً ... فتَخالُهنَّ مفَجَّعاتٌ ثُكَّلُ/ [٢٣ظ]
وعلى الغدير شِباكُ تِبْرٍ خِلْتَها ... شمسَ الضُحَى وسنا دروعٍ تُصْقَل
رَوْضٌ ومعشوقٌ وشَدْوُ حمامةٍ ... وصفاءُ ساقيةٍ وراحٌ سَلْسَل
وظِلالُ غاديةٍ فَسَيْفُ بُروقِها ... ماضٍ وطِيبُ هوائها مستقبل
والشمس تجْنح للغُروب فثَوبُها ... الذهبيُّ مخضَرُّ البِقاعِ مُجَلْجِلُ
فَلْمِثْل ذا يتنزه المتنزهون ... ويعذر الحُرُّ الخَليّ ويحمِل
ما للمَسَرَّةِ عن جِمانا مخرجٌ ... كلَّا ولا لأسَى إلينا مَدْخَل
فانهَضْ فكلُّ شديدةٍ من بَعْدِها ... فَرَجٌ وكُلُّ عَسِير خَطْبٍ يَسْهُل
والدهرُ لا يبقَى على حالاته ... فيجورُ أحيانًا وطورًا يعْدِل
يا طِيبَ صُبحته وصِحَّتِهِ وراووقُ الصَباحِ على الصَبُوح يُوَلْوِلُ

ثم دخلت سنةُ تسعٍ وثلاثين وستمائة من الهجرة النبوية

والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية، وعمه الملك الصالح إسمعيل مكنيًّا أبا الخيش مالكُ دمشق وبعلبك وجبال الكسروان وعقبة الرمّانة والمجدَل وكرك نوح وسَرْعين وبوارشْ وجَديلة ومشغرة ووادي التيم بكماله – وتسمى[1] إقليم الخروب – إلى حَدّ الشقيف شقيف أرنون، وهو يومئذٍ تحت حكم الفرنج، والساحل بكماله تحت حكم الفرنج.

وفيها رحلت الخوارزمية إلى الملك المظفّر/ شهاب الدين غازي صاحب ميّافارقين [٢٤و] وحلفوا له أن يكونوا معه، وتحت طاعته، ويساعدوه على فتح ما يختار من البلاد، ويكونوا معه عونًا على أعدائه.

وفي هذه السنة مرض السلطان الملك المظفّر صاحب حماة مرضًا شديدًا وأشرف على الموت. ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب أنّ صاحبَ حماة قد مرضَ وأشرف على الموت، عَظُمَ عليه ذلك وحزن حزنًا عظيمًا، وسَيَّرَ إليه من الديار المصرية الحكماء والأشربة التي لا توجد بغير الديار المصرية، وسَيَّرَ إليه يعتذر إليه ويتغَمَّمَ له. وقال: «والله لو أنّ لي وُصولًا إليكَ لقدِمتُ عليك».

(١) كذا في الأصل، ولا يصح، وربما تكون: والمسمَّى إقليم الخرُّوب...

وفي هذه السنة شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في العماير بالديار المصرية[١].

ذِكْرُ ما أثّره الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية، وما فعله في أيام مملكته

قال ابن واصل: لما دخل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الديار المصريةَ واستقرّ له الملك بها، شرع في عرض الجيوش، وأوهم الناسَ أن رِجله موجوعة، ولم يكن الأمر كذلك. فلما عرض الجيوش بالديار المصرية، مسك أربع مائة وتسعين رجلاً من ساير الجيوش ما بين أكراد وتركمان وغاجرية وأولاد الناس، وأمر بتغريق الجميع. والذي نقله القاضي جمال الدين ابن مطروح:

إن السلطان الملك الصالح لما مسَك هؤلاء الذين ذكرناهم، طلب ريّسا[٢] الشواني وأمرهم أن يحملوا هؤلاء في خمس حراريق إلى تحت شَطَّنوف[٣]، ويفتحوا الحراريق حتى/ ينزلوا بجميع من فيهم ولا يطلع منهم غير الريّسا والقُوّاد[٤]. [٢٤ظ]

قال القاضي إبن مطروح: «فقلت للسلطان: يا مولانا – أيّدكَ الله – إنَّ خمسَ حراريقٍ فَرْط عظيمٌ من بيت المال. فنظر إليَّ وقال: «يا جمالَ الدين، دعنا من هذا الكلام إنَّ ملكَ مصرَ لا يفتقر لخمس حراريق». قال القاضي جمال الدين ابن مطروح: «والله نحلف به أن السلطانَ الملكَ الصالح لما مسك هؤلاء الذين ذكرناهم، لم يكن رآهم قبلَها، ولا يعرف أسماءهم، ولكنْ أراد اللهُ – تبارك وتعالى – استشهادهم في تلك السنة».

---

(١) انظر: مرآة الزمان ٧٣٧/٢/٨؛ ومفرّج الكروب ٣٠٧/٥؛ والسلوك للمقريزي ٣١٠/٢؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٧٢/٦؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٣٤٧/٧.

(٢) كذا في الأصل، والأغلب أن تكون: رئيسي، أو رؤساء.

(٣) بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتح النون، بلد بمصر من نواحي كورة الغربية، يفترق النيل عندها فرقتين إحداها إلى تنّيس والأخرى إلى رشيد، بينها وبين القاهرة مسيرة يوم واحد. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) حول هذه الأحداث، راجع: مفرّج الكروب ٣٧٤/٥ وما يليها؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٣٤٣/٧؛ والسلوك للمقريزي ٣٠٠/٢؛ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٦.

ومن جملة محاسن[١] الملك الصالح نجم الدين أيّوب، أنه لما جلَس وأمر بعرض الجُيوش، استدعوا باسم رجلٍ كرديٍّ من حلقته، وكان شابًا حسنًا تامًّا في الرجال حسن المنظر. فلما مَثُلَ بين يديه، مسك الحاجب بكتفه وقال له: «ما اسمُكْ؟» فسكت الرجل ولم ينطق. قال له الحاجب ثانية: «ما اسمك؟» فأطرق الشاب إلى الأرض. فقال له الحاجب ثالثةً وجذبه إليه. فنظر السلطان إلى الحاجب وقال له: «ما أبعد ذِهْنك، نزل أيوب». وأمر للشاب بخِلْعَة.

ذِكْرُ ما أثَّره السلطان الملك الصالح من الآثار الحسنة بالديار المصرية

ثم شرع في عمارة المدرسة بين القصرين، وخرَّب أماكنَ كثيرةً ودورًا وقُصورًا، وكان قد عمرها الخلفاء الفاطميون، وخرّبَ في جملة ما خرّب المدرسة الأسدية التي كان عَمَرها اسدُ الدين شِيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب أبا[٢] الملوك – رحمه الله –. وكان بها خِتْمات ورَبْعات وكتب كثيرة، ففرقها في المدارس / والجوامع، وشرع في عمارة الميدان بظاهر باب اللّوق والمناظر ايضًا، وعَمر بظاهر جامع [ابن][٣] [٢٥و] طولون منظرةً عظيمةً وسماها الكبش[٤]، وهي إلى الآن كذلك. وعَمر على سَدّ خليج مصر منظرةً لم يُرَ أحسن منها وسماها النزهة. وشرع في عمارة قلعة المِقْياس والمستنزهات بها. وكان بحر النيل المبارك من القلعة التي للمقياس من الجانب الغربي، فلم يزل الملك الصالح يغرق السفن والمراكب حتى أجرى بحر النيل بين مصر وقلعة المقياس، وغَرِمَ في ذلك أموالًا جزيلةً إلى أن أجرَى النيل المبارك على ما هو عليه الآن.

---

(١) في هامش المخطوط تعليقة على هذه اللفظة حيث دوّن الكاتب: «قلت: هذا الطالح السفيه، هل له محاسن حتى يُقال: من محاسنه، بل كله مساوئ، قبّح الله رأيه كما أضلّ سعيه، فإن ما جرى على يديه قتل هؤلاء المسلمين بغير ذنب، إلّا لما سبق من شقاوته وخسارته. قلت: قتل هؤلاء من غير معرفة بهم، من مساويه بل من مخازيه، وعند هذا ينبغي أن يوصف بالطالح لا بالصالح. ولقد صدق من قال:

وقاتل النفس ظلمًا ذنوبه ما تكفَّر

كتبه العبد المصطفى بن محب الدين. قلت: كما أراد تعالى شقاوة هذا الظالم السفيه، فأسعدهم على يديه كما أشقاه على أيديهم.

(٢) كذا في الأصل، والأصح أن تكون: أبي.

(٣) ساقطة في الأصل.

(٤) في الأصل: الكبس.

وقطع بأرض قلعة المقياس ألف ومايتي نخلة مثمرة كان رُطَبُها وتَمرُها يُهدَى إلى الملوك لحُسْن منظره وطيب طعمه. وخرّب ثلاث وثلاثين مسجدًا كان قد عمرَها الناسُ والخلفاء والسادات وغيرهم من سَراة مصر، وقصدوا بذلك المستنزهات والصلوات فيها. وصارت قلعة المقياس قلعةً عظيمةً لم يُرَ مثلُها. وأدار البحرَ عليها من الجانب الغربي والجانب الشرقي، وسيأتي وَصْفُها على جَلِيّتِه وذكر ما عمله فيها[1] — رحمه الله —[2].

ثم دخلت سنة أربعين وستماية من الهجرة النبوية

والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية، وعمُّه الصالح إسمعيل أبو الجَيش بدمشق وأعمالها، والملك الناصر ابن الملك العزيز بحلَب وأعمالها، وملوك بني أيّوب كل منهم على ما هو عليه.

وفيها طلب السلطانُ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب الملك المغيث عمر وحبسه بحبس الشوبك.

[٢٥ظ]

ذِكْرُ/ سَببِ حبسِ الملك المغيث

قال القاضي الأجلّ جمال الدين ابن مطروح. قال: سألني السلطانُ الملكُ الصالح عن الملك المغيث. قال: «ما تقول في فتح الدين عمر إبن أخي؟» قلت: «خيار الناس يا مولانا». قال: «فملكان يكونا في بلدٍ واحدٍ؟» قلت: «يا مولانا — أيّدكَ اللهُ — إن هذا صغير السن، وهو إبنك وابنُ أخيك». قال: «أنسيتَ ما فعله أبوه معنا؟» قلت: «يا مولانا قد لقي أبوه فِعْلَه». قال الملك الصالح: «نحن ما نؤذيه ولكنّا نبعده عنا». ثم طلب الملك المغيث. فلما حضر بين يديه قال له: «يا فتحَ الدين، أنت ولدي وولد أخي، وأبوك

---

(١) أضيفت «لا» بخط مغاير، وهو نفس الخط الذي كتب به في الهامش ما يلي: انظر إلى سفاهة رأي هذا الطالح لا الصالح، كيف يعمرُ المتنزهات التي هي من قبيل التُّرَهات، ويهدم المساجد التي هَدْمُها من المآثم الموبقات.

(٢) أنظر خبر العمارة في: مرآة الزمان ٨/٢/٧٣٧؛ ودول الإسلام ٢/١٤٤؛ ونهاية الأرب ٢٩/٢٨١؛ والبداية والنهاية ١٣/١٥٧؛ والعسجد المسبوك ٢/٥٠٢؛ والنجوم الزاهرة ٦/٣٤١؛ والسلوك للمقريزي ٢/١٨٣؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٣١–٦٤٠) ٤٥؛ ومفرّج الكروب ٥/٢٧٨.

كان قد نازعني سلطاني وافترَى عليَّ وفعلَ وفعلَ، وقد لَقِيَ ما فعله، وأنا فما أؤذيك، ولكن تمضِ إلى الشوبك وتقيم بها فقد وهبتك الشوبك وضِياعَها، وشرطي عليك ألّا تركب فرسًا ولا تخرج من باب الشَّوْبك».

ثم طلب الملكُ الصالحُ رجلين من خيار جيش مصرَ أحدهما يسمَّى شهاب الدين إبن صعلوك والآخر يسمى سيف الدين النجاحي وقال لهما: «قد سَلّمْتُ لكما ابن أخي، فلا تمكّناه من ركوب فرس ولا من الخروج من باب القلعة». ورسم السلطان الملك الصالح أن يكونَ بباب قلعة الشوبك عشرون من الجاندارية واصفه سلار[١] عليهم، ووالٍ للقلعة لفتح باب القلعة وغلقه.

وفي هذه السنة وصلت التتر إلى أطراف الروم، ووصلوا إلى أرزَنَ الروم[٢]. واشتغلت عساكر الروم بالتتر، وغارت التتر إلى خرْتَ بِرْت[٣]. وخاف الملك المنصور/ منهم خوفًا [٢٦و] عظيمًا، ورجعت عساكر حلب إلى حلب، وانحصرت قلوب ملوك الإسلام، وذلك خوف[٤] من التتر.

وفيها كانت الخوارزمية مشتتين في البلاد لا يقدرون على ملتقا التتر، ولا أحد من ملوك الإسلام راضٍ عنهم، وكل ملك دخلوا تحت طاعته وحلفوا له يخونوه، ولا يقفون عند أيمانهم، وصاروا يأكلون البلادَ بقائم سيوفهم، ولا يدخلون تحت طاعة ملكٍ من الملوك.

وفي هذه السنة ماتت الملكة ضيفة[٥] خاتون إبنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيّوب.

وفيها قويت كلمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن العزيز صاحب حلب، وأطمعته آماله بدمشق.

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر أمير المؤمنين، وكانت وفاته بكرة الجمعة

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) عن أخبار غارة التتر هذه، أنظر: مفرّج الكروب ٣١٠/٥؛ والسلوك للمقريزي ٣١١/٢/١؛ وزبدة الحلب ٢٦٣/٣. وأرزن الروم بلدة بأرمينية على مقربة من خلاط وقد سماها العرب قاليقلا.

(٣) بلدة بأرمينية أطلق العرب عليها إسم حصن زياد، في أقصى ديار بكر. أنظر: معجم البلدان لياقوت.

(٤) كذا في الأصل، والصواب أن تكون: خوفًا.

(٥) في الأصل: صفية الدين خاتون.

لعشرٍ خلَون من جمادى الآخرة من هذه السنة المذكورة، وكانت خلافته سبع عشرة سنةً، وكانت سيرته أحسَن السِّيَر من العدل والإنصاف والجُود للرعية – رحمه الله[١].

ثم دخلت سنة أحد وأربعين وستماية من الهجرة النبوية

والسلطان الملك الصالحُ نجم الدين أيوب بالديار المصرية مشتغل بما هو فيه من لذاذات الدنيا وعمارة المستنزهات. وقد قويت كلمة التتر بالروم وكسروا شاليش[٢] عسكر الروم. ولما وصلت التتر إلى بلاد الروم، ركب السلطان غياث الدين ابن
[٢٦ظ] كيخصروا ابن كيقباذ وطلبَ الخوارزمية/ وصالحهم، وسَيَّر للسلطان مظفر الدين واصطلَح معه، وسَيَّر للسلطان شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين[٣] وقال له: «نجتمع على قتال التتر». وسير لصاحب حلب وصاحب ماردين على أنّ الجميع يجتمعون ويقاتلون التتر.

قال صاحب التاريخ: لما اجتمع[٤] كلمة ملوك الاسلام على قتال التتر، جاءت التتر طالبي[٥] الروم، وكان مع التتر جموع كبيرة من سائر الطوائف، ومن سائر الأجناس العديمة الدين، والتقا التتر وعسكر الروم.

قال ابن واصل: لما التقا العسكران، كانت الكسرة على التتر في الأول. ثم إنّ التتر ردّت على المسلمين، فانكسر المسلمون كسرةً شنيعةً عظيمةً، وقتل منهم خلقٌ واسروا[٦] خلق. وتشتت عسكر المسلمين يمينًا وشمالاً، ونهبت التتر أموالهم. وهرب السلطان غياث الدين في بعض الأماكن واختفا بها. وأما العساكر الإسلامية والملوك لمّا

---

(١) أنظر أخباره وأخبار صفية خاتون في: مفرّج الكروب ٣١٢/٥، ٣١٥؛ وزبدة الحلب ٢٦٥/٣؛ والسلوك ٣١١/١/٢؛ ومختصر كتاب أبي الفداء ٧٣/٦.

(٢) شاليش: جاليش، كلمة تركية قديمة أو من الفارسية بمعنى حرب أو معركة، وهو علم كبير في أعلاه خصلة من الهلب كالعرف، اعتاد سلاطين المماليك رفعها في طليعة الجيش، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي ١٢٦/٢

(٣) في الأصل: ميامفارقين.

(٤) كذا في الأصل، وهي: اجتمعت.

(٥) كذا في الأصل، وربما كانت: طالبين.

(٦) كذا في الأصل، وصوابها: وأُسِرَ.

بلغهم ما جرَى على صاحب الروم، رجع كُلُّ ملك وعسكره إلى مكانه، ورجع عسكر حلب وهو في أنحس[١] الأحوال[٢].

وفي هذه السنة نزلت التتر على اخلاط[٣] واستولوا عليها، واستولوا على آمِد[٤] وبلادها.

وفيها رحل السلطان غياث الدين/ إلى طاعة التتر، وتقرّر الأمر بين السلطان غياث [٢٧و]
الدين والتتر على حمل الخراج[٥].

وفي هذه السنة مات السلطان غياث الدين صاحب الروم مغبونًا من التتر ومن ملوك المسلمين.

وفيها جلسَ السلطان عز الدين ابن كيكاوس[٦] اخو السلطان ركن الدين على كرسي مملكة الروم، ولم تكمل مملكته سنةً واحدةً. ثم هرب إلى قسطنطينية العظمى، وذلك لِما رأى من جَور التتر. واستقرّ أخوه ركن الدين مكانه.

وفي هذه السنة اتفق ملوك الخوارزمية أن يدخلوا تحت طاعة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية، وأن يساعدوه على قتال عمه الملك الصالح إسمعيل أبي الخيش صاحب دمشق.

وفيها اتفق الملك الصالح أبو الخيش صاحب دمشق والملك الأشرف صاحب حمص أن يكونوا جميعُهم كلمةً واحدةً متفقين على أعدائهم، فلم يقف أحد منهم على ما وقع عليه الشرط.

وفي هذه السنة وصلت الخوارزمية إلى غزة لخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية، ومقدمهم يومئذٍ حسام الدين بركة خان، وعز الدين صاروخان، وبدر الدين كشلوخان، ونور الدين صاربردي.

---

(١) مفرّج الكروب: أسوأ.

(٢) حول هذه الأحداث، راجع: مفرّج الكروب ٥/٣٢٧؛ وزبدة الحلب ٣/٢٦٩؛ وذيل الروضتين ١٧٣؛ والسلوك ١/٢/٣١٣؛ وكنز الدرر ٧/٣٥٢–٣٥٣؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٦/٧٤.

(٣) بكسر أوله، بلدة عامرة مشهورة، وتعتبر قصبة أرمينية الوسطى. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) بكسر الميم، وهي أعظم مدن دياربكر، بلد قديم حصين ودجلة تحيط بها كالهلال. أنظر: معجم البلدان لياقوت.

(٥) راجع تفاصيل ذلك في: مرآة الزمان ٨/٢/٧٤٢؛ والنجوم الزاهرة ٦/٣٤٧.

(٦) كذا في الأصل، وفي كنز الدرر وتاريخ ابن خلدون: كيكاوس.

قال صاحب التاريخ: إن عسكر الخوارزمية كان عِدَّتهم نَيِّفًا عن اثني عشر ألف فارس. ثم إنهم لما نزلوا إلى خدمة السلطان الملك/ الصالح نجم الدين أيوب طالبون[١] [٢٧ظ] الديار المصرية، وجدوا في طريقهم خلقًا كبيرًا[٢] من سائر الطوائف، فنهبوا الجميع وأخذوا حَريمهم. وكان الخوارزمية لا يمرّون بأرضٍ إلا وأفسدوا فيها وخَرّبوها ونَهبوها وفعلوا فيها كل قبيح. ولمّا مرّوا بمرج دمشق قتلوا كل من وجدوه في طريقهم، وكذلك فعلوا بالأغوار، وهرب الناس من بين أيديهم، ولم يمرّوا بموضعٍ إلّا ونهبوه وفعلوا فيه ما لا يفعله التتر[٣].

وفي هذه السنة كان عسكر دمشق مجرّدًا على غزة. فلما سمعوا بحضور الخوارزمية هربوا بأجمعهم إلى دمشق، وهرب الملك الناصر داوود إلى الكرك واعتصم بها، وهرب الفرنج الذين كانوا في البيت المقدّس إلى عكّا، ونهب الخوارزمية البيت المقدس، وقتلوا كل من وجدوه في طريقهم من النصارى، ودخلوا الكنيسة التي تُعرَف قمامة، وحرقوا القبور التي فيها، ونبشوا عِظَام النصارَى وحرقوها، ولم يجعلوا لقبور النصارى خبرًا ولا أثرًا[٤].

ووصلوا إلى غزة وفعلوا فيها كما فعلوا بغيرها من الفساد والجور، وتفرّق أهل غزة في البلدان والضِّياع. ولما نزل الخوارزمية بغزة سَيَّروا رُسُلهم إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين يقولون: «نحن قد حضَرنا إلى خدمتك، ونحن مماليكُك/ وتحت طاعتك، [٢٨و] ونحن ما جينا بين يديك إلّا نحارب عَمَّكَ الملكَ الصالح، ونأخذ لك منه دمشق، ونحن عبيد البني[٥] أيوب».

قال: ولما سمع الملكُ الصالح كلام الخوارزمية، أعجبه ذلك، وخلع على رُسلهم ورسم لهم بالقماش والذهب والدراهم والخِلَع السنّية، وسَيّر ايضًا لمقدَّمي الخوارزمية الأموال والتحفَ والخلَع السنية. ثم إن الملكَ الصالحَ جَهّز من عنده عسكرًا من عسكر مصر ليكون نجدةً للخوارزمية ويعين بعضَهم بعضًا على قتال عمه الملك الصالح أبي الخَيْش.

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: طالبين.

(٢) ربما كانت: كثيرًا.

(٣) قارن مع ما أورده كنز الدرر ٣٥٣/٧؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٧٥/٦.

(٤) راجع حول ذلك ما أورده ابن واصل في: مفرّج الكروب ٣٣٧/٥.

(٥) كذا في الأصل، وهي: نحن عبيدٌ لبني أيوب.

وكان الخوارزمية لما توجّهوا إلى الديار المصرية جاء صُحْبَتَهم جماعةٌ من كبار الأكراد القيمرية من أمراء الشرق نجدةً للملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية.

وفي هذه السنة هرب عسكر دمشق وعسكر حمص وعسكر حماة وصاحب الكرك من الخوارزمية ومن نَجسهم.

وفي هذه السنة سَيّرَ الملك الصالح أبو الخيش طلب النجدة من الفرنج على قتال ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، واتفق الحال بين الملك الصالح صاحب دمشق والفرنج أن تكونَ مصر والشام نصفين بالسوية بين المسلمين والفرنج. ثم إن الملك الصالح أبا الخَيْش جَهَّز من جبال الكسروان ألف قَوْس، وسَيَّرَهم نجدةً مع الفرنج. والتقا العسكران على غَزَّة وهم أربع عساكر:/ عسكر الشام والفرنج وعسكر مصر والخوارزمية. [٢٨ظ]

قال صاحب التاريخ: لما التقا هؤلاء العساكر، اقتتلوا قتالًا شديدًا، وقُتل بينهم خلق عظيم من المسلمين والفرنج، وانكسر عسكر الشام وعسكر الفرنج. قال من كان حاضرًا هذه الوقعة: لما انكسر عسكر الشام وعسكر الفرنج من الخوارزمية، ركب الفرنج على أقفية المسلمين المنهزمين معهم بالسيف والرمح، فلم يبقوا على أحدٍ من المسلمين، وقتلوا ونهبوا وسفكوا وغاروا على الضياع التي في طريقهم. ثم رجعت الفرنج كاسبين غانمين إلى عَكّا.

ولما وصل الخبر إلى الديار المصرية بكسر عسكر الشام والفرنج، دقت الكُوسات(١) بالديار المصرية وقلعة الجزيرة وقلعة الجبل. وركب السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونزل الميدان ولعب الأكرة وخلع على الأمراء القيمرية، وعلى من كان عنده من الأمراء الكبار، وعلى كثير(٢) من مماليكه البحرية. ثم نزل إلى قلعة المقياس وفرّق الأموال والخِلَع، وكان بالديار المصرية يومًا مشهودًا.

فيها وصل الأمير حسام الدين إبن أبي علي(٣) إلى الديار المصرية بالأسرَى من

---

(١) الكوسات، مفردها كُوْس: الطبول، وفي لسان العرب، جمعها: كوسان.

(٢) في الأصل: كثيرًا.

(٣) حسام الدين ابن أبي علي الهذباني الأمير نائب السلطنة، راجع: السلوك للمقريزي ١/٢ في مواطن كثيرة؛ ومفرّج الكروب ٥/٣٣٧ .

الفرنج راكبون[١] الجمالَ مقيّدين، ومقدّميهم راكبون[١] الخيل مقيدون[٢]، وعبروا بهم بين القصرين، والمغاني بين أيديهم، والناس يصُفقون عليهم ويلعنوهم.

وفي هذه/ [٢٩و] السنة سَيَّرَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر مملوكه بيبرس البندقداري، وهو الملك الظاهر مجرّدًا إلى غَزَّة، ومعه جماعة من أمراء التركمان، ونزلوا على غَزَّة واستقروا بها[٣].

وفي هذه السنة انتظمت مملكة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وغَزَّة والشوبك وبعض الأغوار. ووصل إلى خدمته عساكر السواحل وعسكر البيت المقدّس والخليل وبيت جبريل خارجًا عن دمشق، ولم يبقَ بيد الملك الصالح إسمعيل غير نفس مدينة دمشق وبعلبك ووادي التيم وإقليم الخروب وجبال الكسروان، وكذلك الملك الناصر داوود لم يبق بيده غير الكرك.

وفي هذه السنة رسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب لوزيره الصاحب صدر الدين ابن الشيخ[٤] بالخروج إلى الشام، وأن يكونَ مُقامُه بغَزَّة، ويكون نائبَه بها، واقامه بغَزة مقامَ نفسه، وأضاف إليه الخوارزمية بأجمعهم وذلك خوف[٥] منهم[٦].

ثم دخلت سنة اثنين[٧] وأربعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها هرب الملك الناصر داوود صاحبُ الكرك من الكَرك.

ذِكْرُ سبب خروج الملك الناصر داوود من الكَرك

قال صاحب التاريخ: إن الملكَ الناصرَ داوود تيقَّن في نفسه أن جميعَ ملوك بني

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: مقدموهم راكبين.

(٢) كذا في الأصل، وصوابها: مقيدين.

(٣) الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، هو غير السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، أنظر: النجوم الزاهرة ٦/٣٢٢.

(٤) معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حَمّوية؛ راجع الرواية في تاريخ ابن خلدون ٥/٧٨٠؛ ومفرّج الكروب ٥/٣٤١؛ والسلوك ١/٣١٨.

(٥) كذا في الأصول، وصوابها: خوفًا.

(٦) راجع حول ذلك كتاب كنز الدرر ٧/٣٥٤.

(٧) كذا في الاصل، وهي: اثنتين.

أيوب قد بغضوه، وسبب ذلك أنه لما ورد الملك الصالح نجم الدين أيوب من/ حصن [٢٩ظ] كيفا وملك دمشق وأخرجته الملوك من دمشق، ووصل إلى الكرك، رسم الملوك للملك الناصر داوود أن يحبسَه بالكرك فحبسه. وأقام الملك الصالح نجم الدين أيوب في حبس الكرك أربع وتسعين يومًا كما ذكرناه. وسَيّرَ ملوكُ بني ايوب يقولون للملك الناصر داوود: «اقتل الملكَ الصالحَ». فأبى أن يقتلَه، فتغلّت قلوبَ الملوك عليه. ولما ألحَّ الملوكُ على الملك الناصر داوود في قتل الملك الصالح، أخذ الملكَ الصالحَ ومَلّكه الديارَ المصرية، وهرب منه في ليلته كما ذكرناه بعد أن ملّكه مصر، فعظم ذلك على الملك الصالح. ورأى في نفسه أنَّ ملوك بني أيوب جميعهم قد بغضوه، وأنه لا مُقام له بينهم، فتجهَّزَ وطلب بغداد ليكون تحت ظل الخليفة.

قال صاحب التاريخ: إنّ الملكَ الناصر داوود، لما اراد التوجُّهَ إلى بغداد، طلب ولده شاذي وقال له:

«يا بُنَيَّ احفظ هذه القلعة فهي لك، وقد خرجتُ لك عنها، وأنا متوجّهٌ إلى الشرق». ثم أخذ حريمه وأخذ من الأموال ما اختار، وكان بالكرك من الأموال ما لا يُعَدّ ولا يُحصر. فأخذ ما خَفَّ وترك ما ثقل. ثم توجه إلى الشرق طالب[١] بغداد ملتجئًا إلى باب الخليفة، وشاكيًا من أولاد عَمّه.

قال صاحب التاريخ: إن الملكَ الناصرَ داوود لمّا نزل من الكرك وتوجّه إلى الشرق، رسم صاحب دمشق «ألّا/ تعبر على إقليمي». فخرج على الغوطة. ولما وصل إلى حماة، [٣٠و] لم يضيّفه صاحب حماة ولا خرج إليه، وكذلك صاحب حمص لمّا عبر عليه. ولما عبرَ حلبَ، قطع الطريق في الليل، وذلك خوف[٢] من الملك الناصر صاحب حلب أن يقتلَه ويأخذَ ما معه من الأموال. ثم وصل إلى الرحبة وقطع الفراة خلفه[٣]. ولما بلغ بدر الدين لؤلؤًا صاحبَ المَوْصِل وُصولُ الملك الناصر داوود إلى الشرق، رسم أن يُنادَى في إقليمه: «من بايعَ الملكَ الناصرَ داوود أو شاراه شُنِقَ على بابه».

فأقام أربعينَ يومًا ببلاد المَوْصِل، لم يجد قُوتًا له ولا لعائلته غير لحوم الغزال وبقَر الوحش. ثم توجّه إلى بغداد. ولما وصل الخبر إلى الخليفة أن الملكَ الناصرَ داوود قد حضر

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: طالبًا.

(٢) كذا في الأصل، وصوابها خوفًا...

(٣) كذا في الأصل.

إلى خدمتك، رسم ألّا يدخلَ بغدادَ، بل يُقيم بالأنبار، وهي منزلةٌ بينها وبين بغداد ثلاث فراسخ. فأقامَ الملكُ الناصر داوود بالأنبار غريبًا طريدًا وحيدًا لا يجد من يدخلُ عليه ولا من يصادقه.

فلما بلغ ذلك الشرابيَّ، وهو أجلُّ ملوك بغداد، سَيَّرَ إلى الملك الناصر داوود قَمْحًا وشعيرًا وألفَ تفصيلةٍ ودراهمَ وذهبًا، وأحسن إليه.

قال ابن واصل صاحب التاريخ: إن الخليفة ما امتنع عن الملك الناصر داوود بُغْضةً له. وإنما الملك الناصر داوود لما كان بالكرك ورأى الغيظ والجور من الملوك أبناء عمه، سَيَّرَ إلى الخليفة وديعةً من الزمرُّد/ [٣٠ظ] والبواقيت والأموال الجزيلة ما يساوي خمسين ألف دينار. فخاف الخليفة أنّ الملك الناصر داوود إذا دخل بغداد يطالبه بالوديعة. فأمر ألّا يدخل بغداد. وهذا أقبح ما ينقل عن الملوك والخلفاء والوزراء. وأقام الملك الناصر داوود بالأنبار مدة ثمانية أشهر، ولم يجد من يلتجئ إليه غيرَ الله تعالى.

قال صاحب التاريخ: إن الملكَ الصالح نجم الدين أيوب، لما بلغه أن الملكَ الناصرَ داوود قد توجّه إلى الشرق، وقد وهب الكرك لولده شاذي، سَيَّرَ الملكُ الصالح نجمُ الدين أيوب كُتُبَه إلى شاذي ابن الملك الناصر داوود يقول له:

«أنا أبوك بعد أبيك، وأنا لم أغتصبك لأخذ الكَرك منك، ولكن إنْ رأيت أن تبيعَني الكرَك وأنا أُعطيكَ مابة فارسٍ وتكون عندي بالديار المصرية من جملة أولادي». فأنعم شاذي للملك الصالح بما رسم له به، وكتب له: «أنا مملوكُك وولدك، وقد أبعتُكَ الكرَك بما رسمت(١)».

وفي هذه السنة اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب الكرَك من شاذي ابن الملك الناصر داوود باثني عشر ألف دينار، وتسلّم منه الكرك، وأعطاه الملك الصالح مائة فارس، وأقام شاذي أميرًا من جملة الأمراء بالديار المصرية في خدمة أبناء الملك الصالح في أحسن حال(٢).

---

(١) بالهامش: ولما تملّك السلطان الصالح نجم الدين أيوب قلعة الكرك من شاذي ابن الملك الناصر داوود، جعل نائبه بها الطواشي بدر الدين بدر عرف بالطواشي ولم يزل نائبًا بها إلى أن مات الملك.

(٢) القراءة هنا غير واضحة؛ راجع الرواية في تاريخ ابن خلدون ٥/٧٨٠.

وفي هذه السنة مات السلطان الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة وكان مدة[١] / [٣١و] ملكه[٢] حماة خمس عشرة سنةً وأربعة أشهر[٣]. ثم تملَّكَ حماة ولدُه الملك المنصور بعد وفاة أبيه. ولما تملّك حماة كان عمرُه عشرين سنةً[٤] وشهرًا واحدًا وثلاثة عشر يومًا.

وفي هذه السنة أصاب الملكَ الصالحَ نجم الدين أيوب مرضٌ شديد حتى عجز عن الركوب، وأشرف على الموت. ثم نقه من عِلَّته.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستماية من الهجرة النبوية

صفراء لم يجر فيها إلّا خير، ولم ترَى[٥] الناسُ فيها حروبًا ولا مصافّات ولا قتالًا، ولا أمراً يشوِّش على العالم غير الأكل والشرب والطرَب والعِبادات والمستنزهات، ولم يُرَ في هذه السنة إلّا خَير.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها مات السلطان الملك الأفضل نور الدين علي ويكنّى أبا الحسن، ولد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الكبير – رحمه الله –. وكان أكبر أولاده ووصيّه في الملك بعد وفاته، وكانت موتته فجأةً، وكان عمره سبعًا وخمسين سنةً، وقيل سبعًا وستين[٦].

---

(١) مسح النص الأصلي وكتب بخط آخر. انظر: ابن واصل ٥/٣٤٢... صاحب حماه وكان مدة ملكه خمس عشرة سنة.

(٢) في الأصل: مملكته.

(٣) في رواية مفرّج الكروب وكنز الدرر: خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام.

(٤) في رواية مفرّج الكروب وكنز الدرر: عشر سنين، وحول هذه الأحداث انظر: كنز الدرر ٧/٣٥٦؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٦/٧٦، والسلوك ١/٢/٣١٨؛ ومفرّج الكروب ٥/٣٤٢.

(٥) كذا في الأصل، والصواب: لم ترَ.

(٦) راجع ترجمته في: مرآة الزمان ٨/٦٣٧؛ وذيل الروضتين ١٤٥؛ ووفيات الأعيان ٣/٤١٩ رقم ٤٨٦؛ والسلوك للمقريزي ١/٢١٦؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٦/٣٣؛ ومفرّج الكروب ٤/١٥٥؛ وكنز الدرر ٧/٢٧٥؛ والنجوم الزاهرة ٦/٢٦٢؛ والبداية والنهاية ١٣/١٠٨؛ وتاريخ ابن الوردي ٢/١٤٦؛ وشذرات الذهب ٥/١٠١؛ والكامل لابن الأثير ١٢/٤٢٨؛ والعبر للذهبي ٥/٩١؛ والوافي بالوفيات ٢٢/٣٤٥–٣٤٧.

ذِكْرُ سيرته – رحمه الله –

قال: كان الملك الأفضل إبن السلطان صلاح الدين يوسف، رجلًا فاضلًا، عاقلًا متأدّبًا، صاحب رياسةٍ وسياسةٍ وبراعة، قَلَّ أن يعاقِب على ذنب، وكان يكتب خطًّا حسنًا، وكان مجموع الفضايل، ومناقبه جليلة لم توجد في كثيرٍ من الناس، ولا من الملوك وأبناء الملوك. وكان مع ذلك كله قليلَ السعادة في أموره جميعها. وهذا الغالب/ على أهل [٣١ظ] الفضائل. وكان لا يملك بلدًا ولا إقليمًا، فيتمُّ له فيه أمر إلّا ويؤخذ منه غَصْبًا عاجلًا ويخرج منه منفيًّا، ولا يمكّنوه أن يقيمَ بها، وذلك خِذلانٌ من الله – عز وجل –. ويتّفق عليه أهلُه وأبناء عمه ويخرجوه منها. ولقد قال فيه بعض الشعراء شعرًا[١]: [من البسيط]

لله دَرُّكَ مـن مَـلْـكٍ وذي نَـسَـبٍ ناهيكَ في الفضلِ والإحسان والنَسبِ
مـا فيه عَـيْـبٌ ولا رَيْـبٌ فـيـنـقـصُـه وإنـمـا أدركَـتْـه حِـرْفَـةُ الأدبِ

قال صاحب التاريخ: إنّ الملكَ الأفضلَ نور الدين أبا الحسن لم ينتظم له ملك منذ مات أبوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف إلى حين توفي – رحمه الله تعالى –. عهد له أبوه بدمشق قبل وفاته، ومات وتملّك دمشقَ. فأخذها منه أخوه الملك العزيز [عثمان][٢] صاحب مصر وأخرجه منها غَصْبًا، وساعده على نفيه من دمشق الملكُ العادلُ الكبير. ثم مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأطمعته نفسه في أخذ حلب، وساعده السلطان عز الدين [كيكاوس][٢] صاحب الروم على أخذ حلب، فلم يتمّ له فيها أمر. ولم يزل منفيًّا من قلعة إلى قلعة حتى مات كمدًا متحسّرًا على المملكة.

وكان أكبرَ إخوته سِنًّا وأفضلهم علمًا وأفصحهم منطقًا. ولما مات السلطان غياث الدين بطعنةٍ في صدره، ورثته الملوك من كل أرض، كتب الملك الأفضل إلى ولد السلطان غياث الدين صاحب الروم يرثي والده بهذين البيتين:/ [من الطويل] [٣٢و]

وشمسُ غياث الدين عند ضِيائها وإشراقـهـا في كـلِ شرقٍ ومـغـربِ
أثار عليها[٣] كوكب الرمح فاختفت ولم أرَ شـمـسًا قَطُّ تخفَى بكوكبِ

---

(١) انظر رواية ابن واصل:

لله دَرُّكَ مـن مَـلْـكٍ بـمـضـيعـةٍ ناهيك في العلم والآداب والحسَب
مـا فيه لَـوٌ ولا لَـيْـتٌ فـيُـنـقِـصُـه وإنـمـا أدركَـتْـه حِـرفـةُ الأدب

(٢) الزيادات من مفرّج الكروب.

(٣) مفرّج الكروب: أثار لديها...

ومن جملة شعره وفضيلته في حق نفسه – رحمه الله – : [من الكامل]

يا من يسوِّدُ شعره بخضابه[١] لَعساه من أهل الشبيبة يحصلُ
هاكَ اختضِبْ[٢] بسواد حَظّي مرةً[٣] ولكَ الأمانُ بأنها لا تنصُلُ[٤]

ومن جملة شعره وفضيلته في حق نفسه – رحمه الله – : [من المنسرح]

أيُّ صديقٍ سألتُ كيف غدا أخْبِرْتُ تحت الخُمول في الوطنِ[٥]
وأيُّ ضدٍّ سألتُ حالتَه سمعتُ ما لا يَليقُ في أُذُني

قال: ولما مات السلطان صلاح الدين – رحمه الله – عَهِدَ بعد وفاته بالسلطنة لولده الملك الأفضل.

ولما تولّى الملكُ الأفضلُ دمشقَ، تولَّت عنه أصحابه، واختلف عليه أمراؤه، ونازعه أخوه الملكُ العزيزُ عثمان صاحب مصر، وساعده على منازعته عَمُّه السلطان الملك العادل أبو بكر صاحب الشرق. ولم يستقرّ له ملكٌ ببلد من البلاد.

ولما نازعه عَمُّه الملكُ العادل أبو بكر وأخوه الملك العزيز عثمان، كتب إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله يشكوا[٦] من عثمان أخيه، وأبي بكر عمه، وكتب في جملة كتابه شعرًا: [من البسيط]

مَولايَ إنَّ أبا بكرٍ وصاحبَه عثمانَ قد أخذا بالسيفِ إرْثَ علي[٧]
فانظرْ لصاحب هذا الإسم كيف لَقِي[٨] من الأواخر ما لاقى من الأوَلِ/ [٣٢ظ]

---

(١) السلوك للمقريزي: أيا من...

(٢) مفرّج الكروب والسلوك ومختصر أبي الفداء وسائر المصادر: ها: فاختضب.

(٣) كنز الدرر: لحظةً.

(٤) في سائر المصادر: بأنه لا ينصُلُ

(٥) في معظم المصادر جاء البيتان على الصورة التالية:

أيُّ صديقٍ سألتَ عنه ففي الذّلِّ وتحت الخمولِ في الوطنِ
وأيُّ ضِدٍّ سألتُ حالتَه سمعتَ ما لا تحبه أُذُني

باستثناء كنز الدرر فقد أورد في روايتهما اختلافات.

(٦) كذا في الأصل، وهي: يشكو.

(٧) كذا وردت الرواية في: السلوك ٢١٦/١؛ ومفرّج الكروب ٦٩/٣؛ وفي مرآة الزمان والنجوم الزاهرة وشفاء القلوب وسواها: غصبا بالسيف حقّ علي.

(٨) في جميع المصادر: فانظر إلى حظٍّ، وقد أورد ابن خلكان البيتين ضمن مقطعة من أربعة أبيات. وراجع في هذا الصدد: الغيث المسجم للصفدي ٧٧/٢؛ وتمام المتون ٢٤٩؛ وثمرات الأوراق ٢٣.

ولم يزل حالُ الملك الأفضل على ما ذكرناه مذبذبًا من بلد إلى بلد، منغَّصًا من إقليم إلى إقليم، منفيًّا من قلعةٍ إلى قلعة. وإخوته وعَمُّه وأولاد عَمِّه ملوك وأبناء ملوك وحُكّام بأقاليمهم، وهو المعهود له بالسلطنة حتى مات مغبونًا مما جرى عليه – رحمه الله –.

وفي هذه السنة مات الخليفة الإمام المستعصِمُ بالله أبو أحمد ابن الإمام الظاهر[١] العبّاسي – رحمه الله – وكانت مدة خلافته كلها أمن ورِفْق وعدل، وما كان له في الخلافة غير الاسم والأفعال لغيره.

وفي هذه السنة مات عبد الرحمن الأُموي صاحب الاندلس[٢].

وفيها مات الخليفة داوود من ذريّةِ الإمام المستنصِر بالله أبي تميم ابن الظاهر بأمر الله الفاطمي. وكانت وفاته بمصر[٣]. وكانت خلافته ستين سنة، ولم يصل أحدٌ من الخلفاء إلى هذه المدّة[٤]، وكان الآخر أيضًا ليس له في الخلافة إلّا الاسم[٥].

ذِكْرُ خُلفاء بني العَبّاس
[الخليفة الناصر لدين الله]

كان الخليفة أحمد ابن أبي العباس ابن أحمد المستضيء بأمر الله العباسي[٦] رجلًا شجاعَ النفس حازمًا مستيقظًا[٧]، ذا فكرة[٨] وعقل ودَهاءٍ وذكاءٍ ومَكْرٍ. وكان له هيبةٌ [٣٢ظ]

---

(١) هذا الأمر لا يستقيم، فالإمام هنا هو المستنصر بالله، والمعروف في كل المصادر التاريخية أن المستعصم بالله، قتيل التتار، هو آخر خلفاء بني العباس وبه انخرمت دولتهم، وبالتالي يكون مقتله سنة ست وخمسين وست مائة للهجرة.

(٢) لم يتضح لي أي أمير أموي يقصد بذلك.

(٣) حول داوود هذا، انظر: الوافي بالوفيات ١٣/٤٧١، حيث يشير إلى وفاته سنة أربع وست مائة؛ ومفرّج الكروب لابن واصل ١/٢١٠.

(٤) هذا الكلام يتناول الخليفة الفاطمي المستنصر بالله معد بن علي، وأشار الصفدي في الوافي بالوفيات، الجزء ٢٦ (٥٥)، إلى أن مدة حكمه بلغت ستين سنة وأربعة أشهر.

(٥) بالهامش: وكان الخليفة داوود الفاطمي محبوسًا بحبس مصر بالقاهرة.

(٦) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٦/٣١٠ (٢٨١٧)؛ ونكت الهميان ٩٣؛ والنجوم الزاهرة ٦/٢٦١؛ ومرآة الزمان ٨/٢/٦٣٥؛ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٤٨؛ وفوات الوفيات ١/٦٦.

(٧) مفرّج الكروب: متيقظًا.

(٨) كذا في الأصل، وربما كانت: فكرٍ.

عظيمةٌ في قلوب الناس. وكان له أصحاب أخبارٍ بالعراق وسائر أطراف الأرض يطالعوه بما يكونُ من أمورِ الناس، وبما يجري للناس في بيوتهم مع أزواجهم. فكان لا يخفَى عليه من أمور الناس شيء، وكانت سطوته شديدة. وكان أهل العراق يخافون أن يتحدث أحد منهم مع / زوجته خوفًا ألّا يبلغَ الخليفة. [٣٣و]

وذكر أن الخليفة كتب إليه رجل في قصة مضمونها: «إن فلان استضاف البارحة فلانًا وفلانًا، وذكر جماعةً كبيرة من سُراة بغداد. وعمل لهم من الطعام كذا وكذا. ولما فَرَغوا(١) الضيوفُ من الطعام، غسَل يدَه قبل الضيوف». فوقّع الخليفة بيده في ظاهر القصة: «أمّا الذي غسل يده قبل الضيوف فسوء أدبٍ منه، وأمّا الذي كتب هذه القصة فكثير الفضول».

قال ابن واصل: وكان الإمام أحمَد مع هذه النهضة(٢) العظيمة والفضل. كان سيء(٣) التدبير مع الرعية مايلًا بظلمه لأخذ أموال غيره، وكان كثير العسف والظلم، فخربت بلاده في أيامه، وتفرّقت أهل بلاده في الأقاليم من جوره ومن أخذ أموالهم. تركوا أقاليمهم وأماكنهم وأملاكهم حتى لا يجاوروه ببغداد. ومع هذا كان له بر ومعروف وصدقات دايمة، وكان يفعل أشيا متضادّة، من جملتها أنه عمل في بغداد دار ضيافةٍ ليفطرَ الناسُ فيها في شهر رمضان المعظّم، فأقامت أيامًا كذلك، ثم أبطلها. وأبطل بعض المكوس ببغداد ثم أعادها(٤). ثم عمل دار ضيافةٍ لمن يأتي غريبًا إلى بغداد، ولم تقم على ذلك إلّا أيامًا قليلة، ثم غلقها. وكان ينتمي إلى رَمْيِ البُندق(٥) والطير والأشياء المناسبة لهذه الأمور.

وهو الذي أحدث سراويل الفتوة وألزم الملوك وأبناء الملوك ألّا / يلبس أحد سراويل الفتوة إلّا له، ولا يرمي أحد بندقًا إلّا له. وكتب بذلك إلى سائر ملوك الأرض، فامتثل الملوك بأسرها ما رسم الخليفة، ولبس كل ملكٍ في الأرض سراويلَ الفتوة، وكذلك رمي البندق. [٣٣ظ]

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: فرغ.
(٢) في الأصل: النهظة.
(٣) في الأصل: كان سي.
(٤) في الأصل: أدارها، انظر: الكامل لابن الأثير ١٢/٤٤٠؛ ومفرّج الكروب لابن واصل ٤/١٦٣–١٦٥.
(٥) انظر: مفرّج الكروب لابن واصل ٤/١٦٤، حاشية (١) و(٢)؛ وابن واصل ٥/١١٥.

ووصل رسول الخليفة إلى الملك المنصور صاحب حماة فامتثل ما رسم له به الخليفة، ولبس السراويل ورمى البندق. وكان بحماة يوم عظيم، وكذلك سائر الأمصار، امتثل ملوكهم ما رسم لهم به الخليفة إلّا رجل واحد من أهل بغداد، وكان من أعظم سراتها، قيل أنه امتنع عن لبس السراويل ورمي البندق[1].

فبلغ ذلك الخليفة فهرب إلى الموصل، فطلبه فهرب إلى حلبَ، فطلبه فهرب إلى الشام، إلى نفس مدينة دمشق، فطلبه فهرب إلى مصر، فطلبه فمسكه الملك الكامل وقال له:

«ما حملك على ما صنعت وأنك عصَيتَ على الخليفة ولم تمتثل أمره وترمي البندق وتلبس السراويل؟» فقال ذلك الرجل للملك الكامل: «يكفيني بهذا عظمةً أنّ كل ملكٍ في الأرض أطاع أمرَ الخليفة في الأمور الهَذيانية، وأني عصَيته ولم أُطعه، فلو عصَى ملوكُ الأرض عليه، ما الذي كان يصنع بهم؟ وإنما الخليفة استخفّ قومه فأطاعوه».

وفي هذه السنة استولت التتر وقَرُبوا من بلاد خراسان. كل هذا بسبب غفلة الملوك وغفلة الخلفاء، واستولوا على بعض بلاد الشرق، وصار العجم بكماله/ [٣٤و] تحت كلمتهم، ووصلوا إلى بلاد آمد وإلى أرز الروم[2] وإلى بلاد طَنَزة[3] وإلى قرية تعرف القريشية[4] من أعمال بغداد، وقتلوا معظم أهل البلاد، وذلك لاختلاف آراء الملوك الاسلامية.

ذِكْرُ محاسن الملك الصالح، وما جرى له في أيام مملكته من الأمور التي لم تجرِ لملكٍ غيره، مع عظمته ورياسته وثباته

قيل: إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في أيام مملكته، كان عنده حكيم يُسَمَّى أبا حُلَيقة، وكان نصرانيًا، وكان ثابتًا في دينه. وكان أبو حُلَيقة يقطع الليل ثلاثة

---

(١) قيل أن اسمه إبن السفت، راجع: التاريخ الكامل لابن الأثير ١٢/٤٤٠.

(٢) آمِد، بكسر الميم، وفي معجم البلدان لياقوت: أرزن الروم، بلدة من بلاد أرمينية أهلها أرمن.

(٣) بفتح أوله وسكون ثانيه، بلدة بجزيرة ابن عمر من ديار بكر، انظر: معجم البلدان لياقوت.

(٤) في الأصل: القُرشية، أنظر: مفرج الكروب لابن واصل ٤/٣٢٥ حاشية (٧)، وهي قرية قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الجزيرة، ينتسب إليها التفاح القريشي والقريشيون الأجناد، راجع: معجم البلدان لياقوت.

أثلاث: الثلث الأول نوْمًا والثلث الثاني مطالعةً والثلث الثالث يقضيه اشتغالًا إلى أن يؤذّن المؤذنُ، فيركب ويطلع إلى خدمة السلطان. وكان السلطان الملك الصالح إذا أصبح مصطبحًا لا يمكنه أن يشرب شرابًا ولا يأكل طعامًا إلى أن يحضرَ أبو حُلَيقة، فيشرب السلطان من يده شرابًا بغير شاشني[(١)]. ثم يفعل السلطان بعد ذلك ما يختار[(٢)].

قال أبو حُلَيقة عن نفسه: «بينا أنا ليلةً نايم، إذْ أسمع بابي يطرق طرقًا مزعجًا، فخرجت من فوري وفتحت الباب فإذا بامرأةٍ بدوية. فقلت: من أنتِ؟ قالت: يا مولاي، هذا باب أبي حُلَيقَة؟ قلت: نعم. قالت: أنت أبو حُلَيقة؟ قلت: نعم. قالت: يا مولاي قد أحضرت معي مريضًا، وقد دلُّوني عليك وقد أتيتك ومعي خروف وقِدْر من العَسَل النحل». قال أبو حُلَيقَة «فقلت: رأت/ عيني صباحًا مباركًا، خروف[(٣)] وقِدْرَ عسَلٍ نحلٍ. فقلت لها: وأين [٣٤ظ] المريضُ؟ فقالت: ها هو، وأشارت بيدها إلى شابٍّ دون العشرين سنةٍ».

قال أبو حُلَيقَة: «فقلت للمريض: ادنُ منّي. فأتى، فقلت له: اجلِسْ فجلَس، فإذا هو الجِلْدُ والعَظْم».

قال ابو حُلَيقَة: «فمسكتُ يده وجَسَسْتُ أعضاءه، فإذا هو سالم من العاهات. فاشتغلتُ معه ساعةً أو ساعتين. ثم أفقتُ لنفسي، فوجدت قد لحقني برد. فقلت: يا جارية، ائتني بفرجية. قال: فاضطرب المريضُ اضطرابًا عظيمًا، فمسكته إلى أن هدت[(٤)] حركتُه. ثم قلتُ: يا جارية، الحقيني بفرجيةٍ. فاضطرَب المريضُ أكثر[(٥)] اضطرابًا من المرة الأولى».

قال أبو حُلَيقَة: «فأشرت إلى أمّ المريض أن تدني[(٦)] مني، فدنت، فقلت لها: يا هذه أفي حَيِّكم امرأة أو جارية اسمُها فرجية؟ قال: فلطَمت المرأة على وجهها وصرَخت». قال أبو حُلَيقَة: «فقلت لها: اسكتي – يرحمك الله – ما هذا الصراخ

---

(١) نقلًا عن النويري: قدّم المشروب فأخذ منه على سبيل الشاشني، وناوله الصغير. أي شرب منه قليلًا ليذوقه. راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٢) في هامش الأصل: مطلب في حكاية عجيبة.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: خروفًا...

(٤) كذا في الأصل، والصواب: هدأت.

(٥) كذا في الأصل.

(٦) كذا في الأصل، والصواب: تدنو.

في الليل؟ قالت: والله يا مولانا لم يكن في حَيِّنا امرأة اسمُها فرجية غير الستّ التي لنا وهي ابنة أميرنا. وأنا من جملة جوارها[١]، وابني هذا من جملة عبيدها، ولم ترَها الشمسُ ولا القمرُ ولا النجومُ».

قال أبو حُلَيقَة: «فأمرت الامرأة أن تتباعدَ عَنّي، وقلت للمريض: يا هذا عَرِّفني حالكَ، ومن أينَ التمحتَ هذه الجارية، وكيف كان وصُولُكَ إليها، وربما/ يحصلُ لك [٣٥و] بهذا خير؟».

فقال المريضُ: يا مولايَ أنا راعٍ من جملة الرعاة للغنم، وإني كنتُ في بعض الأيام وقتَ الظهر واقف[٢] عند البئر أسقي الغنمَ. وإذا هي قد أقبلت في فتيةٍ من قومها، فلم أستطع الهرَب، فتخبّأتُ في الزرع إلى جانب البئر. فلما أقبلت وقفت على البئر وقالت للنسوةَ التي معها: أتنظرنَ أحدًا؟ قلن: لا. قالت: فأرى أن أغتسِلَ ها هنا. فتعرَّتْ قماشها وجعلن الجوار[٣] يغسلنها وأنا أنظرها، فأصابني ما أصابني».

قال أبو حُلَيقَة: «ففكّرت في نفسي وقلت: والله إنَّ هذا المريض معذور. أنا رجل حَكيم، ونَصْراني، وشيخٌ كبير، والله لو نظرتُ إلى فرجيّة وهي على هذه الحالة لطالبتني نفسي بها».

قال ابو حُلَيقَة: «فبينا أنا مشتغلٌ مع المريض وقد اطّلعتُ على حاله، إذْ أقبلَ مملوكٌ من عند السلطان وقال: اركَبْ، فركبت. فلما وصَلْتُ إلى آخر زقاقي، إذْ أقبلَ مملوكٌ آخر فقال: سُقْ فسقت فوصلتُ سوقَ الخيل وإذا مملوكٌ آخرُ». قال أبو حُلَيقَة: «فوصلتُ إلى السلطان في خمسِ مماليك».

قال أبو حُلَيقَة: «فلما دخلتُ إلى السلطان فلم ينظر إليَّ كجاري عادته. فوقفتُ، وإذا السلطان نظَر نحوي وقال: يا أبا حُلَيقَة. قلت: لبيكَ يا مولانا. قال: ما حملك على ما صَنعتَ؟ قلت: وما صنعتُ – أيّدكَ اللهُ –؟ قال: اشتغلت عنا بغيرنا؟ قلت: لا والله. قال: فوجدتَ من هو خير/ مِنّا؟ قلت: معاذَ الله. قال: فما الذي أوجبَ عاقتكَ عَنّا؟ [٣٥ظ] فأخبرته بما عاقني عنه، وخبرَ المريض، واطّلاعي على مرضه وقلت: يا مولانا – أيّدكَ

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: جواريها.
(٢) كذا في مخطوط الأصل، والصواب: واقفًا.
(٣) كذا في الأصل، والصواب أن تكون الجملة: فتعرّت من قماشها، وجعلت الجواري يغسلنها...

اللهُ– شغلني عنك اطِّلاعي على مَرضِ هذا المريض، وإنما مولانا السلطان هو الحكيم والمداوي».

قال أبو حُلَيقَة: «فنظر السلطان نحوي وقال: يا أبا حُلَيقَة، تأكلُ أنتَ الخروفَ والعَسل، وأنا أُداوي المريض». قال أبو حُلَيقَة: «فقبَّلتُ الأرضَ وقلت: أيّدَ اللهُ مولانا السلطان، الخروفُ حاضِرٌ والقِدْرُ لم يُفتح. قال: فأمر السلطانُ أن يُعملَ الخروفُ شِواءً، ويؤتى به، والعسَل النحل والمريض وأمّه».

قال أبو حُلَيقَة: «فلما حضرَ المريضُ بين يدي السلطان نظر إليه ونظر نحوي وقال: يا أبا حُلَيقَة يمكنُ أَنْ يحصُلَ لي عشقُه ويحصلُ لي منها من النحول ما حَصل لهذا المريض؟» قال أبو حُلَيقَة: قلت: لا يا مولانا. قال: ولِمَ؟ قلت: يا مولانا هذا المريض ما حصل له هذا إلّا بالمنْعِ عن مطلوبه، ومولانا السلطان – أيّده الله – لا يحصل له المنع ممن يطلبُه، ولا يمتنع عنه من يريده. ثم التفت السلطانُ إلى المريض وقال له: ما اسمُكَ؟ قال: زعازع يا مولانا».

قال أبو حُلَيقَة: «واللهِ لقد رأيتُ السلطانَ مع جلالةِ قدره وعظمته وقد قدم بين يديه الخروف المشوي والقِدْر العسل النحل. لقد شمر عن ساعديه وطلب الزبادي الصيني من الخُدّام وجعل يُقطِّعُ بيده/ بسكّين وغير سكين، ويسكب العسل النحل بيده في الزبادي [٣٦و] ويقول للخادم: اعطِ هذا لفلانة وهذا لفلانة وقل لها: لا تُطعِمْ غيرَها منه، وقل لها: هذا لحم العُشّاق وعسلهم فاحتفظي به. فإنّا لا نجدُ مثلَه في غير هذا الوقت.

فلما فرغ السلطان مما ذكرناه، التفت إلى المريض وقال له: تشتهي فرجيّة؟ قال المريض: نعم يا مولانا.

فأمر السلطان للمريض ولأمّه بالحمّام. ثم أمر لهم بالخيل والإبل والأموال والأغنام، ومن جملة ما وهبَ الملك الصالح لزعازع معصرةً بكمالها باقصابها وأنفارها وأعسالها وقُنودها وأرضها ملكًا، ورسم أن يكون لفرجيّة مثل ذلك حتى لا يكون للعروسة على العريس[١] فَضْل. ثم التفتَ السلطان إلى زعازع وقال له: فرجيّة لها أب؟ قال: نعم وإخوة أربع أمراء وجَدُّها.

قال: فرسم السلطانُ أن يكتبَ لإخوتها لكلّ منهم كتابًا[٢] بمفرده، وكذلك الجدّ

---

(١) في الأصل: العروسة، وهو خطأ من الناسخ.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: كتابٌ.

أيضًا والأبّ. ورسم لكلٍ منهم إذا أطاع بخِلْعَةٍ سَنِيّةٍ وبمالٍ وبأرضٍ يزرعها. وكتب للوالي أيضًا: إنْ أطاعوا، وإلّا يُسَيّروا في الزناجير. ثم رسم للوالي أيضًا بخِلْعَة ومال».

قال أبو حُلَيقَة: «ولما رسم السلطانُ الملكُ الصالحُ بتجهيز زعازع إلى البلاد، سَيّرَ في خدمته أميرًا من أمرائه يُعرَفُ جمال الدين ابن نهار. فلما قَرُبوا إلى البهنسا وصحبتهم الجمدارية والخيول وما ذكرناه من الأنعام./ ووصل الوالي ووقف على كُتب السلطان، [٣٦ظ] طلب الإخوة والوالد والجَدّ وناولهم كُتبَ السلطان. فجعل كلٌّ من العربان يقرأ كتاب السلطان منعزلًا. ثم قال لهم الوالي:

هذا الجالسُ إلى جانبي هو العريس. فلما قرأ العَربُ كتابَ السلطان، نظروا إلى العريس فإذا هو عبدهم الراعي. فقام العرب الأربعة وقَبّلوا الأرضَ وكتابَ السلطان وقالوا: نحن عبيدُ مولانا السلطان، وتحت أمره، والسمع والطاعة لما يأمرنا به.

قال: فعند ذلك أمروا لهم بالخِلَع، فلبسوا وجلسوا. وإذا بالشيخ والدهم قد حضر، فنظر إليه الوالي وناوله كتابَ السلطان. فلما قرأ الشيخُ كتاب السلطان قال: هل وصل لأولادي كتابٌ مثل هذا؟ قالوا نعم. قال الشيخ: والله لو قال أحد منهم غيرَ نعم لعلّوت عُنقَه بسيفي هذا.

ثم لبس الشيخ الخِلْعة، وأمر الوالي بحضور القُضاة والأشراف والعُدول وسُراة ذلك الإقليم، وعُقِدَ عَقْدُ التزويج بالإشارة العالية المولوية السلطانية الملكية الصالحية.

قال: فعند ذلك أحضر الوالي المراسيم بما رسم السلطان الملك الصالح للزوج والزوجة من الأموال والخِلَع، وبما ملكهما من السواقي والمَعاصر والأراضي، وخصّ كُلًا منهما بحاله حتى لا يكون للزوجة على الزوج فَضْل.

قال: ولما/ فرغ الوالي مما وهبه السلطان الملك الصالح مما ذكرناه، وأحضرَ الهدايا [٣٧و] والتُحف والعطايا التي رسم بها السلطان، وفُتِحتِ الكتُب، وقُرئت على القضاة والشهود والأشراف وأكابر البلاد وأمراء العربان، ولم يبق إلّا تسليمُ الزوجة للزوج، نهض الشيخ قائمًا وهو جَدُّ الزوجة وقال للوالي ولجمال الدين ابن نهار، وهو وَلِيُّ العَقْد من جهة السلطان، وقال: يا أمراء قد امتثلنا ما أمر لنا به مولانا السلطان – خَلّدَ الله مُلْكَه –، وإني أسألكم أن ترسُموا لي أن آخذَ هذا العريس الذي لنا ونمشي أنا وهو إلى البَرّ، ثم نعود.

قال: فأمر له الأمراء بذلك. فأخذ الشيخُ بيد العريس ومشّيا إلى البرّ وجلسا. فقال الشيخ للعريس: يا ولدي اصدقني فيما أسألك عنه. فأنت بالأمس كنت عبدًا لنا، وأنت اليوم كبيرُنا، وأنا أسألك: من أين نظرتَ إلى فرجيّة؟ أو أي مكان لمحتها؟ فأخبره العريسُ بالخبر وبما نقلناه. قال الشيخ: فمن كان معها على البئر؟ قال زعازع: كان معها فلانةُ بنت فلانٍ وفلانة زوجة فلانٍ، وكان معها من الجواري[١] فلانة وفلانة.

قال الشيخ: وما كانت لابسة؟ قال خمار[٢] أزرق وقميصًا خمري[٢]، وأخذت الدلو من فلانة وملأت واغتسلتْ. قال: فعند ذلك اطمأنَّ قلبُ الشيخ. ثم أمر بإحضار البناتِ والنّسْوةِ اللواتي كُنَّ معها على البئر. ثم أمر أن تُضْربَ على البئر خيمة عظيمة، وأمر بإحضار فرجيّة/ وإحضار النسوة اللواتي كُنَّ معها والجواري، وأمر أن يُلبِسُوها ما كانت [٣٧ظ] لابسةً في ذلك الوقت، وأمر أن يطلعن[٣] الجميع على البئر، وأن تغتسلَ فرجيّة. ثم سلمها للعريس في الحُلْية التي رآها أولًا، وقال له: يا زعازع أنتَ أميرُنا وكبيرُنا، وهذه فرجيّةُ على الصورة التي رأيتها، وهذا الذي وَهَبَكَ اللهُ حَلالًا طَيِّبًا».

قال صاحب التاريخ: ولم تزلْ ذرّية زعازع أمراء وأولاد أمراء إلى يوم تاريخه، إلى الدولة التركية، إلى دولة مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر محمد[٤] ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون الصالحي[٥] – تغمده الله برحمته –، وهذا أحسن ما ينقل عن الملوك والوزراء وأبناء الملوك والخلفاء.

ذِكْرُ فُتوح عَسْقلان

وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وستمائة، وقيل في شهر المحرّم سنة اثنين وأربعين. وكنا قد تقدّم قولنا أن السلطان الملك الصالح نجم الدين لما استقرّ له الملكُ

---

(١) في الاصل: من الجوار.

(٢) كذا في الأصل، والصواب أن تكون الجملة: خمارًا أزرق وقميصًا خمريًا.

(٣) كذا في الاصل، وصوابه: وأمر أن يطلع الجميع على البئر...

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي ٤/٣٥٣ رقم ١٩١٧؛ وأعيان العصر للصفدي ٥/٧٣-١٠٣.

(٥) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤/٢٦٦-٢٧١؛ وتشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر (أنظر الفهارس)؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٨/٢٣١-٣٠٣.

بالديار المصرية واشتغل بعمارة المستنزهات، عبثت الفرنجُ بعَسْقلان، وصاروا يتخطَّفون من يجدونه من المسلمين مثلَ الواحد والاثنين والثلاثة على سبيل السرقة لا قطع الطريق، وذلك خوف(١) من السلطان الملك الصالح.

قال القاضي جمال الدين ابن مطروح: «قال: لما بلغ السلطانَ أنَّ الفرنجَ تعبث بالمسلمين، عَظُمَ عليه، فقلت له وهو في عمارة قلعة المِقْياس(٢):/ يا مولانا – أيّدكَ [٣٨و]
الله – ألا ترى أنْ تركبَ مدة عشرة أيام، وتنزل على عسقلان وتفتحها إن شاء الله؟ ثم تعود في خيرٍ، فإنَّ التجارَ والمسافرين قد تقلَّقوا منها، وذكروا أنّ الفرنجَ تتخطّفُ بعضَ من يجدون من المسلمين وحده».

قال القاضي جمال الدين: «فنظر السلطان نحوي وقال: يا جمالَ الدين، يقبحُ على الملك الصالح أن ينزل على قلعةٍ من قِلاع الفرنج ومعه مثل العساكر المصرية. الفرنج أقلُّ وأخسُّ وأذلّ، واللهِ لا سِرتُ إليهم ولا سَيَّرت إليهم أحدًا من مماليكنا الترك، ولا أُسَيِّرُ إليهم إلّا رجلًا من متعمِّمي جيشي. ثم رسم السلطان للأمير فخر الدين ابن الشيخ أن يأخذ أربعة آلاف فارس وينزل على عَسْقلان(٣).

ذِكْرُ ما جرَى في حِصار عَسْقلان

قال: ولما نزل الأميرُ فخر الدين ابن الشيخ على عَسْقلان وحاصرها أحد واربعين يومًا فلم يقدر عليها. فتمثَّل في نفسه أن يكتبَ للسلطان الملك الصالح، أنّ عسقلان قد صَعُبَت عليه. ثم خاف من ذلك، ورأى العجز، فأمر بالزحف عليها، فقتل في ذلك النهار من الناس ألف وأربع مائة رجل من سائر الجيوش ولم تؤخذ.

فلما كان اليوم الثاني تعب المسلمون من القتال وتعبت أيضًا الفرنج وناموا على الأسوار. فطلعَ رجلٌ من المسلمين في صورة لِصّ أن يسرقَ شيئًا من قماش الفرنج،

(١) كذا في الأصل، وصوابه: خوفًا.

(٢) في هامش الصفحة وبخط مغاير: الحمد لله حق حمده، بلغ المصطفى مطالعه وإلى الله عز وجل نرغب في الشكر على ما أولاه والتوفيق لما يرضاه.

(٣) بفتح أوله وسكون ثانيه، مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، يقال لها عروس الشام. وكان أول من افتتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فرأى الفرنجَ نيامًا، فأشار بيده إلى صاحبٍ له فطلع إليه، فأشاروا إلى آخر فصعد إليهم، فصعدوا/ خلقًا بعد خلق، وصاحَ الناسُ صَيْحةً واحدةً، وصعد الناسُ من كل جانب، [٣٨ظ] ففتح المسلمون عَسْقَلان.

ثم دخلت سنة سَبْع وأربعين وستمائة من الهجرة النبوية

والسلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل صاحب الديار المصرية وغَزَّة وعَسْقلان والكرَك، ونائبه بها الطواشي بدر الدين بدر[١]، والشَّوبك ونائبه بها[٢] شهاب الدين عرف ابن صعلوك، والملك المُغيث[٣] محبوس بها، والبيت المقدّس والأغوار. ولم يبق بيد الملك الصالح أبي الجَيْش[٤] غير نفس دمشق وما يليها إلى عقبة الرمانة والبقاع وبعلبك وجبال الكسروان ووادي التَّيم وهو[٥] إقليم الخرّوب. والشقيف تحت حكم الفرنج، وهو شقيف أرنون[٦]. وصاحب حمص الملك الأشرف، وقد كَسرَ الخوارزميّة كَسْرةً شنيعةً قبل هذا التاريخ، وهو في ثمانماية فارس، وكان الخوارزميّة في ستة آلاف فارس. والملك المنصور بحماة. والسلطان الملك الناصر ابن الملك العزيز بحلب وأعمالها إلى حدود الفراة. وملوك الشرق في أشرّ الأحوال، كَون أن التتر قد قَرُبوا. وتظاهرت كلمة هلاوون بن طولوخان ابن شنكزخان. وقد ذكرنا أن التتر قبل تاريخة وصلت غاراتُهم إلى قُرَى بغداد.

وفي هذه السنة وصلت التتر، وكانت أمور مزعجة وأحوال منكرة وأخبار لا تقْدِمُ[٧] النفوسُ على سماعها إلّا كَرْهًا، فلا رادَّ لمشيئة الله تعالى.

---

(١) الطواشي بدر الدين بدر الصوابي، راجع عنه ما ورد في السلوك ٣٣٨، ٧٣٠، ٨٧٩؛ والشذرات ٥/٤٤١.

(٢) ورد في السلوك للمقريزي ١/٣٣٨ «وسَيّر الطواشي بدر الدين الصوابي إلى الكرك نائبًا بها وبالشوبك؟».

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٢/٤٣٩ رقم ٣١٠.

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٢١٥-٢١٦؛ والسلوك للمقريزي ١/٣٧٨.

(٥) كذا في الأصل، والكلام بصورته الحالية لا يستقيم له معنى.

(٦) سلمه إليهم الصالح إسماعيل أبو الجيش لما استعان بهم على الصالح نجم الدين أيوب. راجع: السلوك للمقريزي ١/٣٠٣.

(٧) كذا في الأصل، والأقرب أن تكون: لا تقدر.

وفي هذه السنة كانت حروب ومُصافّات ووقائع بكل/ أرض. [٣٩و]

وفي هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط، وكان ذلك في شهر المحرّم سنة سبع واربعين وستماية. فيها نزل الفرنسيس على ثغر دمياط من أعمال الديار المصرية، ويسمى بلسان الفرنج الريد افرنس[١]. قال: ولما نزل الفرنسيس على ثغر دمياط كان السلطان الملك الصالح في أشدّ ما يكون من المرض، لا يستطيع الركوب ولا الحركة، وقد انقطع أمال[٢] العالم منه. فقيل له ذلك، فركب في الحراريق وقصد دمياط. فخرج الناس يتلقوه من قرية تعرف سَمَنود[٣]، فوجدوه نايمًا في الحرّاقة والعساكر والملوك والأمراء في البرّ. فوقف الناس واستغاثوا له وقالوا: «يا مولانا السلطان، إنْ كنتَ حيًا فحرّك لنا شيئًا من أعضائك». قال: فأخذ السلطان الملك الصالح المنديل بيده وذبّ به عن نفسه. قال: فعند ذلك صاح الناسُ صَيْحةً واحدةً واستبشروا وزحفوا إلى دمياط.

ذِكْرُ وُصول الفرنج إلى دمياط

قال: كان ملك الفرنج الأنبرور[٤]. لما فارق السلطان الملك الكامل من الأرض المقدّسة من عسقلان واعتنقا وتَوادعا وهما متصاحبان متظاهران متواخيان، ولم يكن يومئذٍ للفرنسيس طريق إلى الديار المصرية إلّا[٥] على بلاد الأنبرور. فخرج الأنبرور إليه وأضافه وقدّم له الخيول والأموال والأنعام إعانةً له. ثم اجتمع الملكان ليتحادثا. ثم قال الأنبرور للفرنسيس[٦]:/ «أين تقصد؟» قال الفرنسيس: «والله لا بد لي من الديار المصرية ومن البيت المقدّس». قال له الأنبرور في جملة كلامه: [٣٩ظ]

---

(١) يراجع في هذا الصدد ما كتبه المقريزي في السلوك ١/٣٣٣، وكنز الدرر ٧/٣٦٥–٣٧٠. ومن الواضح أن هذه التسمية التي أطلقتها المصادر التاريخية العربية على لويس التاسع ملك فرنسا إنما هي ترجمة للفظ Roi de France.

(٢) كذا في الأصل، وصوابه: أمل، أو: انقطعت آمال...

(٣) بلد من نواحي مصر جهة دمياط؛ مدينة أزلية كان بها بربا خرب عند الخمسين وثلاثمائة. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) المقصود به فريدريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، يمكن متابعة المزيد عنه في: السلوك للمقريزي ١/٢٢١.

(٥) في الأصل: إلى.

(٦) اصطلاح قصد به ملك فرنسا أو ريد افرنس «لويس التاسع»، واجع: السلوك ١/٥١٣.

«يا هذا، اتّقِ اللهَ في نفسك، ولا تمضِ إلى الديار المصرية وتخاطر بنفسك وبالملوك الذين معك وبمن معك من لزم وغير لزم. وإني قد نزلت عليها قبلك في سنة كذا وكذا، وكان بها الملك الكامل وملكت منهم البيت المقدّس، وملكتُ جميع الضِّياع التي من عكا إلى البيت المقدّس، واشترطت على الملك الكامل أن تكون الضِّياعُ التي من عكا إلى البيت المقدّس ملكًا للفرنج، ولا يكون بالبيت المقدّس أحد من المسلمين، وما فعلت ذلك إلّا لما رأيت ما بتلك الأرض من الملوك والأمراء والجيوش الذين لا يُقدَر على مقابلتهم، وما فعلت ذلك إلّا لما علمت من عجزي عنهم. وإنّك لا تقدر على أخذ دمياط ولا على البيت المقدّس ولا على الديار المصرية، وقد نصحتك».

قال: ولما سمع الفرنسيس كلام الأنبرور عَظُمَ عليه وقال للأنبرور: «لا تزيد ولا تطوّل، فوالله وحق ديني لا بد لي من دمياط ومن البيت المقدّس والديار المصرية، ولا أرجع عن ذلك حتى أفنى أنا ومن معي».

قال: ولما تيقّنَ الأنبرور أن الفرنسيس لا يرجع عن الديار المصرية ولا عن البيت المقدّس، كتب كتابًا إلى الملك الصالح.

ذِكْرُ كتاب الملك الأنبرور إلى الملك الصالح

كتب في جملة كتابه: «إنه في سنة كذا وكذا، حضر إلى بلادي الملك الريد افرنس في خلق كثير لا يُعلَمُ آخرها». ثم قال في كتابه: «يا مولاي نجم الدين احترزْ على نفسك وتعرّف كيف تكون، فإنهم يقصدون أن يملكوا البيتَ المقدس، وأن البيتَ/ المقدّس لا يحصل لهم إلّا أنْ يملكوا الديار المصرية». وقال في جملة كتابه [٤٠و] أيضًا: «إن الفرنسيس قد تيقّن في نفسه أنه يملك الديار المصرية في أسرع الأوقات». ثم كتب الأنبرور في جملة كتابه: «إن هذا الفرنسيس أكبر الملوك الرومانية، وهو ظنين[1] بدينه، وعظيم في دين النصرانية مرتبط على دينه بخلاف غيره». ثم كتب في أثناء كتابه: «يا ابن أخي – يعني بذلك الملك الصالح – وإنني قد نَهَيتُه عنكم، وحذّرته عن الحضور إليكم، وخوّفتُه وقلت له أن المسلمين في خلقٍ عظيمٍ ومُلْكٍ كبير، وأنك لا تقدر على البيت المقدّس إلا أنْ تملك الديار المصرية، وأن الديارَ المصرية

(١) كذا في الاصل، وهو يقصد: ضنين بدينه، شديد التمسك به.

لا تقدر عليها. فلم يرجع الفرنسيس إلى قولي، وأنهم تزيد عِدَّتُهم عن ستين ألف[١]، وأنهم في السنة الماضية نزلوا على جزيرة قبرص».

قال: ولما وصل كتاب الأنبرور إلى السلطان الملك الصالح، احترزَ على نفسه. ثم سار بالعساكر، ونزل على أَشْمُوم طَنَّاح[٢]. ثم جعل في دمياط من الذخاير ما لا جمعه ملك غيره، وجهّز آلات الحروب. ثم رسم للامير فخر الدين ابن الشيخ أن ينزلَ على ثغر دمياط مقابل العدو.

قال: ولما كان يوم الجمعة لسبع[٣] بقينَ من شهر صفر سنة سبع وأربعين وستماية، وصلت مراكب سَدَّت البحر المالح، وفيها خلقٌ لا يُحصَى أولها من آخرها.

قال: ولما وصل الملك فرنسيس[٤] إلى ثغر دمياط، لم يأمرْ بالنزول إلى البر حتى كتب [٤٠ظ] هذه الرسالة وبعثها إلى السلطان الملك الصالح./

ذِكْرُ مراسلة الفرنسيس إلى الملك الصالح

«بسم الإله الفصيح[٥] صاحب الدين الصحيح، عيسى ابن مريم المسيح».

أما بعد. فإنه لم يَخْفَ عليكَ ولا على كل ذي عقلٍ ثاقب وذهن لازب. أنك أمير هذه المِلّة الحنيفية وأنا أمير هذه الملّة النصرانية، وأنه غير خافٍ عنك ما فتحنا من بلاد الأندلس والاشكاري[٦]، وأخذنا النساء والعذارى وفرّقناهم[٧] لليهود والنصارَى، وأبعنا أزواجَهم أسارَى. وقد علمت ما نحن في[٨] حقّ الرعيّة، لما فتحنا بلاد المهدية،

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: ألفًا.

(٢) كانت عاصمة الدقهلية والمرتاحية، وتقع شرقي المنصورة جنوبي دكرنس الحالية. أنظر: معجم البلدان لياقوت.

(٣) السلوك للمقريزي ١/٣٣٣: لتسع...

(٤) نفسه: الملك ريد افرنس؛ ويقال له: الفرنسيس، واسمه لُوَيس بن لُوَيس، ورَيد افْرنس لقب بلغة الفرنج، معناها ملك افرنس.

(٥) كذا في الأصل، وفي كنز الدرر: النصيح.

(٦) في الأصل: واللشاري، وفي كنز الدرر: والسبارا.

(٧) كنز الدرر: وفرّقناهم على مِلة النصارى، وجعلنا رجالهم أسارى، ونساءهم عليهم حَيارَى...

(٨) كنز الدرر: ما نحن فيه من...

وعفَونا عن ثغر سكندرية. فلا تلجئ المسلمين إلى العَسْف. فإني أسِمُهم بسِمَة الخَسْف[1] أقتل العِبادَ وأدرس البلاد وأطهّر الأرض من الفساد. فإن قابلتنا بالقتال، فقد آليت إلى غير مآل، نكثر في جيشك العَويل، ولا نرحم الذليل، ولا تجد إلى نُصْرتهم سبيل. وأنا أشرح لك ما فيه الكفاية، وأبذل لك غاية الاجتهاد، والنهاية، إن تثقلْ عندي الرهان، وتحلفْ لنا بغامض الأيمان، وتستعجلْ لنا بما عندك من مراكب وطرايد وشَوانٍ، لتكون قلوبُنا راضيةً عليك، وخواطرُنا مايلةً إليك. وإلّا فالتقيناك في أحَبّ الأماكن وأضيق المساكن. فإنْ كانت لك فهَديةُ أُلقيت بين يديك. وإنْ كانت لي فَيدي العُليا عليك، أستحقُّ بالإضافة إمارةَ المِلَّتَين وحُكمَ الشريعتين، وبيد الله السعادة وهو الموفق للارادة[2].

ثم أنشأ تمثّل[3] في أسفل كتابه شعر:/ [من الطويل] [٤١و]

ستَسلَمُ إنْ سَلَّمتَ غيرَ محاربٍ فإنكَ لا تُعْطَى[4] أمورًا تَرومُها
أتيناكَ في خَلْقٍ كِرامٍ وعُصْبةٍ مسيحيةٍ لم تَخْفَ عنكَ علُومها
وها أنا قد أنشدتُ بيتًا تهدُّدًا[5] مخافَةَ ألّا تبلغ[6] النفسُ ضَيمَها
ستَعْلَمُ ليلَى أيَّ دَيْنٍ تداينتْ وأيَّ غريمٍ للتقاضي غريمُها

ولما وصلت هذه الرسالة إلى الملك الصالح نجم الدين كان في أشَدّ ما يكون من المرض بسبب السقية التي سقاه عز الدين أيبك صاحب صَرْخد[7].

---

(١) يعني أذلّهم غاية الإذلال.
(٢) قارن بالرواية التي أوردها كنز الدرر، حيث الاختلافات واضحة.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) كنز الدرر: لا ترجو.
(٥) كذا في الأصل، وفي كنز الدرر: مُهدّدًا.
(٦) كذا في الأصل، وفي كنز الدرر: لا تلتقي...
(٧) قارن هذا بما أورده ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٦/٣٦٣؛ وعيون التواريخ ٢٠/٣٠؛ وذيل الروضتين ١٨٤؛ ومرآة الزمان ٨/٧٧٣؛ والحوادث الجامعة ١١٨؛ وكنز الدرر ٧/٣٦٥؛ وتاريخ الاسلام (٦٤١–٦٥٠) ٤١–٤٥؛ وعقد الجمان للعيني «عصر سلاطين المماليك» ١٧–٢٨؛ وتاريخ الزمان لابن العبري ٢٩٤، وسواها.

ذِكْرُ ما جَرى للسلطان الملك الصالح مع عز الدين أيبك صاحب صَرْخد

وكنا قد تقدم قولُنا أن الملكَ الصالح نجم الدين لما حُبِس بحبس الكرك، كان الناظر عليه الامير عز الدين صاحب صَرْخد[1]. وكان عز الدين صاحب صَرْخد رجلًا صالحًا دَيِّنًا وَرِعًا، وكان مشتغلًا بقراءة القرآن، وكان له في كل يومٍ وليلةٍ ختمة. وكان الملك الصالح قد طلب منه صَرْخد مرّات غير واحدة، وقال له:

«تعطي صَرْخد وأنا أعطيك مائة فارس عندي بالديار المصرية، وأجعلك أتابك عسكري، وأنا أعرف دِينك وأمانَتك، وقد تقدم لك عليَّ خدمة». وعز الدين صاحب صَرْخد يمتنع عن ذلك ويقول للملك الصالح في كل وقت: «يا خوند أن تأخذَها مني غَصْبا فخذها».

فكره الملك الصالح أن يأخذها منه غصبًا، وذلك لما تقدّم له عليه من الخدم بحَبْس الكرك. ثم إن الملكَ الصالح عمل لعز الدين صاحب صَرْخد ختمةً لم يُرَ أحسن منها، وقيل أن الملك الصالح أمر بسَم الورق. فلما وصلت[2]/ الختمةُ إلى عز الدين صاحب [٤١ظ]
صَرْخد، افتُتنَ بها وأقام يطالع فيها ليلًا ونهارًا. ثم إنه إذا اراد أن يفتحَ الورق لا بد أن يضعَ أصابعَه في فمِه فيعلق السم في فيه.

فلما علم صاحبُ صَرْخد أنه ما دخل عليه الدخيل إلا من ذلك الورق، وتحقق الموت، طلَب الصُّنّاع إليه، ورسَم لهم بعمل ثلاث سروج، كل سَرْجٍ ما مقداره خمسة آلاف دِرْهم، وكللهم بالجواهر واليواقيت والبلخش[3] والزمرد وسم المياثر[4] ووضع السروج في خزانته.

فلما مات صاحب صَرْخد وتسلّمَ السلطان الملك الصالح صَرْخد والخزاين، ومن فرحه بتسليم صَرْخد وجد في الخزاين تلك السروج، فأمر بشدّ الخيل وركب بأحد

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٤٨٠ رقم ٤٤٤٢؛ وتاريخ الاسلام ٦٤١–٦٥٠/٣٠٨ رقم ٤١٢؛ ومفرج الكروب ٥/١١٥، ٢٤٨، ٢٦١، ٣١٣؛ ومختصر تاريخ ابي الفداء ٦/٨١؛ وتاريخ ابن الوردي ٢/١٨٠؛ والبداية والنهاية ١٣/١٧٤.

(٢) في هامش الصفحة وبخط مغاير: مطلب يؤخذ منه «المرء مقتول بما قتل به»، وبالخبر: كما تَدين تُدان.

(٣) ياقوت وردي اللون، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٤) كنز الدرر: الميْثرة التي للسّرج.

السروج في ذلك النهار ولعب الأُكرة. فعرق السلطان فأثر فيه ذلك السم، وحصل للملك الصالح منه ألم إلى أن آل أمرُه إلى الموت[١].

فلما وصلت رسالة الفرنسيس إلى الملك الصالح، كان السلطان في ذلك الوقت في أشدّ ما يكون من الألم ولا يستطيع الجوابَ ولا الركوبَ ولا الحركة. فأمر السلطانُ الملك الصالح للقاضي جمال الدين ابن مطروح والقاضي بهاء الدين ابن القطب والقاضي السنجاري، ومن كان عنده [من] سُراة الناس وفضلائها أن يكتبوا جوابَ الفرنسيس.

قال صاحب الكتاب: إن الفرنجَ لا يعرفون شيئًا من هذه المراسلات، ولا المكاتبات التي ذكرناها عنهم، ولا يعرفون شيئًا من التغزلات ولا الشعر المقفّى. فإن ألسنة الفرنج غلّق ولغاتهم ضيّقة، ولكن لهم وزراء يهود مغاربة – لعنهم الله – يكتبون/[٢] الصدر[٣] ويقفون الكلام. [٤٢و]

ولما وصلت رسالة الصالح إلى الفرنسيس، أمر بالنزول إلى البرّ الذي فيه المسلمين[٤] وضرب خيمةً عظيمةً حمراء. ووقع القتال، واستُشِدَ في ذلك اليوم ابن سيف الاسلام وبيليك الوزيري وجماعة عظيمة. ولأجل القضاء وسوء تدبير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، أنه رحل في الليل، وقطع الجسر، وأخرج المسلمين من دمياط، وتركها خرابًا، فَملكوها[٥] الكفرة، فلو كان أهلها بها ما قدروا عليها، ولله الأمر.

ومات الملك الصالح عقب ذلك فعظمت المصيبة. وكان مُدَّة ملكه مصر تسع سنين وثمانية أشهر وعشرون[٦] يومًا، وعمره أربعة وأربعين[٧] سنة. كان ملكًا مهابًا، عزيز النفس، بعيد الغضب، عفيفًا، طاهر اللسان، كثير الصّمت. اشترى من المماليك ما لا

---

(١) قارن برواية أكثر تفصيلًا في كنز الدرر ٧/٣٧١-٣٧٣.

(٢) الصفحتان التاليتان ٤٢ظ و٤٣و بخط مغاير.

(٣) هذه الكلمة تركت في مكانها هنا سهوًا من الناسخ للصفحتين المغايرتين، ومكانها الصحيح في أعلى الصفحة ٤٣ظ من المخطوط.

(٤) كذا في الأصل، وصوابها: المسلمون.

(٥) كذا في الأصل، وصوابها: فملكها الكفرة.

(٦) كذا في الأصل، والصواب: وعشرين...

(٧) صوابها: وأربعون.

اشتراه غيره من الملوك، وذلك مما رآه من غدر الأكراد. ولما مات أخفوا موته، وجمع فخر الدين ابن الشيخ الأمراء وقال لهم:

«إن السلطان رسم أن تحلفوا له ولولده المعظّم غياث الدين تورَن شاه»، فامتثلوا. وصار فخر الدين مدبّر المملكة، وأرسل سِرًّا لولده، وأقامت الكتب تتردد، وعليها العلامة، وكانت بخط بعض المماليك اسمه سهيل. وجميع[(١)] يظنون حياة السلطان، ولكن الأحوال لا تخفى.

لما تحقّقت الإفرنج موت السلطان، قويت شَوكَتُهم، فأرسل المسلمين[(٢)] لمصر بالنفير العام[(٣)]. فخرجت العربان والفلاحين[(٤)] والرعايا ما لا يحصى، لأن العدو أشرف على ملك مصر، لولا المكاثرة وقتال المماليك مدة أيام. ورجع المسلمون إلى المنصورة والكافرين[(٥)] قبالهم في البر الثاني. وبعد أيام عدّوا برّ المنصورة، وكانت وقعةً عظيمةً، وَرَدَّ اللهُ الكافرين خايبين. وافتخرت المماليك في ذلك اليوم كفارس الدين أقطاي وقُطز المظفّر وبيبرس البندقداري[(٦)].

ووصل الملك المعظّم، ونزل بقصر أبيه بالمنصورة، وظهرت سلطنته وموت أبيه وكثر العالم، فذلّت نفوسُ الكفرة وملّوا من القتال، وطلبوا الصلح بشرط أنه يكون لهم بيت المقدس وبعض بلاد الساحل. فتم الأمر على يد قراجا أمير جاندار والقاضي بدر الدين السنجاري وتسلّم المسلمين[(٥)] دمياط.

وأما الملك المعظّم فإنه طرح جانبًا الأمراء الكبار الذين كانوا في دولة أبيه، وصار [٤٢ظ] يتكلّم في حق المماليك ويتوعدهم بالقتل، وسكر ليلةً، وصار يضرب بالسيف القواويق/ ويقول: هكذا رأس فلان وفلان ويسمّي عُظَماء المماليك.

---

(١) يراد بذلك: والجميع.

(٢) صوابها: المسلمون.

(٣) أنظر: كنز الدرر لابن الدواداري ٣٧٥/٧: ﴿انْفِروا خِفافًا وَثِقالًا وجَاهدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم في سَبِيلِ اللهِ﴾ سورة التوبة ٤١.

(٤) صوابها: والفلاحون.

(٥) صوابها: والكافرون.

(٦) ترجمة أقطاي في الوافي بالوفيات ٣١٨/٩ رقم ٤٢٥١؛ وترجمة المظفر قطز في الوافي بالوفيات ٢٥١/٢٤ رقم ٢٦٦؛ وترجمة بيبرس البندقداري في الوافي بالوفيات ٣٢٩/١٠ رقم ٤٨٤١.

وكانت شجرة الدرّ بمصر، فأرسل يتوعّدُها بالقتل ويطالبها بمال أبيه. فأرسلت إلى المماليك تُعلِمُهم بذلك، إلى أن كان يوم وهو بالسِّماط، تقدم بعض المماليك وضربه بالسيف قطع يده. فخرج صارخًا يقول: «خذوا مُلكَكم واتركُوني أعيش فقير». فلم يرحمه أحد. فهرب إلى أعلا البرج، فرموه بالنار والنشاب ووقعَ ميتًا. وبعد ذلك اجتمع رأي المماليك على تمليك شجرة الدرّ، وأن يكون نائبها عز الدين أيبك، وتكون العلامات والمناشير باسمها، وكذلك السِّكّة والخطبة. ورجعت العساكر إلى مصر، وزيّنوا البلد. وبعد أيام عملوا عزاء الصالح، وأحضروا تابوته ودفنوه بتربته، ووضعوا عنده عدّته.

وقام الملك الناصر صاحب حلب وطمع في ملك مصر وقال: «لا يجوز ذلك لامرأةٍ جارية كانت في الرقّ أصبحت تحكم على الخلْق ويخطب لها». فلما شاعت هذه الأخبار بمصر، خاف أيبك والأمراء، فاتفق الحال على زواج أيبك شجرَ الدرّ أم خليل وتنزل له عن السلطنة. وانعقد على ذلك رأي الأمراء.

واستقلّ أيبك بالسلطنة، وصارت السِّكّة والخطبة باسمه في مصر خاصة. والشام بيد الملك الناصر صاحب حلب، وأيبك التركماني والبحرية بمصر، وفارس أقطاي والأمير بيبرس البغدادي وبَلبان الرشيدي هم المدبرين[١] للمملكة بالديار المصرية. والاحوال مطربة[٢]، والفرنسيس عاد من على دمياط إلى عكه (كذا!)، وهو في قوة عظيمة لأنه سابقًا لما كان على دمياط وتم الصلح كانت وصَلت له نجدة من بلاد الروم. فوجدوه اصطلح[٣] وسلم دمياط. فلاموه على ذلك، فأخبرهم أنه لا سبيل له إلى نقض الأيمان والعهود، فعادوا معه إلى عكا. وكانت الفتن قائمة بين ملوك الشام وملك مصر أيبك التركماني الصالحي، ولم تمكن الحركة.

وفي هذه الأيام مات/ الصدر الأجلّ الصاحب جمال الدين ابن مطروح صاحب [٤٣و] الشعر والفضائل[٤]. وكان من أعزّ أصحاب السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: المدبّرون.

(٢) صوابها: مضطربة.

(٣) اصطلاح عامي يعني: وقع صلحًا...

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٨/٢٥٠؛ ووفيات الأعيان ٦/٢٥٨ رقم ٨١١؛ وقلائد الجمان لابن الشعار ١٠/٩–٣٨؛ ومرآة الزمان ٨/٢/٧٨٨؛ وذيل الروضتين ١٨٧؛ والنجوم الزاهرة ٧/٦٥٠؛ ومرآة الجنان ٤/١١٩.

وكانت وفاته بمصر. وكان قد قدم مع الملك الصالح من حِصْن كَيفا إلى دمشق وملكها، ورحل معه إلى نابلس ومَلكها. ثم سار معه إلى مصر ومَلكها، وقيل أنه كان مع الملك الصالح في سجن الكَرك. ووعده الملك الصالح أنه «إذا فتح الله علينا فعلت معك ما يليق بي وبك».

فلما فتح اللهُ على الملك الصالح بالديار المصرية، أحسن إليه وأنعم عليه واستوزره بمصر، ورسم أن يبنى له دار[1] من بيت المال. ولما كَمُلَت الدار وسكن بها، كتب على بابها هذه الأبيات من الشعر[2]: [من السريع]

دارًا بَـنَـيْـنـاهـا بـإحـسـان مَـنْ ... لم تَخلُ دارٌ قَـطُّ مِـنْ رِفْـدِهِ
الـمـلـك الـصـالـح ربّ الـعُـلَى ... أيـوبُ زاد اللهُ في سـعـدِهِ
الـيُمْـنُ والـتـوفـيـقُ مـن حِـزْبـه ... والـنـصرُ والـتـأيـيـدُ مـن جُـنْـدِهِ
أعـطَـى وأغـنَـى بـمـواعـيـده ... مـن نـعـمـة الله ومـن عـنـدِهِ
فـقـلْ لِحُسّـادي: ألا هـكـذا ... فـلـيـفـعـل الـمـالـكُ مع عـبـدِهِ

ولما مات السلطان الملك الصالح نجم الدين، أقام القاضي جمال الدين ابن مطروح بداره لم يتحرك منها خوفًا من الاختلاف، ومما رأى من المماليك/ البحرية. ولما طال [٤٣ظ] مقامه بداره شرع في التغزُّلات، ومن جملة فضايله ونكته[3] ومستحسناته – رحمه الله – هذه القصيدة الذالية[4]: [من الكامل]

عانَقْتُه فسكرت من طيب الشذَى ... غُصْن رطيب بالنَسيم قد اغتذَى[5]
نشوانُ من خمر الشباب وإنما[6] ... أضحَى رطيب رُضابه متنبذا[7]

---

(١) في الأصل دارا.

(٢) انظر: ديوان ابن مطروح ١٨١؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٨/ ٢٠، مع اختلافات. وقد أثبت في صفحة المخطوط وبخط مغاير) ما يلي: هذه الأبيات مطبوعة في بابها وزنًا ورويًا.

(٣) كذا في الأصل، وربما كانت: نكته، بالتاء المثنّاة.

(٤) راجع الأبيات في الديوان ٢٠٣؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٨/ ٢٠.

(٥) الديوان وكنز الدرر: الشذا، اغتذا.

(٦) الديوان: نشوان ما شرب المدام، وفي كنز الدرر: من خمر الصباء.

(٧) الديوان: أضحى بخمر، وفي كنز الدرر: أمسَى بطيب...

كَتَبَ العِذارُ على صحيفة خَدِّه :⁽١⁾ … يا حُسنَه، لا بأسَ أن تتعوّذا⁽٢⁾
يا ناظري أمّا وقد عاينته⁽٣⁾ … واللهِ لا رَمدًا تخاف ولا قذا
٣ مهما نظرتَ⁽٤⁾ بخده وعِذاره … لم تَلقَ إلّا عَسْجدًا وزُمرّذا
[أضحى الجمالُ بأسره في أسْره … فلأجلِ ذاك على القلوب استحوذا]⁽٥⁾
جاء العَذولُ يلومني في حُبّه … من بعد ما أخذ التصابي مأخذا⁽٦⁾
٦ [لا أنتهي لا أرعوي عن حُبّه … لا أنثني فلْيَهْذِ فيه مَنْ هَذى]
واللهِ لا خطر السُّلُوُّ بخاطري … ما دُمتُ في قيد الحياة ولا إذا
إنْ عشتُ عِشتُ على الغرام⁽٧⁾ وإنْ أمُت … وَجْدًا به وصبَابةً يا حبّذا
٩ [إنّي ليُعجبني تَلافي في الهوَى … ويلَذُّ لي ما قد لقيتُ من الأذى]

ومن جملة شعره وفضيلته وتغزله – رحمه الله – هذه الأبيات⁽٨⁾: [من الطويل]

لعلّكَ تُصْغي ساعةً فأقولُ … فقد غاب واشٍ في الهوَى وعَذولُ
١٢ وفي النفس حاجاتٌ إليكَ كثيرةٌ … أرَى الشرحَ فيها والعِتابَ يطولُ
تعالَ فما بيني وبينكَ ثالثٌ … فيذكر كلٌّ شرحَه ويقولُ
وإياكَ عن سِرِّ الحبيب فإنني … به عن جميع العالمين بخيلُ/ [٤٤و]
١٥ بعيشكَ حدّثني لمن قُتِلَ الهوَى … فإني إلى ذاكَ القتيل أميلُ
وما بلغ العشاقُ ما قد بلغتُه … هناك مقامٌ ما إليه سبيلُ
فما كلُّ مخضوبِ البَنانِ بثينةٌ … ولا كلُّ مسلوبِ الفؤاد جميلُ
١٨ أيا عاذلي قد قلتَ ما قد سمعتُه … ولكنه قولٌ عَليَّ ثقيلُ

---

(١) الديوان: كتب الجمال.
(٢) الديوان: يتعوّذا.
(٣) الديوان: إهناً وقد شاهدته.
(٤) الديوان: مهما اكتحلت... ما تَلق إلا....
(٥) إضافات من الديوان.
(٦) ورد البيت في الديوان كما يلي:
وأتى العَذُولُ يلومني من بعدما … أخذ الغرامُ عليَّ فيه مَأخذا.
(٧) الديوان: على هواه.
(٨) لم ترد في الديوان المطبوع.

عَـذَرْتُـك إنَّ الحبَّ فـيه مَـرارةٌ ... وإنَّ عـزيـزَ الـقـوم فـيه ذلـيلُ
أ أحبابنا إنَّ الظنا قد ألفته(١) ... فَلَوْ زال لاستَوْحَشْتُ حين يزولُ(٢)

ومن جملة شعره وفضيلته وتغزله – رحمه الله – هذه الثانية: [من الطويل]

يعاهدني لا خانني ثم ينكثُ ... وأحلِفُ لا عاتبتُهُ ثم أحْنَثُ
وذلك دأبي لا يزال ودأبهُ ... فيا معشرَ الناس اسمعوا وتحدّثوا
أقول له: صِلْني، يقول: نعم غدًا ... ويكسر حَقًّا هازئًا بي ويعبثُ
وما ضَرَّ بعضَ الناس لو كان زائري ... وكنا جلوسًا ساعةً نتحدّثُ
أمولايَ إني في هَواكَ معذَّبٌ ... فحتّى مَ أبقى في العذاب وأمكثُ
فخُذْ مَرّةً روحي تُرِحْني ولا أكُنْ ... أموتُ مِرارًا في النهار وأُبعثُ
وإنّي لِهذا الضَيمِ مِنْكَ لَحامِلٌ ... ومستنظرٌ لُطفًا من الله يحدُثُ
[٤٤ظ] أُعِيذُكَ من هذا الجفاء الذي بَدَا ... خلائقُكَ الحُسنى أرقُّ وأدمثُ/

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية [٤٤و]

والملك المُعِزّ والبحرية بالديار المصرية، والملك الناصر صاحب حلب بالشام بكماله، والملك المُغيث بالكرك والأغوار والبيت المقدّس، وآخر مملكته من الجهة الغربية إلى قرية تُعرف سكريّة مجاورة غزةً، ومنتهى أعماله من جهات الشرق إلى بركة زيزة وحُسْبان، وهي قرية عظيمة آخر منتهى الأغوار من جانب الشرق.

وفي هذه السنة تجهّز الركب المصري إلى الحجاز الشريف، ولزيارة قبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. وقد تجهّز الناس على الهُجُن على طريق السويس على البحر المالح، وذلك خوف(٣) من عسكر الشام. وكذلك فعل الشاميّون خائفين من عسكر مصر، وذلك خوف(٣) من التشويش الذي بين الملوك.

(١) كذا في الأصل، وصوابه: الضنا، بالضاد، راجع: لسان العرب.

(٢) بالهامش وبخط مغاير: قلت والبيت الأخير من هذه الأبيات المطبوعة مأخوذ من قول القائل:

ألفت الضّنا مما تطاولَ مَكثُه ... فلو زال عن جسمي بكته الجوارحُ.

وفي الهامش المقابل وبنفس الخط: أبيات مطبوعة في بابها.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: خوفًا.

وفي هذه السنة قَدِم الأمير نجمُ الدين ابن البادرّائي[١] رسولًا من جهة الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين بقصد الإصلاح بين صاحب مصر و[صاحب][٢] الشام، وتردد الناس بينهما في ذلك ولم يقدروا على الإصلاح بين الملكين.

ذِكْرُ ما جَرى في الصلح بين الملكين

ولما قدم الأمير نجم الدين ابن البادرّائي في أمر الصلح، اختار الملكُ الناصرُ الصلح، ولكن على شرط أن تكون السّكّةُ والخُطبةُ باسمه بالديار المصرية. فامتنع الملك المعزُّ والبحرية عن ذلك، وقال البحرية: «لا سبيل إلى/ الصلح إلّا أن يكونَ لنا من غزّة إلى [٤٥و] عقبة فِيْق[٣]». فامتنع الملك الناصر من ذلك. وجرى في ذلك أمور يطول شرحُها. ولو كتب صاحب هذا التاريخ ما جرى بين هذه المخلوقات على جَلِيّته لم تسعه بطونُ الدفاتر. ثم بعد مدّة شهرين تقرّر أمر الصلح بين الفريقين بإشارة الخليفة، وذلك أنه يكون للمصريين من نهر الأردن إلى الديار المصرية وما حولها، ويكون للملك الناصر من الرملة والشام بكماله. ثم إن ابن البادرائي استحلفَ الملكَين والعسكرين على ما تقرّر عليه الحال.

وفي هذه السنة تسلّمَ المصريون قلعة الشوبك، سَلَّمها لهم نائب الملك المغيث، وبقي للملك المغيث الكرك والبلقاء وبعض الأغوار.

وفي هذه السنة قطع الملك المُعزّ أيبك التركماني خُبْزَ الأمير حسام الدين ابن أبي عليّ من الديار المصرية، وأقام شهر ونصف[٤] بطّالًا. ثم طلب دستورًا ليزور البيت المقدّس فرسموا له بذلك، فهرب إلى الملك الناصر[٥].

---

(١) نجم الدين عبد الله بن محمد بن أبي الوفاء، أبو محمد البادرائي البغدادي رسول الخليفة المستعصم للإصلاح بين المعز أيبك والملك الناصر صاحب دمشق. ترجمته في الوافي بالوفيات ١٧/٥٨٠ رقم ٤٨٦؛ والسلوك للمقريزي ١/٣٨١–٣٨٦؛ والحوادث الجامعة لابن الفُوَطي ٣٢٢؛ وذيل الروضتين ١٩٨؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٥١–٦٦٠) ٢٠٠–٢٠٢؛ والبادرّائي نسبة إلى بادرّا قرب واسط، راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالكسر ثم السكون، وهي مدينة بالشام بين دمشق وطبرية، وينحدر من هذه العقبة إلى غور الأردن، ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) كذا في الأصل، وصوابه: شهرًا ونصفًا...

(٥) راجع ترجمته في تاريخ الاسلام (٦٥١–٦٦٠) ٧؛ والسلوك ١/٢/٣٨٦؛ والمختصر في أخبار البشر ٦/٩١؛ وكنز الدرر ٨/٢٣؛ وتاريخ ابن الوردي ٢/١٨٩.

قال صاحب التاريخ: لما قدم حسام الدين ابن أبي عَلِيّ علَى الملك الناصر صاحب الشام، أقبل عليه وأحسن إليه وأعطاه مائة فارسٍ. وفي آخر هذه السنة كانت الملوك مستقرّين على أماكنهم، كل منهم على ما هو عليه، وهلاوون قد قَوِيَ أمرُه وتظاهر كلمته[1]. كل هذا/ [٤٥ظ] والملك المعزّ والبحرية على ما هم عليه بالديار المصرية، والملك الناصر ابن الملك العزيز بحلب ودمشق، والملك المغيث بالكَرك والبلقاء والأغوار، وبدر الدين لؤلؤ بالموصل وأعماله، والروم قد آل أمره[2] إلى الخراب، وملوك الشرق في أنحَس ما يكون من الأحوال. وقد قَوِيَ أمر التتر وهم يفتحون مدينةً بعد مدينة، والوزير ابن العَلقَمي وبعضُ أصحابه قد أفسدوا نظامَ الخلافة.

وفي هذه السنة قَدِمَ الفارس أقطاي الجَمدار الصالحي من بلاد الصعيد من أعمال مصر والعرب معه مُقَيّدون، ومن جملتهم الشريف ابن ثعلب[3]. وحبسوا الشريف ابن ثعلب بثغر سكندرية. وكان الوالي بها يومئذٍ شمس الدين ابن باخل، والقاضي ناصر الدين ابن المنير، والخطيب الضياء ابن عوف.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستماية من الهجرة النبوية

فيها كانت قتلة الأمير فارس الدين أقطاي الجَمدار الصالحي – رحمه الله – وكان أكرَم الناس وأشجعهم في أبناء جنسه.

وفيها تشتّت شمل البحرية.

وفيها مات نصرة الدين ابن الملك الناصر صاحب حلب، وكانت وفاته بالديار المصرية بالحبس في قلعة الجبل، وهو آخر من بقي من ذرّية الملك الناصر.

وفي هذه السنة هربت البحرية من الديار المصرية إلى بلاد البلقاء والأغوار وبلاد الكرك/ [٤٦و] ودخلوا تحت طاعة الملك المغيث، وتوجه بعضهم إلى بلاد الروم وأقاموا عند

(١) كذا في الأصل وفي مكان آخر من المتن جاء النص: وظهر اسمه وقويت كلمته. وهلاوون هو هولاكو بن تولي بن جنكيزخان. ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٩٩/٢٧ رقم ٣٩٣؛ والسلوك للمقريزي ٣٩٩/١– ٥٠٠.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) راجع كتاب السلوك للمقريزي ٣٨٦/١–٣٨٧.

السلطان علاء الدين صاحب الروم، وأقام بعضهم بالشام يقطعون الطريق ويأكلون بقائم سيوفهم. وتفرّقوا عند الملوك، وجَرى لهم أنحس ما جَرى للخوارزمية. كل هذا بعد قتله الفارس أقطاي.

قال صاحب التاريخ: إن البحرية لما ضاقت بهم البلاد والأقاليم وخافتهم الملوك أن يقربوهم أو يستخدموهم ليعدوا عليهم ويقتلوهم، وذلك لعلمهم بفسادهم، وسوء تدبيرهم، وهو أنهم إنْ قالوا لم يَصدُقوا، وإن استؤمنوا خانوا، وإن حلَفوا كَذبوا، وإن استخدمهم الملوك غَدروا، فتفرّقوا في الأقاليم. وكانوا رجالًا فرسانًا شجعانًا أقشيةً تُرْكًا مقدامين في الحروب. وهم الذين فتحوا البلاد ووَطّنوا العباد وفتحوا السواحل من الفرنج وهم[1]:

سيف الدين بلبان البغدادي، سُنْقُر الرومي، سُنْقُر الأقرع، ألطُنبا الحمصي، بدر الدين بَيْسَري، قلاوون الألفي، بَلبَان المستعربي، بيبرس البُنْدُقداري، آقوش النجيبي، آقوش السعدي، بكمش المسعودي، كشتغدي الشمسي، بلبان القيمري، بيبرس الوزيري، كندغدي الوزيري، أزدمر العلائي، البرلي، أيبك الأفرم، الحاج أزدمر[2]، طيبرس الركني، / بيبرس الجالق، بشكا[3] العلائي، بكجا العلائي، بكجا العزيزي، [٤٦ظ] سُنقر المسّاح، سُنقر الأشقر، برامق، سُكُز، أنص، الأيدمُري، الرشيدي، قراسنقر المعزّي، طغريل الشلي، صاحب العباسة، عز الدين الأطروش، المحمّدي، الدّمياطي، بلبان المجدّي، خاص ترك الصغير، سنجر الحلبي، علاء الدين قراسُنقر الكبير الذي ينتسبون[4] إليه العلائية جميعًا، فخر الدين ماما، إياس المقرّي، سرا سنقر الوزيري، بيبرس الكافري، خاص ترك الكبير، الدوادار الرومي، الدرفيل[5]، أزدمر البَواشقي، بكمش الحلبي، أيدغدي الحلبي، البهاء أمير آخور، بيليك الجوكندار نائب الملك

(١) قارن بالأسماء الواردة في السلوك للمقريزي ١/٣٩٠–٣٩١؛ ونهاية الأرب للنويري ٢٩/٤٣٣–٤٣٨ حيث الفوارق كبيرة في صياغة الأسماء وعددها.

(٢) في هامشه: قدّس الله تعالى روحه، ونوّر ضريحه.

(٣) هل يعني به بجكا العلائي؟ أنظر: تاريخ ابن الفرات ٧/٢١٥؛ والسلوك للمقريزي ٦٠٠.

(٤) كذا في الأصل، وصوابها: ينتسب.

(٥) لقب أطلق على حسام الدين لاجين الدوادار.

الظاهر، الحسام أستدار مملوك سنقر الرومي، الركن أياجي الحاجب[١]، الحسام كوسا، سنجر المصارع، سنجر البنيدي، سنجر الركني، الباشقردي، أيبك طبلوس، بلَبان الباخلي، أيبك الحامضة، سيف الدين صرغان، سنقر الجبيلي، علاء الدين بندقدار، منكلي السكزي، أيبك الرصاصي، علم الدين صرغان الركني، أيتمش السعدي، الكبكي، آقوش الصيرفي[٢]، علاء الدين حربدار، بلبان المهراني، بكجا، بهاء الدين بغدي، وهو الذي شنقه الملك الظاهر بسوق الخيل، وعز الدين الحامضة، أيضًا شنقوه،/ سنجر المسروري، عرف علم الدين الخيّاط وتولى القاهرة المحروسة، عز الدين أيدمر، الحلّي، الصارم المسعودي، مهمندار الكبير، بلبان القطلخي، بلبان الزهيري، بلبان الباخلي، أيبك فطيس، السابق الوزيري العمادي، والي بلبيس كان آقوش الزوباشي، آقوش المُعزّي، آقوش الكنجي، وهؤلاء الذين ذكرناهم جميعهم بحرية، وأضيف إليهم مماليك خوشداشيتهم، وأضيف إليهم من العزيزية والناصرية خلق كثير. وكان كبير هؤلاء جميعهم الأمير علاء الدين قراسنقر العلائي، وهو الذي تنتسب العلائية إليه، وكانت وفاته قبل وفاة الملك الصالح أو قريبًا منه[٣]، ودفنته بالقاهرة خارج باب النصر. [٤٧و]

وذكر بعض أصحاب الكتب ومن عنا[٤] بأخبار الزمان، أن علاء الدين قراسنقر كان من الكاملية، وكان إذا دخل إلى الملك الكامل يقوم له ويقعده إلى جانبه، وما يفعل ذلك معه إلّا لدينه وعلمه وشجاعته وثباته وصدقه. وكان في أيام الملك الصالح أيضًا إذا دخل عليه قراسنقر العلائي يتنحا[٥] له الملك الصالح عن مكانه ويجلسه مكانه ويكرمه أكثر مما كان يكرمه الملك الكامل. وكان جنسه خوارزميًا. وكان صفته أسمر اللون إلى الغاية، كوسج اللحية، خفيف الجسم، أتمّ ما يكون في الرجال رحمه الله.

---

(١) ركن الدين بيبرس الحلبي.
(٢) في الأصل: الصرفي، والتصحيح من النجوم الزاهرة وزبدة الفكرة.
(٣) كذا في الأصل، وصوابها: منها.
(٤) كذا في الأصل، وهو: عني.
(٥) كذا في الأصل، وهي: يتنحى.

ثم دخلت سنة خمسٍ وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية

والعساكر المصرية والشامية[١]/ [٤٧ظ] مقابل بعضهم بعض، والعساكر المصرية والعساكر الشامية والملوك بالأقاليم مختلفون، والبحرية في البلدان مشتّتون.

وفي هذه السنة قَوِيَ أمر هلاوون ابن طولوخان ابن شنكزخان وظهر اسمه وقويت كلمته، وفتح قِلاع الاسماعيلية بالشرق، وقتل صاحبها الملك جلال الدين حسن.

وفي هذه السنة دخل أباجوا[٢] إلى الروم وهو أكبر مقدمي التتر، وأقام بها، وهرب صاحب الروم إلى بلاد الأشكري، واستولى أباجوا على بلاد الروم وأخذ أموالها وحواصِلَها وحكم فيها.

وفي هذه السنة سيّر هلاوون جماعةً من أصحابه من الأعجام جواسيسًا إلى بغداد، واجتمعوا بالوزير ابن العلقمي، وأفسدوا نظام الخلافة، ووعدوا جماعةً من ملوك بغداد بمواعيد كاذبة. وقيل إن هلاوون سَيّر رجلًا من أكبر تجار العجم في زي تاجر ومعه ألف حمل حرير، واجتمع بجماعة من سُراة بغداد، واجتمع ايضًا بالوزير ابن العلقمي. كل هذا والخليفة غافل لا يعلم، وهو مشتغل بما هو فيه[٣].

وفي هذه السنة استحكمت الوحشة والبغضة بين الملك الناصر صاحب الشام والملك المعز والبحرية.

وفيها قصدت البحرية نابلس طالبين الملك المغيث صاحب/ [٤٨و] الكرك ليكونوا في خدمته.

وفي هذه السنة خرج الملك المغيث مع البحرية طالبين الديار المصرية. والتقا العسكران البحرية الصالحية والعسكر الشامي على نابلس، وانكسر البحرية وهرب الرشيدي. وكان البحرية في نفرٍ قليل.

---

(١) في هامش أسفل الصفحة من مخطوط الأصل، وبخط مغاير: الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه، بلغ العبد المصطفى محب الدين مطالعه، وإلى الله عز وجل يرغب في الشكر على ما أولاه، والتوفيق لما يرضاه.

(٢) كذا في الأصل، وفي السلوك للمقريزي ١/٥٤١ وردت الصيغة: أباغا، وفي دائرة المعارف الإسلامية Abaka؛ وفي الوافي بالوفيات للصفدي ٩/١٨٧ رقم ٢٦٣٩: أبغا؛ والنجوم الزاهرة ٧/٣٤٨؛ والمنهل الصافي ١/٤١٦–٤١٧؛ وزبدة الفكرة ١٠٠–١١٨؛ وعيون التواريخ ٢٠/٣٣٩–٣٧٨.

(٣) اختلفت الروايات وتشعبت حول اجتياح التتار لبغداد، يمكن مراجعة ذلك في جميع المصادر التاريخية لسنة ٥٥ و٥٦هـ. راجع هذه الرواية في: عقد الجمان للعيني ١/١٢١.

وفيها تواترت كتب الأمراء المصرية إلى الملك المغيث يحثونه على الحضور ليملكَ الديار المصرية[١].

قال صاحب التاريخ: إن البحرية منذ مات السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أستاذهم لم يستقرّ لهم حال، ولم تنتظم لهم كلمة، ولا سمع أحد منهم من الآخر، ولا حلف بعضُهم لبعض وصدقوا، ولا اتّفقوا على أمرٍ ووقفوا عنده، ولا وَعدوا ووفَوا. وسبب ذلك أنه لما مات السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب – رحمه الله – بثغر دِمْياط من أعمال مصر سنة سبع وأربعين وستماية، اتفقوا أنهم يطلبون ابن أستاذهم الملك المعظم تورنشاه ويقيمونه مقام أنفسهم ومقام أبيه. فلمّا حضر إليهم قتلوه[٢]. ثم اتفقوا ان يحبسوا الفرنسيس هو ومن معه من ملوك الفرنج، فعتقوه هو ومن معه من الملوك[٣]. ثم اتفقوا أن يملكوا شجرَ الدرّ، وأن يكون الامير حُسام الدين ابن أبي عليّ مدبّر المملكة بالديار المصرية. فلما وصلوا طردوه وقطعوا خبزه، وهربَ إلى الملك الناصر صاحب الشام. ولما قدم ابنُ أبي عليّ [على][٤] الملك الناصر/ صاحب الشام، تلقّاه ملتقًا حسنًا، وأقبل عليه وأحسن إليه وأعطاه مائة فارسٍ كما ذكرنا[٥]. [٤٨ظ] وولوا في ذلك الشهر القاضي قطب الدين الحمويّ الحكمَ العزيز وعزلوه، وولّوا القاضي بدر الدين الجزري وعزلوه، وولّوا القاضي فخر الدين السّنْبكي وعزلوه. وحُبِسَ الصاحبُ جمال الدين ابن مطروح في داره ولم يخرج منها، وذلك كراهية الدماء، و[خوفًا][٤] من اختلاف البحرية[٦].

وسلطنوا بينهم الامير عز الدين أيبك التركماني الملك المعز، ولم يكن له يومئذٍ بينهم أمر ولا حَلّ ولا ربط، ولا يسمع أحد منه، وإنْ رَسَمَ أن يُعطُوا فلا يعطون، وإن رَسَمَ أن يأخذوا شيئًا أخذوا أضعافه. وكان الأمر والنهي والحل والعقد للأمير فارس الدين أقطاي الجَمدار.

---

(١) راجع السلوك ١/٤٠٣–٤٠٧.

(٢) راجع تفاصيل ذلك في السلوك ١/٣٥٩–٣٦١.

(٣) أنظر تفاصيل ذلك في السلوك ١/٣٦٣.

(٤) زيادة يقتضيها سياق الكلام.

(٥) أنظر الرواية في السلوك ١/٣٨٦.

(٦) السلوك ١/٣٣٢.

وكانت المكاتبات والمراسلات إذا وردت من جهة الملك الناصر صاحب الشام لا يقدر أحد أن يفتحَ كتابًا ولا يتحدّث بلفظةٍ إلّا بحضور الأمير فارس الدين أقطاي الجَمدار[١].

ولما رأى الملك المعزّ أيبك التركماني الأمرَ والنهيَ والحلَّ والعقدَ للأمير فارس الدين أقطاي، وأنه لم يكن بينهم إلّا صفة نائبًا لهم، عمل على قتل الفارس أقطاي وقتَلَه. وتزوج بشجر الدرّ زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. ولما قتلوا الفارس أقطاي وغلّقت أبواب المدينة، خافت البحرية على أنفسهم. جاؤوا إلى باب من أبواب القاهرة من جهة الشرق وحرَقوه، وهو الآن/ يسمى الباب المحروق وخرجوا منه على حَمِيّة، وأقاموا [٤٩و] ببلاد الأغوار والبلقاء والكرك والشّوبك يقطعون الطريق ويأكلون بقائم سيوفهم.

وقصد منهم جماعة أن يتوجهوا إلى الملك المغيث، ورحل منهم جماعة إلى السلطان علاء الدين صاحب الروم بعد أن مسَك الملك المعز أيبك التركماني من البحرية جماعة، وقتل من قتل وحبَس من حبَس وسَلِم من سلم.

ثم إن البحرية تشتّتوا في الأقاليم، وهرب منهم جماعة إلى صاحب الروم، وكتب صاحب الديار المصرية الملك المعزّ كتابًا إلى صاحب الروم أن: «هؤلاء البحرية أقوام مناحيس، أطراف[٢] لا يقفون عند الأيمان، ولا عند كلام، فاحترزْ على نفسك منهم، فإنهم غدّارون مَكّارون، ولا آمنُ أن يكرون[٣] عليك».

ذِكْرُ عِدَّة المماليك البحرية الذين رحلوا إلى الروم

وهم[٤]: قَشْتَمر العجَمي، جارباش[٥] العجمي، سنجر الجاووك [الركن][٦]، الفارِقاني، سنقر الجبيلي، [سنقر] الحُبَيْشي الكبير، الحبيشي الصغير [الحاجب]،

---

(١) أنظر كتاب السلوك ١/٣٨٩.
(٢) جمع طرف، وهو هنا الذي لا يثبت على صحبة أحد. أنظر: محيط المحيط.
(٣) السلوك ١/٣٩٣: يمكروا
(٤) أنظر الأسماء في السلوك ١/٣٩١.
(٥) السلوك وتاريخ ابن الفرات (فاتيكان) ٦/١٦٧: شارباش.
(٦) الزيادات من السلوك.

الصيقلي[1]، الغتمي، بلبان النجمي، بكمش المسعودي، أبو عبية، النميسي، فخر الدين ماما، أيدمر الجَمدار الرومي، سنقر الركني، الحسام قرابة[2] سكز، أيدغدي الفارسي، بلبان الفارسي[3]، بلبان الزهيري، سنجر البدري، أزدمر اليوسفي[4]، [إزدمر][5] البواشقي مملوك الرشيدي الكبير، العنتابي، المستعربي، سنقر البُدَيوي، أيبك الشقاري، إيدغدي فتنة، سيف الدين/ الاشل، الجولاني[6]، سنجر الشكاري، المطروحي، أيبك [٤٩ظ] الفارسي، إياس المقري، ومعهم جماعة [كبيرة] من المماليك الصغار [الجمدارية] الصالحية.

وكان الحاكم على هؤلاء المماليك والمقدّم عليهم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي وسنقر الجبيلي. ولكن كان الامير علم الدين الباشقردي رجلًا عاقلًا ثابتًا عالمًا بما يقول، وكان سنقر الجبيلي فارسًا كبيرًا مشهورًا بينهم بالشطارة[7] والشجاعة.

قال صاحب التاريخ: ولما وقف صاحب الروم على كتاب الملك المعز صاحب الديار المصرية أيبك التركماني وما نقله عن البحرية وسوء تدبيرهم، خاف على نفسه. فطلب البحرية، وكان عِدتّهم مایة وثلاثين فارسًا. فلما مثلوا بين يدي صاحب الروم، نظر إليهم رأى رجالًا مثل السباع، فقال لهم:

«يا أمراء، ما بالكم وأستاذكم؟» فتقدّم الباشقردي وقبل الأرض بين يدي صاحب الروم وقال: «أيدّك الله يا خوند، من هو أستاذنا؟» قال: «الملك المعز صاحب مصر». فقبل الباشقردي الأرض وقال:

«يحفظ الله الملك، ما هو أستاذنا، إنما هو خوشداشنا، وإنْ نحن استقلیناه وولّيناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه [سنًا وقدرًا وأفرس وأحق بالمملكة][8]».

---

(١) السلوك: الصقيلي؛ وتاريخ ابن الفرات: السيقلي.
(٢) السلوك: قريب.
(٣) سقط من رواية السلوك.
(٤) السلوك وتاريخ ابن الفرات (الفاتيكان).
(٥) الزيادات من السلوك.
(٦) السلوك: الحولاني، وفي الأصل: الأشل الجولاني.
(٧) الشطارة هنا المهارة والقدرة.
(٨) الزيادة من السلوك ١/٣٩٣.

ولما ولّيناه علينا قتل بعضَنا وحبَس بعضَنا، فهربنا منه وتشتّتنا في البلاد. بعضُنا توجه إلى الملك المغيث صاحب الكَرك، وبعضُنا رحل إلى الملك الناصر صاحب الشام، وبعضُنا أقاموا يقطعون الطريق وناكلون/ بقايم سيوفنا[1]، ونحن التجينا إلى [٥٠و] جنابك. فإن أحسنتَ إلينا ورضيت بنا فنحن مماليكك، وإن كان غير ذلك، فنحن مماليكك».

قال: ولما سمع السلطان علاء الدين صاحب الروم كلام الباشقردي، أعجبه كلامه وقال: «بل أنتم أصحابي وأنا واحد منكم والبلاد بلادكم». وأمر لهم بالجوايز السنية والخِلَع، وأقطع لهم الإقطاعات الثِّقال والرباع، وأقاموا في خدمة صاحب الروم أربع سنين، وقيل خمس سنين. كل هذا والتتر يفتحون الأقاليم أوّلًا فأولًا، والأخبار تتردّد إلى الخليفة وإلى ملوك الشرق، كل خبر أنحَس من الآخر. ولم يزل الأمر كذلك سبع سنين، إلى أن قتلت شجر الدرّ زوجَها الملك المعز أيبك التركماني.

قال صاحب التاريخ: ولما وصل الخبر إلى السلطان علاء الدين صاحب الروم بقتل أيبك التركماني، طلب البحرية الذين عنده وقال لهم: «يا أمراء، تعيشون وتبقون في الملك المُعزّ، فإن اخترتم المُقامَ عندي فالبلاد بلادكم، وإن اخترتم الديار المصرية جهّزتكم». قال: فعند ذلك تقدّم الباشقردي وخاطر بنفسه وقال: « – يحفظ الله مولانا السلطان – ما مِنّا إلّا من ترك بالديار المصرية إبنًا أو بنتًا أو امرأة أو جارية أو مِلْكًا، وكلٌ منّا مشتاق إلى وطنه، والمماليك مماليك مولانا السلطان. إن رسمَ لنا بالإقامة أقمنا، أو بالرحيل رحلنا». قال: فعند/ ذلك رسَم لهم صاحبُ الروم بالخِلَع [٥٠ظ] والأموال والتفاصيل والخيول، وجهّزهم إلى الديار المصرية.

ولما تجهّز البحرية من بلاد الروم إلى الديار المصرية بعد قتل الملك المعز أيبك التركماني، وكّلوا الملك المنصور ابن أيبك التركماني سلطانًا بالديار المصرية. وكان سيئ التدبير، يلعب بالحَمّام ويركب الحَمير الفُرْه في القلعة، ويناقر بالديوك، ويناطح بالكِباش، ولا يقف عند ما يفعله من سوء الأفعال.

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: يأكلون بقائم سيوفهم.

ذِكْرُ ما فعله الملك الناصر صاحب الشام

قال: ولما بلغ الملك الناصر أن البحرية وصلوا إلى الملك المغيث صاحب الكرك وأنهم قد اجتمع منهم عنده خلقٌ كثير، وكانوا يطلعون إلى الخدمة كل يوم عشرين بالنَّوبة، وذلك خوف[1] على أنفسهم، وخافوا أن يطلعوا جملةً واحدةً، فيمسكوا الجميع[2]. فكتب الملك الناصر إلى الملك المغيث إنه: «إذا أتاك كتابي هذا فتُمسك جميع من وصَلَ إليك من البحرية وتسيِّرهم إلينا مقيَّدين مزنجرين[3]».

ولما وصل كتاب الملك الناصر إلى الملك المغيث، كان عنده من البحرية أربعة أنفس أعزاء[4] وهم: قلاوون الألفي الصالحي، بكتاش الفخري أمير سلاح، بكتاش النجمي، الحاج طيبرس الوزيري. فسير لهم الملك المُغيث في الليل وقال لهم: «لا تطلعُوا غدًا الخدمة، واطلبوا النجاة لأنفسكم، فإنّ الملك الناصر صاحب الشام يحث على إمساككم، فاحترزوا على أنفسكم/ وقد أعذَر من أنذر». [٥١و]

قال: فتوجّه هؤلاء الأربعة قاصدين الديار المصرية، وهرب نصف الليل بيبرَس البُندقداري إلى الملك الناصر. ولما قَدِمَ بيبرس البندقداري على الملك الناصر، أحسن إليه، وأنعم عليه، وأعطاه مائة فارسٍ. وأما الأمراء الباقون تحت الكرك، فإنهم طلعوا من سحَرٍ إلى الخدمة. فمسك الملك المغيثُ الجميعَ وهم: سُنْقُر الاشقر وسكز وبرامق وبكمش المسعودي، وقيل كانوا تسعة أنفس، وَقيّدهم وسَيَّرهم إلى خدمة الملك الناصر بدمشق.

ذِكْرُ قَتْلَة الملك المعزّ أيبك التركماني، رحمه الله

قال: كان الملك المعز أيبك التركماني قد تقدَّم سِنُّه، وكَشَّر له ملك الموت عن أنيابه. وكان له مُنَجِّم، وكان الملك المعزّ يرجع إلى قوله، فقال له المنجم إنه: «تقتلُكَ امرأة». فأمر الملك المعز أيبك التركماني أن يخربوا الدور والدكاكين الذين من التبَّانة إلى السوق إلى باب زويلة وإلى باب الخرق وإلى باب اللُّوق إلى الميدان. وكان الميدان. وكان الميدان في ذلك

(١) كذا في الأصل، وصوابه: خوفًا.
(٢) كذا في الأصل، وصوابه: جميعهم.
(٣) مقيدين بالسلاسل.
(٤) كذا في الأصل.

الزمان ميدان باب اللُّوق، وهو الذي أنشأه الملك الصالح. ولا يبقوا في طريقه دارًا ولا دكّانًا ولا جِدارًا ولا يفتح طاقة يوم رُكُوب السلطان.

ولما قَتلت شجر الدرّ الملكَ المعزّ أيبك التركماني في الحمّام[1]، مسكوا خادمًا لها يعرف محسن الجوجري، وكان خادمًا كبير القدر، ومسكوا معه/ مملوكين وسَمّروه على [٥١ظ] باب زويلة، وسَمّروا معه المملوكين عن يمينه وشماله، ومسكوا معه أربعين خادمًا ووسّطوا الجميعَ بسوق الخَيل، وعلقوهم على الخشب من القلعة إلى باب زويلة. وكان ذلك بإشارة الامير علم الدين سنجر الغتمي وكان يومئذ أشر البحرية. وفي ذلك النهار جلس الملك المظفر قطُز في دَسْت المملكة بالديار المصرية[2]، ومسك الملك المنصور نور الدين علي ابن أيبك التركماني، فإنه كان سيئ التدبير كما ذكرناه.

وكان البحرية قد تجهّزوا إلى ثغر سكندرية لينهبوا خيل التقادم الذي تصل[3] من برقة. فلما بلغهم أن الملك المظفّر قطُز مسَك الملك المنصور، ركبوا من ساعتهم وتوجهّوا إلى القاهرة، وطلعوا القلعة، وقالوا للملك المظفّر قطُز: «لِمَ مسكتَ ابن أستاذنا وخوشداشنا؟» فخاف الملك المظفرُ قطُز على نفسه وقال لهم: «إنما أنا واحد منكم، ونحن كلنا كلمة واحدة، وإن التتر قد طرَقت البلاد، وقد فتحوا العجم وتوجّهوا قاصدين بغداد والعراق والشرق، ولم يبق إلّا الشام والديار المصرية، ونحن مع الملك الناصر تحت الموت والتهديد، ولا يمكننا أن نخرج إلى القتال بغير ملكٍ، ونحن نخرج إليهم جميعًا. فان كسرنا هذا العدو المخذول فالأمر لكم تُسلطِنوا بينكم من تختارون، وإنْ كانت الكسرةُ علينا فنموتُ جميعًا/ ويتولّى أمور المسلمين من يشاء الله تبارك [٥٢و]

---

(١) بالهامش: وكان سبب قتلها الملك المعزّ أنه خطب ابنة بدر الدين لؤلؤا صاحب الموصل، فبلغ ذلك شجرَ الدرّ فتغيّرت عليه. وكرهها لأنها كانت تمرّ عليه كونها شملته (؟) مملكة مصر، وكانت تتصرف بمملكة مصر كما تختار وتأمر وتنهَى، ومنعته من الاجتماع بزوجته أم ولده الملك المنصور، وألزمته بطلاقها. ولمّا تمكّن منه الغيظ، حَرِدَ [؟] ونزل إلى مناظر باب اللُّوق أيامًا، فبعث إليه من سَكّن غيضه (كذا!) فطلع إلى القلعة، وكانت قد أعدّت له من يقتله. فلما دخل إلى الحمّام، دخلت عليه ومعها خمس خدام، فأخذ بعضُهم بخناقه، وبعضهم بأنثييه، فاستغاث بشجر الدرّ فقالت لهم: اتركُوه، فقالوا لها متى ما تركناه قتلنا وقتلك. ثم قتلوه في التاريخ المذكور. فلما تملّك بعده ولده، قبض عليها ودخل على أمه، فلم تزل تضربها بالقباقيب حتى ماتت.

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي ٢٤/٢٥١–٢٥٣؛ وذيل مرآة الزمان ١/٣٦٠.

(٣) كذا في الأصل، وصوابها: التي تصل...

وتعالى». قال: فعند ذلك اجتمع الأمراء البحرية واشتوروا فيما بينهم وقالوا: «إن التتر عدوٌّ ثقيل، ونحن ما نخرج من الديار المصرية ولكن نلقاهم بالصالحية». فلما سمع الملك المظفرُ قطزُ مقالهم، خاف على نفسه وقال: متى خالفتهم قُتلت. ففتح الخزاين وأنفق المالَ ولم يدَعْ في بيت المال الدرهمَ الفردَ.

قال صاحب التاريخ: لما وصَل السلطانُ الملك المظفر قطُز بالعساكر ووصل إلى الصالحية، طلب الأمراء الذين عنده ومن بقي عنده من الصالحية واستشارهم في الرحيل إلى الصالحية، فلم يوافقه أحد منهم. فقال في نفسه: إن خالفتُهم قتلوني. فلما كان نصف الليل رسم برمي الدهليز وركب طالب[1] الشامَ وقال: «أنا ألتقي التتر بنفسي وحدي». فلما رآى الأمراء الملكَ المظَفَّر قطُز قد رحل، رحلوا خلفه[2].

قال صاحب التاريخ: إن البحرية لم يزالوا معثَّرين، مشتَّتين، منفيين، هاربين، غير متفقين مّدة سبع سنين، وذلك أن الفرنسيس كان نزوله على دمياط لعشرين من شهر رمضان المعظّم سنة سبع وأربعين وستماية، وملك دمياط الثاني وعشرين من شهر صفر من هذه السنة، ومات الملك الصالح نجم الدين أيوب بثغر دمياط يوم الاثنين الرابع [٥٢ظ] وعشرين من شهر شعبان من هذه السنة. ومن/ هذا التاريخ لم تزل البحرية مختلفين إلى سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، رحمه الله وعفا عنه.

وفي هذه السنة مات القاضي الصدر الأجل الفاضل ابن النبيه. وكان قد أَسَنَّ، وكان له فضايل مشهورة وله ديوان مشهور. وكان قد امتدح الملك الناصر صاحب الشام، ومدح في فضايله[3]، وكثّر في محاسنه، وامتدح الإمام الناصر لدين الله الخليفة بهذه الأبيات[4]: [من البسيط]

باكِرْ صَبُوحَكَ أَهْنى العيش باكرهُ   فـقـد تـرنَّـمَ فـوقَ الأيْـكِ طـائـرُه
والليـلُ تَجْري الـديـاجي[5] في مَجَرَّتِه   كـالـرَّوض تَـطْـفُـو على نهرٍ أزاهـرُهُ

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: طالبًا.

(٢) قارن برواية السلوك ١/٤٢٩؛ وكنز الدرر ٨/٥٨.

(٣) في الأصل: فظايله

(٤) راجع الأبيات في الديوان ٦ حيث وردت القصيدة في ٤١ بيتًا؛ وفوات الوفيات ٣/٦٩–٧٠؛ والوافي بالوفيات ٢١/٤٤٠. والأبيات الواردة هنا هي: ١–٧، ٩، ١١، ١٤، ١٥، ١٧.

(٥) الديوان: الدراري.

وكوكبُ الصبح نَجَّابٌ على يده … مُخلّقٌ تملأ الدُّنيا بشائرُهُ
فانْهَضْ إلى ذوب ياقوتٍ لها حَبَبٌ … تنوب عن ثَغْرٍ من تَهْوَى جواهرُهُ
حمراءُ في وجنة الساقي لها شَبهٌ … فهل جناه مع العنقود عاصره؟
ساقٍ تكوَّن من صُبْحٍ ومن غَسقٍ … فابْيَضَّ خَدّاهُ واسْودّتْ غدائرُهُ
سُودٌ سَوالفه، لُعْسٌ مَراشفُهُ … خُرْسٌ أساورُهُ، نُعْسٌ نواظرُهُ[١]
تعلّمتْ بانةُ الوادي شمائلَهُ … وزوّرتْ سِحْرَ عَيْنَيْه جآذرُهُ
نبيُّ حُسْنٍ أظلَّته ذوائبهُ … وقام في فترة الأجفان ناظرهُ[٢]/ [٥٣و]
خُذ من زَمانِك ما أعطاك مُحْتَقرًا … عَظيمَ ذنب[٣] فإنّ اللهَ غافِره
فالعُمْر كالكأس تُسْتحْلى أوائلُهُ … لكنه ربما مُجَّتْ أواخرُهُ
وكيف يُخْذَلُ في يوم الوَغى ملك[٤] … والناصر ابن رسول الله ناصرُهُ

ثم دخلت سنة سِتّ وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها نزل هلاكوا على بغداد، وكان فتوح بغداد غُرّة هذه السنة في شهر الله المحرّم[٥]. وفيها كانت قتلة الملك المعزّ أيبك التركماني صاحب مصر.

ذِكْرُ ما جَرى من سوء الحال ببغداد

قال: ولما فتح هلاوون العجَم وزادها خرابًا على خرابها، كل هذا والأخبار ترد على

(١) في الديوان:
بيض سوالفه، لُعْسٌ مراشفه … نعس نواظره، خرس أساوره
(٢) في آخر الأبيات حدث خلط بين عجز البيت الرابع عشر وصدر البيت السادس عشر من رواية الديوان فجاء هكذا:
وأنت ناه لهذا الدهر آمرُهُ … واجْسُرْ على فُرَص اللذات محتقرًا
(٣) الديوان: عظيم ذنبك إن اللهَ غافره.
(٤) الديوان: فليس تُخذل في يوم الحساب فتًى.
(٥) بالهامش: وفي هذه السنة وهي السنة التي أخذت فيها بغداد قتل فيها من ملوك المسلمين أربعة عشر ملكًا، من جملتهم الخليفة. واستهلّت من أولها إلى آخرها فتن وحروب وبلاء في سائر أقطار الأرض بمصر والشام والعراق والعجم.

الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين، وهو يسوِّف ويقول: «لا يقدرون التتر أن يطأوا بساطي هذا». فلما وصلوا إلى إقليم توريز وهو قريب من بغداد – بينهما دون العشرة أيام – تيقَّن الخليفةُ أن التَتر قد وصلوا، فطلب الأمراء الذين عنده. وكان ببغداد سبع ملوكٍ لكلّ ملكٍ عشرة آلاف فارس، وحلقة الخليفة سبعون ألف[1]. فكان عسكر بغداد يومئذٍ مایة وأربعين ألف فارس. وكان أكبر ملوك بغداد [فتح الدين] ابن كُرّ وهم ابن كُرّ و[إقبال] الشرابي والدوادار[2] وابن المشطوب. ولما تيقن الخليفة أن التتر لا بدّ لهم من الشرق ومن بغداد، طلب الملوك الذين عنده وشاورهم فيما يفعله مع التتر. فقال ابن كُرّ: «يا مولانا – أيدك الله – كان هذا الحال يكون/ من مدة سنتين». [٥٣ظ]

وكان ابن كرّ يومئذٍ أكبر ملوك بغداد وأفرسهم. قال الخليفة: «ما الذي تأمرون به يا ملوك؟» وأشار إلى ابن كرّ. قال ابن كرّ: «يا مولانا – أيّدك الله – هذا العدو عدو ثقيل وملك كبير ومطاع في جيشه. وعندي من الرأي إنْ أمرني أمير المؤمنين – أيّده الله – أن أتكلّم [به][3] قلت». قال الخليفة: «قُلْ». قال ابن كرّ:

«الرأي – أيّد اللهُ مولانا – أنّ عندنا ببغداد خُدّام مولانا الخليفة وخُدام آبائه وأجداده ما ينيف عدتهم عن عشرين ألف خادم، وما منهم خادم إلّا وله من الخيول الأربع مائة والخمس مائة فرس وما يزيد عن ذلك. والرأي أن نأخذ خُيولَهم، وعند مولانا الخليفة العدد في الزردخانات كثير، والمملوك يجهّز اليوم وغدًا وبعده أربعين ألف كردي، ونخرج إلى هذا العدو المخذول بعد أن نعطي لكل كردي ألف درهم وفرس، ونضرب مع هذا العدو المخذول مصافًّا. فإن كانت لنا عَوّضنا الخُدّام خيولَهم وأموالهم، وإنْ كانت علينا فالتتر إذا ملكت البلاد فلا يتركون لا خادم ولا غيره».

قال صاحب التاريخ: وكان ذلك صَوابًا لو فعلوه. ولما سمع الخليفة مقالة ابن كرّ، أطرق زمانًا ورفع رأسه وقال: «يا فلكَ الدين، خُدّامنا وخُدّام آبائنا وأجدادنا نوجع قلوبهم في هذا الوقت».

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: ألفًا.

(٢) ورد في الحوادث الجامعة لابن الفُوَطي ٣٢٧: الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك؛ وفي الوافي بالوفيات ٤٧٥/٩ رقم ٤٤٣٢: أيبك الملك مجاهد الدين الدوادار مقدم جيوش العراق؛ وفي زبدة الفكرة لبيبرس الدوادار ٣٥–٤٠؛ والمنهل الصافي ١٢٧/٣ «أيبك بن عبد الله سيف الدين»؛ والشذرات ٢٧١/٥.

(٣) ما بين القوسين مأخوذ من تاريخ ابن الفرات مخطوطة الفاتيكان ١٩/٦ظ.

قال ابن كرّ: «والله يا مولانا، إن التترَ إنْ فتحوا البلاد لم يتركوا أحد(١)/ من [٥٤و] المسلمين ولا اليهود ولا النصارَى». قال الخليفة: «يا فلكَ الدين، انظر لنا رأي(٢) غيرَ هذا». قال ابن كرّ: «يا مولانا – أيّدكَ الله – إذا كان ولا بد من الموت فلا تجرّد الملوك أولًا فأولًا، فإنَّ كل ملكٍ مِنّا عِدَّة جيشه عشرة آلاف فارس، فإذا قَرُبَ من التتر، ويسمع عسكرُه أن التترَ في هذه الخلق العظيمة، وأن ملكَهم معهم، وأنَّ الجيشَ الذي للإسلام لم يكن خليفتهم معهم [خافوا](٣) فتقوَى التتر وتضعفُ الإسلام. فإن وقع ملتقا تلتقي المسلمين(٤) وهم خايفون. وإنْ تأخّروا فتصير كسرة، والمصلحة أن يركبَ مولانا الخليفة معنا، فإنكَ عندنا في هذا الوقت مقامَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ومحَلُّكَ بيننا كمحلّه بين صحابته، ولا يتفق لنا أن ننهزمَ عنكَ، والرأي أن تجمعَ العربانَ والتركمانَ ومن أطاعنا من ملوك الأكراد، وتخرج إلى هذا العدو المخذول، وأنت بيننا راكب بغلتك، وأول من يحمل بين يديك أنا وعسكري. إما أن نقتُلَ هلاوون أو نموت بين يديك كِرامًا».

قال: فلما سمع الخليفة هذا الكلام، أطرقَ إلى الأرض وقال: «يا فلكَ الدين، خُذْ معك ولدي». قال ابن كرّ: «وَلَدُكَ لا يسدّ مكانك». قال: «فأنت مكاني». قال ابن كرّ: «يا مولانا إنما أنا واحدٌ من جملة مماليكك وعبيدك [وهذا عدو ثقيل، وإذا كنتَ بيننا لا يمكننا أن نسلكَ لأعدائك](٥)». قال الخليفة: «فانظر رأي(٦) غير هذا». قال ابن كرّ: «والله يا مولانا الخليفة لم يبقَ عندي/ غير ما تلفظت به بين يديك». [٥٤ظ]

قال صاحب التاريخ: فبينا الخليفة والملوك(٧) في المشورة ويؤخروا يومهم إلى الثاني والثاني إلى الثالث، إذ ورد عليهم رسول هلاوون وهو يقول: «تجهّزوا لنا الضيافة». فوقع الخوفُ في بغداد والفزع، وكثرت الأراجيف، وانهزم الناسُ إلى الاقطار، وتفرّقت العوالم

---

(١) كذا في الاصل، وصوابها: أحدًا.
(٢) كذا في الأصل، وصوابها: رأيًا.
(٣) ما بين القوسين مأخوذ من تاريخ ابن الفرات، مخطوطة الفاتيكان ١٩١/٦و.
(٤) كذا في الأصل، وصوابها: المسلمون.
(٥) ما بين القوسين مأخوذ من تاريخ ابن الفرات، مخطوطة الفاتيكان ١٩١/٦ظ.
(٦) كذا في الأصل، وصوابه: رأيًا.
(٧) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل ومأخوذة من مخطوطة الفاتيكان.

والتجار، وضعفت قلوب الجند، وخاف الخليفة على نفسه، ورحلت فرقة من الخلق إلى الروم، وفرقة طالبة العراق عراق العرب، وتشتّت الناس في الامصار.

ذِكْرُ ما جَرى ببغداد من سوء الحال

قال: ولما نزل هلاوون ببغداد وملكها وأخذ الخليفة وفعل به ما فعل[1]، [و قال الأمير شهاب الدين قَرطاي العزي الخزنداري: لما لم يبق عند الخليفة عسكرا[2] ولا من يقاتل التتر، استشار مَنْ عنده، فاشاروا عليه أن يركبَ وصحبته الفقهاء والقراء، ومعهم الختمات على رؤوسهم ويلتقي هلاوون ويستعطفه. فركب ووصل إلى هلاوون، وهلاوون في خيمةٍ عظيمةٍ وبين يديه عُظماء التتر. فدخل الخليفة المستعصمُ بالله على هلاوون والفقهاء والقُراء بين يديه يقرأون القرآن. فقام هلاوون وأجلسَ الخليفة إلى جانبه على التخْت، ووقف ولده أبو بكر بين يديه حاجبًا له، وكان خد[3] المزاج (؟) صبيًّا، فجعل هلاوون يعاتب الخليفة ويقول له: «أما أنت ملك المسلمين، لِمَ لا ذببتَ عن رعيتك وعن دينكم؟» ومثل هذا وأشياء من هذه، فلم تحمل نفسُ ابن الخليفة المستعصم ذلك، وبصقَ في وجه هلاوون وقال: «أحسدك يا عدو الله، أتقابل أمير المؤمنين بهذا؟»[4] فغضب هلاوون، وأمر بهما فجُعِلا في جَولَقين وأوطئا بالأرجل حتى ماتا، رحمهما الله تعالى. وأمر أن يبذل السيف في بغداد أربعين يومًا، وقتل من قتل وسلم من سلم، وخرج الناس على وجوههم، وخرج الملوك كل منهم على وجهه هو ومن سلِم معه من جيشه، وخرج في جملة الملوك، فلك الدين ابن كُرّ وعمه ضياء الدين ابن كُرّ معه سالمًا وجميع عساكره معه سالمة[5].

فلما توجهوا من بغداد مسافة فرسخ أو دون ذلك، إذ نزل عم ابن كُرّ عن فرسه، وكان شيخًا كبيرًا قد أسنّ فوق المائة سنة أو يناسب هذا المقدار، ومسك لجامَ فرس ابن

---

(١) هذه الجملة التي ترد في مخطوطة جوته خلاصة النص الذي يرد في مخطوطة الفاتيكان لابن الفرات وهي زيادة من الناسخ وليست لقرطاي.

(٢) كذا في الأصل، وصوابه: عسكرٌ.

(٣) كذا في الأصل، وهو: حادّ.

(٤) ما بين القوسين مأخوذ من تاريخ ابن الفرات ١٩٧/٦و.

(٥) حول كائنة بغداد، يراجع تاريخ الاسلام للذهبي (٦٥١–٦٦٠) ٣٣.

أخيه وقال له: «يا فلكَ الدين إلى أين؟» قال ابن كُرّ: «يا عم إلى الله». قال له: «يا ابن أخي، ناكل/ بيت مال المسلمين سبعين ثمانين سنةً ونهرب في مثل هذا اليوم؟» قال فلك [٥٥و] الدين ابن كُرّ: «يا عم، فما الذي نصنع؟» قال: «نرجع إلى بغداد ونموت كِرامًا».

قال ابن كُرّ: «يا عم نحن نقدر نلقا هلاوون؟» قال: «لا، ولكن عسكرك معك سالمًا وأنا ومن معي في خلق كثير، وكل جندنا معظمهم معهم الطبل بازات، وتأخذ العشرة آلاف فارس الذي لك وتعبر إلى بغداد وتحط السيف في التتر الذين بها، وتقتلوا من تقدروا عليه، وأنا ومن معي نمسك لك رأس الجسر مقابل عساكر التتر، والدجلة تحوز[١] بين التتر الذين ببغداد وبين هلاوون. فإن رأينا هلاوون ركب بنفسه وركبت جيوشه نضرب لكم الطبل بازات[٢]، فاخرجوا لنا على حَمِيّة. فإن وقف هلاوون مقابلنا نلتطم معه ونموت كرامًا، وإن أفرج عنا فقد غزونا ونجحنا وسلمنا وغنمنا الأجر من الله تعالى ومن الناس». فرجع ابن كُرّ ومن معه من جيوشه إلى الجسر ببغداد، ووقف عمه بظاهر الجسر على الشاطئ، ومعه خمس مائة فارس بخمس ماية طبل باز.

قال صاحب التاريخ: أُحصيَ من قُتِلَ[٣] التتر ببغداد في رجعة ابن كُرّ فكان عِدّتهم نيِّفًا عن ثلاثين ألف[٤]. حتى أن معظمَ التتر الذين كانوا ينهبون ببغداد من سلَمَ منهم تخبّأ في البيوت، حتى أنَّ أحدَ التتر وجد شختورًا بساحل الدجلة، فركب فيه وعدّى إلى/ البر [٥٥ظ] الذي فيه هلاوون، وأخبره أن جميع التتر الذين ببغداد قتلهم ابن كُرّ ولم يسلم إلا أنا.

فركب هلاوون وقصد بغداد. فلما نظر عم ابن كُرّ إلى هلاوون، ركب ومعه السواد الأعظم، ضربوا الطبل بازات. فخرجت العساكر الإسلامية من بغداد وفلك الدين ابن كُرّ بينهم كالأسد الضاري. وقال بعضهم لبعض: «ما بقي لنا إلا الموت». واصطفوا أن يضربوا مصافًّا مع هلاوون.

قال صاحب التاريخ: إن هلاوون لما نظر إلى عسكر ابن كُرّ، وسمع ما فعلوه

---

(١) كذا في الأصل، ولا يستقيم بها المعنى، ولعلها: تحول.

(٢) من أنواع الطبول التي اشتهرت في الفترة المملوكية، راجع: بدائع الزهور لابن إياس ٢٢٦/١/١، ٤١٧/٤.

(٣) كذا في الأصل، ولا يستقيم السياق، ولعله: من قَتْلَى، أو: مَنْ قُتِلَ من.

(٤) ألفًا.

ببغداد رسم ألّا يضرب أحد معهم مصافًّا ولا يسلّ سيفًا، ولكن يفسحوا لهم طريق. ففتحت لهم التتر بابًا من بين العساكر الذين لهم، ولم يتعرض أحد من التتر لعساكر ابن كُرّ ولا لمن معه.

قال صاحب التاريخ: لما جَرى ببغداد ما ذكرناه وما اختصرنا أكثره، فإن فتح بغداد وما جرى على المسلمين بها لا تطيق النفوس حمله، ولا تقدر الناس على سماعه لقبح ما جرى من الخِذلان، وهذا أمر أراده الله تعالى، فلا رادّ لمشيئته[1]. ولما جَرى ما جَرى، وتجهّز هلاوون إلى الرحيل لفتح العراق وهو عراق العرب، إذ رأى على الجسر خلقًا عظيمًا لابسين بياضًا نيّفًا عن خمسة عشر ألف رجل أو يزيد عن ذلك، فقال لحاجبه: «امضِ وانظر من هؤلاء فهؤلاء لم يكونوا مقاتلين فإنهم/ لابسين البياض». [٥٦و]

فأتى الحاجب إلى أولئك الناس قال: «من تكونوا؟» قالوا: «نحن أهل بغداد وسُراتها ممن فَضُلَ من السيف من الفقهاء والفقراء والخوانق وبياض الناس». قال: «وما تريدون؟» قالوا: «نريد أن نلحق بأصحابنا وخليفتنا، ولا لنا حاجة في البقاء بعدهم». فأتى الحاجب إلى هلاوون وأخبره الخبر. فلما سمع هلاوون ما نقله الحاجب تبسّم وقال:

«امضِ إليهم واقرهم عنّي السلام وقل لهم أن القان – يعني بذلك الملك خليفتهم يعني شنكزخان – أنه لما أمر للتتر أن يتوجّهوا إلى البلاد ويفتحوها، سألناه أن يدع لنا[2]. فقال: اللهمّ لا يرميكم إلّا على من يستحق القَتْل. وأنتم لو استحقيتم القتلَ رماكم الله تعالى في أعيننا[3]. وأما الذين قتلوا مع الخليفة فإنهم كانوا مستحقّين أضعاف ما جَرى عليهم بما فعلوه، وبما قدّمت أيديهم، وقل لهم: امضوا إلى سبيلكم فالموت لا بد منه».

فرجع الحاجب إلى تلك الناس وقال لهم ما نقله هلاوون. قالوا: «لا سبيل إلى الحياة؟» فرجع الحاجب إلى هلاوون. قال هلاوون: «امضِ إليهم وقل لهم: اتقوا الله

---

(١) في هامش الصفحة وبخط مغاير: [من المتقارب]

دع الاعتراض فما الأمر لكْ ولا الحكم في حركات الفلكْ
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجّة بحرٍ هلكْ

سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: أن يدعوَ.

(٣) هكذا في الأصل، أما عند ابن الفرات، مخطوطة الفاتيكان: أيدينا.

تعالى في أنفسكم. فإنكم إن مِتُّم تموتوا غيرَ شهداء، فما لكم عندنا ذنب يستحق القتل». فرجع الحاجب إليهم وقال لهم: «يا سُراة بغداد، هلاوون يسلم عليكم». وأخبرهم بما قاله هلاوون. قالوا: «لا بد من الموت[1]»/ قال: فرسم هلاوون أن [٥٦ظ]
تضربَ عليهم حلقة، فقتلوا الجميع وماتوا شهداء، رحمهم الله ورضي عنهم.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستماية من الهجرة النبوية

فيها رحل هلاوون من بغداد قاصد[2] العراق بعد قتل الخليفة ووزيره ابن العلقمي.

وفيها نزلت التتر على ماردين[3] وحاصروها حصارًا شديدًا ولم يقدروا عليها، ورحلوا عنها. ونزلوا على ميافارقين[4] وحاصروها أشدّ حصار، وصبر أهلها على الحصار والغلاء والبلاء والموت، وصبروا صبرًا لم يصبره غيرهم حتى أكلوا نِعالَ الزرابيل[5] واكلوا الجلود الميتة[6].

وفيها مات السلطان شهاب الدين غازي ويلقّب الملك المسعود صاحب اخلاط[7].

---

(١) في هامش الصفحة: اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلّطْ علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، سبحانك وبحمدك، تباركت ربنا وتعاليت. مطلب غريب: اللهم يا لطيف، نسألك اللّطف في ما جرت به المقادير.

(٢) كذا في الأصل، وصوابها: قاصدًا.

(٣) بكسر الراء، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسَرودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) بفتح أوله وتشديد ثانيه، أشهر مدينة بديار بكر، من بناء أنوشروان بن قباذ وأبرويز. راجع: الحوادث الجامعة ٣٤٠؛ ونهاية الأرب ٢٧/٣٨٣؛ وذيل مرآة الزمان ١/٣٤٣؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ٦/١١٠؛ وتاريخ الزمان لابن العبري ٣١٤.

(٥) مفردها زُرْبول، اسم نوع من الأحذية المصنوعة من جلد المعز المدبوغ (سختيان) ذات نعل واحد لأن الإماء يتنعلنها، وعند العرب، حذاء مخصص للأرقاء، أو ما يحتقر من الأحذية. انظر: محيط المحيط، وتكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٦) نهاية الأرب: حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة.

(٧) بكسر أوله (خِلاط) وآخره طاء مهملة، بلدة عامرة مشهورة، ذات خيرات واسعة وثمار يانعة، وهي قصبة أرمينيا الوسطى.

وفيها هرب أهل العراق وطلبوا بلادَ الشام، وتفرّقوا في البلاد والضِّياع، ووصل بعضهم إلى الديار المصرية، وذلك لمّا ورد لهم من سوء الأخبار، وما جَرى على أهل بغداد من سوء الحال وسفك الدماء وخراب الديار.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستماية من الهجرة النبوية

وليس للمسلمين خليفة، والتتر قد ملكوا البلاد.

وفيها سيّر هلاوون رُسلَه إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهم زيرك بهادر وبيدرا ومعهم أربع مخالي، في كل مخلاةٍ رأس من رؤوس ملوك بغداد، وهو يقول لصاحب الموصل:(١) /«أنت مشغول بالأكل والشرب، خذ هذه الفاكهة في [٥٧و] مجلسك». فلما وقف بدر الدين لؤلؤ على كتاب هلاوون، أكرم الرسل الذين وصلوا من جهة هلاوون إكرامًا عظيمًا، وأعطاهم الاموال والقِماش والتحَف، وقال لهم: «ما الذي يأمر القان به؟» قال: «تفتح لنا ثغرةً من السور». ففتح لهم صاحب الموصل إحدى عشر(٢) ثغرة بداير الموصل، وقال لهم: «البلاد بلاد القان وأنا مملوكه». وركب صحبتهم وتوجه إلى هلاوون، وصار عنده أعزّ الناس، وصار يجلس معه ونديمه في المشروب. وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب عَقْل ومَكْر ودهاءٍ وخدعة وسياسة.

وفي هذه السنة كانت التتر مالكي(٣) الشرق إلى حدود الفراة.

ثم استهلت هذه السنة، يعني سنة ثمان وخمسين وستماية وسلطان حلب ودمشق الملك الناصر ابن الملك العزيز، وصاحب مصر الملك المظفّر قطُز، والبحرية على ما هم عليه من الاختلاف وسوء التدبير في بعضهم بعض.

وفي هذه السنة كتب هلاوون كتابًا إلى الملك الناصر صاحب حلب يخبره بالقدوم عليه.

---

(١) في هامش الصفحة وبخط مغاير: قال الجعفي: [من الخفيف]

عش عزيزًا أو مت وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنودِ

راجع: شرح ديوان المتنبي للعكبري ٣٢١/١ البيت ٢٦ من القصيدة الدالية البالغة ٣٦ بيتًا.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: إحدى عشرة ثغرة...

(٣) كذا في الأصل.

ذِكْرُ مراسلة هلاوون

«الذي يعلم به الملكُ الناصرُ صاحب حلب أنّا نحن قد فتحنا بغداد(١) بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سُكّانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: [قَالَتْ](٢) ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً/(٣) أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً [٥٧ظ] وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤). واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلماتٍ فكذب، فواقعه الندَم واستوجب منا العدَم. وكان قد جمع ذخائر(٥) نفيسة، وكانت نفسه خسيسة. فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال. وكان قد نمى ذكره وعَظُم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال». ثم أنشأ في آخر كتابه يتمثل بهذه الأبيات، شعر: [من المتقارب]

إذا تَـمَّ أمْـرٌ بـدى(٦) نـقـصُـه   تـوقّـا(٧) زوالاً إذا قـيـل تَـمّ
إذا كـنـتَ في نـعـمـةٍ فـارعَـهـا   إنّ المـعـاصِي تُـزيـلُ الـنِـعَـمْ
وكَـم مـن فـتًـى بـات في نِـعـمـةٍ   فَـلَمْ يَـدْرِ بـالموت حَـتَّـى هَـجَـمْ

«إذا وقفت على كتابي هذا فسارعْ بأموالك ورجالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهِ شاه روازمين(٨)» – وهذه لفظة عجمية يعني بذلك ملك الأرض بأسرها – «تأمن شَرّه وتنال(٩) خيره، كما قال الله – تبارك وتعالى – في كتابه العزيز: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ

---

(١) ترد هذه المراسلة أيضًا في التاريخ لابن الفرات، مخطوطة الفاتيكان ٦/٢١٨.
(٢) ما بين القوسين مأخوذ من ابن الفرات، ولوضع الآية الكريمة في صياغتها السليمة. وفي السلوك ١/٤١٥. وهما أخذاها من قرطاي؛ وقد حملها الملك العزيز ابن الملك الناصر من عند هولاكو.
(٣) في الهامش وبخط مغاير: الحمد لله، ما شاء الله كان، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله. صدق الله العظيم.
(٤) سورة النمل ٢٧/٣٤.
(٥) في الأصل: ذخايرًا، وأيضًا عند ابن الفرات ٦/٢١٨و هكذا.
(٦) السلوك ١/٤١٥: دنا؛ وأيضًا عند ابن الفرات ٦/٢١٨و.
(٧) السلوك: توقّ.
(٨) انظر: ابن الفرات ٦/٢١٨: روازمين؛ والسلوك ١/٤١٦: رُوي زَمين.
(٩) السلوك: تَنَلْ.

الأوفى﴾(١). ولا تعوّقْ رسُلَنا هؤلاء(٢) عندك، كما عوّقت رسُلَنا من قبل، فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ. وقد بلغنا أنّ تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وأولادهم [٥٨و] وحريمهم إلى كروان سراي»/، يعني بذلك فندق، يعني(٣) الديار المصريّة. [فإن الديار المصرية عند التتر مثلُها كمثل فندق، إذا عُبِرَ من مكانٍ لا يُخرج إلّا منه، وذلك لضيق الملك].(٤) فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن نزلوا الأرض خَسفناها». ثم أنشأ يتمثّل في آخر كتابه بهذين البيتين(٥)، شعر: [من الكامل]

أيْنَ النجاةُ ولا مَناصَ لهاربٍ — وَلَى البَسيطانِ الثَّرَى والماءُ
ذَلّت لهيبتنا الأُسودُ وأصبحتْ — في قبضتي الأمراءُ والخلفاءُ(٦)

وفي هذه السنة كانت الأمراء البحرية محبوسين في القلعة الشّهباء اليمانية بحلب في حبس الملك الناصر، وهم الذين مسكهم الملكُ المغيثُ صاحب الكرك وسيَّرهم إلى الملك الناصر. ولم يسْلَمْ منهم غير بيبرس البندُقداري، وكانت سلامتُه عجيبةً. وسبب ذلك أنه طلع معهم إلى خدمة الملك المغيث. فرأى نفسَه غيرَ مقبلةٍ على الطُّلوع إلى القلعة فرجع، فلم يصلْ إلى وِطاقه إلّا وبلغه أنهم مسَكوا سُنْقُر الأشقر ومن معه. فركب من فوره هاربًا، ونزل ببركة زيزه. وسيّر من جهته رسولًا إلى الملك الناصر يسَلُه أن يكونَ من جملة مماليكه. وكان حامل هذه الرسالة البهاء أمير آخور. فرسم له الملك الناصر بذلك. فلما قَدِمَ عليه بيبرس البندُقداري، تلقّاه الملكُ الناصر ملتقًا حسنًا، وأكرمه، وأعطاه ماية فارس، وأقطعه الرِّباع والبلادَ.

وفي هذه السنة كثرت الأراجيف بدمشق وحلب وحماة وحمص والسواحل، [٥٨ظ] وقويت كلمة/ الفرنج بالسواحل، وصار لهم كلام كثير ومراسلات مع التتر.

(١) سورة النجم ٣٩–٤١.
(٢) سقطت هذه الكلمة في السلوك.
(٣) بدلًا من «يعني» نقرأ في ابن الفرات: يقصد بهذا القول.
(٤) ما بين القوسين مأخوذ من تاريخ ابن الفرات ٢١٨/٦و.
(٥) في ابن الفرات: بهذه الأبيات.
(٦) انظر: السلوك للمقريزي ٤١٦/١: الوزراء؛ وأيضًا عند ابن الفرات ٢١٨/٦و.

ووصلت الأخبار إلى دمشق أنّ التتَر قد عَدَّت الفُراة وغاروا على بعض قرى حلب، وأخذوا منها خلق كثير[١].

وفي هذه السنة مات السلطان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، رحمه الله[٢].

وفي هذه السنة – كما ذكرنا سنة ثمان وخمسين وستماية – وليس للمسلمين خليفة، والشام وأعماله بيد الملك الناصر صاحب حلب، والملك المظفّر قطز[٣] والبحرية على ما هم عليه من الاختلاف مع الملك الناصر والبُغْضَة. وصاحب الموصل السلطان الملك الصالح اسمعيل ابن بدر الدين لؤلؤ[٤]، وساير الملوك الإسلامية بأقاليمهم على ما هم عليه غير الخليفة. والعَجم وبغداد والعراق وديار بكر تحت حكم التتر. والموصل وماردين وحرّان والرّها وسَروج وسِنْجار تحت حكم التتر.

وفي هذه السنة نزل هلاوون على حلب وسَيّر رسله إلى صاحب ماردين أن: «تحضر إلينا». فخاف صاحب ماردين على نفسه، وسَيّر ولده مكانه واعتذر بمرضه، ولم يكن مريضًا. ولما نزل هلاوون على حلب وحاصرها، أقام على محاصرتها سبعة أيام، وملكها وبذل فيها السيف، وقتل معظم أهلها. ثم بعد سبعة/ أيام أُخَر ملكَ قلعتَها، وهي القلعة الشهباء تعرف اليمانية، وأنزل مَن [٥٩و]
كان فيها مِن حُرَم المسلمين، وحُرَم صاحب حلب، وحَريم صاحب ميّافارقين وبنات الملك الناصر، وبنات الملوك الذين أرادوا أن يحتموا بالقلعة؛ وأراد هلاوون أن يوقفهم في موقف السبي مثل الجوار[٥]. كل هذا ورسول صاحب ماردين واقف بين يديه، ورسل الملوك الإسلامية وقوف بين يديه ينظرون ما يجري، وما ينقلوه لملوكهم.

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: خلقًا كثيرًا.
(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤/٤٠٧ رقم ٤٧٩.
(٣) ترجمته في الوافي ٢٤/٢٥١ رقم ٢٦٦؛ والسلوك ١/٤١٧.
(٤) ترجمته في الوافي ٩/١٩٣ رقم ٤٠٩٩.
(٥) كذا في الأصل، وهي الجواري.

وكان قصد هلاوون أن يخوّف رسُلَ الملوك الوقوف بين يديه. ثم التفت هلاوون إلى الرسُل وقال: «كيف رأيتم صُنْعَ الله بمن عصَى على مثلي؟ والله لو كان للملك الناصر قدرة بي ما انهزم بين يديّ، ولا تركَ بناتِه وحريمَه خلفه».

ولما بلغ الملك الناصر ما جَرى في حلب، وَلَّى هاربًا من دمشق، وقصد الدخول إلى الديار المصرية، وذلك خوف[1] من هلاوون. ففكر في نفسه وقال: إن البحرية وصاحب مصر أعدائي، فإذا رحلت إليهم واستجَرت بهم لا بد لي من أحد القسمين: إمّا أن يقتلوني أو يسيّروني إلى هلاوون. فرجع من غزَة هاربًا، وطلب البرّية، وأقام بالأغوار. وخرج من الأغوار وطلب قريةً تُعْرف حُسْبان. ثم منها إلى بركة زيزة.

وفيها مرض الملك السعيدُ صاحب ماردين مرضًا شديدًا وأشرف/ على الموت. ثم نقهَ من عِلّته. [٥٩ظ]

وفيها أخرج هلاوون من كان بقلعة حلب محبوسًا في حبس الملك الناصر من البحرية، وهم تسعة أنفس، وقيل سبعة وهم: سنقر الأشقر، وسيف الدين سُكز، وسيف الدين برامق، وبدر الدين بكمش المسعودي، ولاجين الجمدار الصالحي، وكندغدي الصغير. ولما استصحبهم هلاوون، أقبل عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال والتُحَف، وأقاموا عنده ببلاد الشرق وبغداد والعجم[2].

وفي هذه السنة اجتمع الصارم أُزبك مملوك الملك الأشرف صاحب حمص بهلاوون على حلب، وجَرى له معه أمور عظيمة وأقاويل كثيرة لم تجر لغيره، وصار عند هلاوون أعزّ الناس[3]. [٥٩و]

وفي هذه السنة كتب هلاوون كتابًا إلى الملك المظفّر قطُز صاحب الديار المصرية والأمراء البحرية، وهو يخبرهم بالقدوم عليهم.

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: خوفًا.

(٢) عن اجتياح التتر لحلب، يمكن مراجعة تاريخ الاسلام للذهبي (٦٥١–٦٦٠) ٤٦–٥٠؛ والسلوك للمقريزي ٤٢٢/١.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٦٦/٨ رقم ٣٧٩٨.

ذِكْرُ مراسلة هلاوون لصاحب مصر وملوك الترك البحرية[١]

«الذي يعلم به الملك المظفّر قطز والأمراء البحرية الصالحية والأمراء والأجناد وأكابر البلاد. أنّا نحن جُندُ الله في أرضه، خلقنا من سَخطه، وسلّطنا على من حلّ به غَضبُه. فلكم بجميع البلاد معتَبر، وعن عزمنا مُزدَجر. فاتّعظوا/ بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم، [٦٠و] قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخِطاء. فنحن ما نرحم من بكا[٢]، ولا نرقُّ لمن شكى[٢]. فقد فتحنا البلادَ وطهّرنا الأرضَ من الفساد، وقتلنا معظمَ العباد. فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلَب. فأيّ أرضٍ تاويكم؟[٣] وأيُّ طريقٍ تنجيكم؟ وأيُّ بلادٍ تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابنا[٤] من مناص. فخيولنا سَوابق، وسِهامنا خَوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددُنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاكم[٥] علينا لا يُسمع.

فإنكم أكلتم الحَرام، ولا تقفوا[٦] عند كلام. وختنتُم العهودَ والأيمان، وفَشا فيكمُ العُقوقُ والعِصيان. فابشِروا بالمذلّة والهَوان ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[٧] ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٨]. وقد ثبت عندكم أن نحن الكَفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجَرة، وقد سلّطَنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبَّرة. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزُكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة[٩] ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تُطيلوا الخطاب، وأسرعوا بردّ الجواب، قبل أنْ تُضرِمَ الحربُ نارَها، وترمي [نحوكم][١٠] شَرارها. فلا

---

(١) راجع هذه المراسلة في: كنز الدرر لابن الدواداري ٨/٤٧–٤٨؛ وتاريخ ابن الفرات ٦/٢٤٣ظ؛ وقارنه بالنص الذي أورده المقريزي في السلوك ١/٤٢٧–٤٢٩، مع اختلافات.

(٢) كذا في الأصل، وهي: بكى، شكا.

(٣) كذا في الأصل، وهي تؤويكم.

(٤) السلوك: مهابتنا.

(٥) كذا في الأصل، وفي السلوك: دعاؤكم.

(٦) كذا في الأصل، وفي السلوك: ولا تعفُون

(٧) سورة الاحقاف ٤٦/٢٠.

(٨) سورة الشعراء ٢٦/٢٧٧.

(٩) كذا في الأصل وفي السلوك.

(١٠) الزيادة من السلوك.

[٦٠ظ] تجدون مِنّا جاهًا ولا عزًا، ولا كافٍ ولا حرزًا[١]/ وتُدهَون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذْ راسلناكم، والسلام[٢]».

ثم أنشأ في آخر كتابه يتمثل بهذين البيتين، شعر: [من الطويل]

ألا قُلْ لمصرٍ ها هلاوون قد أتى ... بحدٍّ سيوف تُنتضا[٣] وبواتِرِ
تصيرُ أعِزا[٤] القوم منها[٥] أذِلّةً ... ونُلحقُ أطفالًا لهم بالأكابرِ

ولما وصلت هذه الرسالة إلى الملك المظفّر قطُز صاحب الديار المصرية، جمع الأمراء البحرية الصالحية واستشارهم فيما يفعلون مع التتر. فاتفق الحال على أن يضربوا أعناقَ الجميع، فضربوا رِقابَ الجميع، وعلّقوا روسهم[٦] على باب زويلة. وهذه الروس أول روس علقت على باب زويلة من روس[١] التتر[٧]. ونادوا بين القصرين: «يا معاشر المسلمين، الجهاد في سبيل الله تعالى».

فاجتمع العساكر، وجاء العربان من البلاد والتركمان والأكراد من كل أرض. وجاء من سلم من سيوف التتر من بلاد الشرق، واجتمع الناسُ وخرجوا طالبين الجهاد في سبيل الله تعالى قاصدين الشام. كل هذا والصارم أزبَك مملوك الملك الأشرف في خدمة هلاوون، وهو عنده أعز الناس[٨]. وصار يشفع عند هلاوون في ملوك المسلمين، ويجلس مع هلاوون في مجلسه من جملة ندمائه[٩].

---

(١) السلوك: ولا كافيًا ولا حرازًا.
(٢) وتكملة الرسالة في السلوك: وأيقظناكم إذْ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى مَنْ أطاع الهُدَى، وخشي عواقب الردَى، وأطاع الملكَ الأعلى.
(٣) عند المقريزي ١/٤٢٨: تنتضى؛ وكنز الدرر لابن الدواداري ٨/٤٨: تمتضى.
(٤) انظر: كنز الدرر ٨/٤٨: يصير عزيز القوم فيها.
(٥) انظر: كنز الدرر ٨/٤٨: فيها.
(٦) كذا في الأصل، وهي: رؤوسهم، الرؤوس، رؤوس…
(٧) اختلفت الروايات في عددهم، فمنهم من جعلهم نيفًا وأربعين (كنز الدرر ٨/٤٨)، ومنهم من جعلهم أربعة كالمقريزي في السلوك ١/٤٢٩، وهو الأدنى إلى الصواب حسب سياق الرواية.
(٨) راجع ترجمة صارم الدين أزبك في: المقفى الكبير للمقريزي ٢/٣٣ رقم ٧٠٦؛ والنجوم الزاهرة ٩/٣١٣؛ والمنهل الصافي ٢/٣٤١ رقم ٣٨٨؛ والدرر الكامنة ١/٣٧٧ رقم ٨٨٠.
(٩) قارن برواية المقريزي في: السلوك ١/٤٢٩؛ وكنز الدرر ٨/٤٨.

ذِكْرُ ما جَرى للصارم أُزبَك مملوك/ الملك الأشرف مع هلاوون [٦١و]

قال الصارم أُزبك:[١] لما نزل هلاوون على حلب، كنت غايبًا عنها، فتخبّأت في مغارةٍ من جملة مغاير حلب مدّة ثلاثة أيام وأنا أسمع حِسَّ حوافر الخيل فوق رأسي. فلما انقطع الحِسُّ، طلعت من المغارة، فوجدت على بابها رجلًا من التتر ميتًا. فلبست قماشه وتزيات[٢] بزي التتر وقصدت دهليز هلاوون.

قال الصارم أُزبك: من جملة عَدْل التتر أنهم إذا نزلوا بأرضٍ نصبوا قريبًا من الدهليز الذي للملك صاريًا، وفي رأس الصاري صُندوقًا صغيرًا معلّقًا بالحبال، وعند الصّاري من يحرسه، جماعة من أكبر أُمناء التتر. فإذا كان لرجلٍ شكوًى أو ظلامة، يكتب ظُلامتَه في قصة ويختمها ويضعها في ذلك الصندوق. فإذا كان يوم الجمعة، يطلب الملك الصندوق إلى بين يديه، ويفتحه بمفتاح من عنده، ويكشف ظُلامات الناس.

قال الصارم أُزبك: فكتبت قصةً «شرحها المملوك الصارم» ولم أَقُل أُزبك، وخِفتُ أن أكتب في قصتي أُزبك، فلا ينادوني التتر يومئذ: يا صارم، بل ينادوني يا أُزبك.

قال الصارم: فكتبتُ في القصة: المملوكُ الصارم، مملوك الملك الأشرف صاحب حمص، يقبّل الأرض ويسأل الحضور بين يدي القان. فلما طلبني وحضرت بين يديه، رأيت ملكًا جليلَ القَدْر عظيم الشان،/ كثير الحرمة، قصير القامة، أُقنصَ إلى الغاية، كبيرَ الوجه، جهر[٣] الصوت، جفون عينيه على وجهه، والخواتين جالسات إلى جانبه، والستّ طُقُز خاتون عن شماله. [٦١ظ]

قال الصارم أُزبك: لما وقفت بين يدي هلاوون، تحدّث معي من حجّاب أربعة، وقال لي في جملة كلامه: «أنت مملوك الملك الأشرف صاحب حمص بهادر المسلمين، يعني فارس المسلمين؟» قلت: «نعم». قال الصارم: وجعل يحدثني من حاجب إلى حاجب، والحاجب الرابع يتحدث معي بلسان التركية. قال الصارم أُزبك: لما رآني

---

(١) يوجد النص التالي أيضًا: في تاريخ ابن الفرات ج٦، مخطوطة Codex Vat. ar. 726 ويبتدئ كما يلي: [٢٢٧آ] وقال الأمير شهاب الدين قرطاي العزي الخزنداري في تاريخه ما صيغته. قال الصارم أُزبك: حقق Levi della Vida هذا النص لأول مرّة في مجلة Orientalia IV 1935 ٣٥٨/٣٦٦ وترجمه إلى اللغة الايطالية.

(٢) كذا في الأصل وهي: تزيت.

(٣) كذا في الأصل، وهي جهير.

هلاوون فصيح اللسان، قوي الجَنان، سريع الجواب، قرّبني إليه وأمر ألّا يكون بيني وبينه غير حاجبٍ واحد. ثم قال لي: «تشرب الخمر»؟» قلت: «نعم». قال الصارم: فأمر لي هلاوون بهنابٍ[1] مملوءٍ خمرًا، وأشار إلى الحاجب فناولني. قال الصارم: فقبّلت الأرض ورقصت وكَشلت وعملت أشياء كان تعملها الحُرفا بين يدي ملوك الإسلام لمّا كانت البلاد لهم.

قال الصارم: فأعجب ذلك الخواتين وانشرحنَ وتبسّمن. وأما هلاوون فإنه لم يرفع رأسه من الأرض. ثم أمر لي هلاوون بالجلوس فجلست، وبالشرب فشربت، وبالأكل فأكلت، وأيَّ أمرٍ أشار به امتثلت. فأمر لي هلاوون بالجلوس فوق ندمائه في أعزّ مكان [٦٢و] وأعلاهم مرتبةً، وصار لا يأكل إلّا وأنا حاضر ولا يشرب إلّا وأنا/ حاضر، وإنْ نام هلاوون طلبتني الستّ طقُز خاتون زوجته. قال الصارم أُزبك: فأقمت على تلك الحالة أول ليلةٍ وثاني ليلةٍ وثالث ليلةٍ، ونحن نحاصر حلب. قال الصارم أُزبك: سألني هلاوون عن أمرٍ من الأمور، فجاوبته جوابًا كذبًا وددت لو ابتلعتني الأرض ولم أنطق به. قال: سألني على لسان حاجبه: «في كم قَدْر ما نملك هذه البلد، يعني حلب؟» قلت: «في عشر سنين». قال الصارم: فأطرق هلاوون برأسه إلى الأرض غضبًا مني، وقال لحاجبه: «اسله في كم مقدار ما نملك هذه القلعة، يعني قلعة حلب؟» قلت: «في ثلاثين سنة».

قال الصارم: وقصدت في كلامي أن هلاوون إذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب. قال الصارم: فتبسّم هلاوون وقال لحاجبه: «لولا سابق خدمته لي لضربت عنقه، أما يستحي من هذا الكلام؟ يكون هذا هِمّة ملوكهم، يعني ملوك المسلمين المختلفة آرائهم، المشتغلين ببعضهم بعض».

قال الصارم: كل هذا بلسان التتر، وأنا لم أعلم ما يقول. قال الصارم: فسكتُّ وندمتُ على جوابي له، وذلك لما رأيت من الغيظ الذي تبيّن في وجهه. قال الصارم: فلم يفرغ هلاوون من كلامه إلا وقد دخل عليه رجل من التتر وفي يده رأس مقطوعة من روس بني آدم معلّقة بشعره، وهي مخضبة بالدم، فرماها بين يدي هلاوون وتحدث معه [٦٢ظ] بلسان التتر./ ثم أخذ الرأس وخرج.

قال الصارم: فالتفت الحاجب نحوي وقال لي: «يا صارم، تعرف ما هذا الرأس وما

---

(١) وعاء أو كوب خاص للشراب، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

هذا الرجل؟» قلت: «لا». قال: «هذا أكبر مقدمي التتر، وإنه كان في نقب من بعض النقوبات التي تحت القلعة، وإنه خرج يزيل الحقنة وترك ولده مكانه. فخاسفهم(١) الحلبيون، وهجموا عليهم في النقب، فهرب ولده وهرب معه جماعة من التتر. فبلغ أباه ذلك، فعبر النقب وقطع رأس ولده بيده وجاء بها إلى القان». قال الصارم: فعند ذلك علمت أن التتر لا بد لهم من حلب، وأن نساءنا وبناتنا ومن يلينا في أيدي التتر، وهذا أمر أراده الله تعالى، فلا رادّ لمشيئته.

قال الصارم: كنتُ ليلةً عند هلاوون ونحن نشرب، إذْ ورد عليه جماعة من مقدمي التتر ومعهم أصناف كثيرة، من جملتها زبيب، وحب قطن، وقمح، ونجارة خشب، وفحم، وخرّوب. قال الصارم: فجعل هلاوون ينظر إليّ ويبتسم، ولم أدرِ ما في نفسه. ثم أمر لنا أن نشرب بالأقداح الكبار والزبادي. قال الصارم: فلما خرجت أقضي شغلًا، لحقني الحاجب وكان يحبني وأحبه محبةً عظيمةً وقال: «يا صارم أتدري ما هذا الذي جاء به المقدّمون؟» قلت: «لا والله». قال: «إنهم قد وصلوا في النقب تحت القلعة إلى أن/ وصلوا إلى هذا الذي رأيته. ثم إن هلاوون سال المقدّمين: كم يسع [٦٣و] النقب. قالوا: يسع ستة آلاف رجل. قال: أوسعوه حتى يسع عشرة آلاف، وأن غدًا بعد الظهر تأخذ التتر قلعة حلب، وتصبح بناتكم ونساكم(٢) وبنات الملوك الذين تحصّنوا بهذه القلعة جوارًا(١) لهذه الست طقز خاتون، ويوقفهن هلاوون في موقف السَّبْي. فانظر يا صارم الدين ماذا تفعل».

قال الصارم: والله نحلف به، لما سمعت هذا الكلام، صحَوت من السُكْر، ودخلت المجلسَ وجلست بين يدي هلاوون وقلت بطريق المصخركية(٣): «واللهِ إنّ ملوكَ التتر مثل الحمير». قال الصارم: فنظرت طقز خاتون نحوي وهي تتبسّم وقالت: «كيف هذا يا صارم؟» قلت: «إنّ ملوكَ المسلمين كانوا إذا شربوا الخمرَ يكون نُقْلُهم الفستق، وشراب الحماض، وأقراص الليمون في الزبادي الصيني، وقماقم الماورد، والريحان، و البنفسج، والآس، والمنثور، والنرجس، وما يناسب هذه الأشياء

---

(١) ضايقهم وأنكى بهم.

(٢) كذا في الأصل، وهي: نساؤكم، جواريَ.

(٣) تعبير شائع في تلك الحقبة، من المسخرة، أي ما يُسْخَرُ منه.

العظيمة، وأنتم التتر تشربوا[١] الخمورَ على الفَحْم وحبَّ القطن والزبيب ونجارة الخشب، وهذه الأشياء القبيحة».

قال: فتبسّم هلاوون وضحكت الخواتين. قال الصارم: ثم سبقت مني كلمة كان [٦٣ظ] جزائي فيها أن تضربَ عُنقي، فقلت: «أنا أعلم من أين جاؤا[٢] هؤلاء/ المقدمون بهذه الأصناف». قال: فغضب هلاوون وقال: «من أين تعلم هذا؟» قال الصارم: فقبّلت الأرض وقلت: « – يحفظ الله القان، وحق رأس الملك – أنا ادّخرت هذه الذخاير جميعَها بيدي في هذه القلعة، خوفًا من التتر واعتدادًا للحصار».

قال: فسكن هلاوون من غيظه، وكان قد اعتقد في نفسه أنَّ حاجبه أوحَى إليَّ بشيء من هذا الكلام، وكان الأمر كذلك. قال الصارم أُزبك: فقمت قايمًا وقبّلت الأرض وقلت: « – يحفظ الله القان – إن الملكَ – نصرَه الله – حُرْمتُه عظيمة، ومملكته واسعة، والملوك تخشاه وتخافه، ولا يقدر أحد منهم أن يقفَ بين يديك، والله والله يا [٦٣و] خوند وهم يَودّون أن يكونوا واقفين بين يديك مثل مماليكك هؤلاء الوقوف، ولكن يخافون من سطوتك».

قال: فأعجب هلاوون كلامي وقال لي: «يا صارم». قلت: «لبيك». قال: «تقدر أن تأتيني بأستاذك صاحب حمص؟» قلت: «نعم». قال: «اركب وأْتني به». قلت: «بعد يومين؟» قال: «نعم». قال الصارم: فأمر لي هلاوون بالخَيل وقال: «اركب ولا تقعد». قلت: «بشرط». قال: «وما هو الشرط؟» قلت: «لا تفتح هذه القلعة إلى أن يحضر الملك الأشرف بين يدي القان». قال «نعم».

[٦٤و] قال[٣] [الصارم][٤]:/ فركبت وأخذت/[٥] [معي عشرة أكاديش، وعلّقت في
[٢٢٩ظ] عنقي الطمغة، يعني لوح البريد، وسقت ووصلت إلى غَزَّة. فبلغني أن الملوك هاربين في البرية مشتّتين محيّرين معثّرين. وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلتي عند هلاوون، فسقتُ

---

(١) صوابها: تشربون.

(٢) كذا في الأصل، وصوابها: جاء.

(٣) الصفحتان التاليتان بخط مختلف.

(٤) أسقطها الناسخ سهوًا بسبب إضافة الصفحتين التاليتين، في حين لا تزال مثبتة أسفل الصفحة السابقة ٦٤و من المخطوط.

(٥) في ما يلي بين الحاصرتين تتمة النص الذي نقله ابن الفرات والذي سقطت صفحاته من مخطوطة Gotha.

ولحقت الملوكَ على منزلةٍ تعرف ببركة زيزة. فلما رأتني الملوك، نزلوا عن خيولهم وقبّلوا يدي كما كنت أُقبّل أيديهم، وقَبّل الملك الأشرف أستاذي يدي. فعَظُمَ ذلك عليَّ واستحييت من أستاذي ومن الملك الناصر. ثم قلت للملك الأشرف: «القان يطلبك. فخاف، فقلت: «ممن تخاف؟» قال: «من القان». قلت[1]: «الضمان عليَّ. تعود ملكًا جليلًا على ما في نفسك، ولا يصل إليك مكروه». قال الصارم: فالتفت الملك الناصر نحوي وقال: «وأنا يا صارم الدين؟» قلت: «ما لي معك كلام». فبكى الملك الناصر.

ولما أخذت الملك الأشرف ومضيت إلى هلاوون، وحضر بين يديه، رسم له بشقةٍ ينزل فيها، وخروفٍ وقِدْرٍ، وحَطبٍ. والله إن الشقَّة الذي ضربها هلاوون للملك الأشرف لم يرضى الكلاب تنزل فيها، والخروف لم يرضى الذيب يأكله، والحطب لم يرضى المشاعلي يقِدُه في مشعله[2]. وهكذا عيش التتر دايمًا.

قال: فتركتُ الملك الأشرف في الشقّة ومضيتُ إلى خدمة هلاوون. فأجلسني على جاري عادتي، وأمرني أن آكل، فأكلت، وأمرني أن أشرب فشربت. وسألني عن أحوال الملوك وما هم فيه وكيف تركتهم. قلت: «في أنحس الأحوال، هاربين مشتّتين معثّرين محرحرين/ [٢٣٠و] محيّرين في البراري، لا يستلذوا بالنوم خوفًا من حُرْمة القان».

قال الصارم: فأعجب هلاوون كلامي وقال: «كيف تركتَ أستاذك يا صارم؟» قلت: «ما لي أستاذ إلّا القان». قال: لا إلّا أستاذك الملك الأشرف؟» قلت: «ما أعلم شيء من حاله». قال: «كيف تركته وحده؟» قلت: «ما أفارق وجه القان، نصره الله». فأطرق هلاوون برأسه زمانًا وقال: «لا تَقُلْ هذا يا صارم، بل امضِ إلى أستاذك، وانظر أيَّ حالٍ هو عليه».

فأتيت إلى الملك الأشرف، فرأيته ويده تحت خده وهو حزين، والخروف مربوط بحبل، والحطب ملقا على الأرض. فقلت: «ما بالك يا خَوند؟» فقال: «ألّا ترى هذا الحال يا صارم الدين؟» وبكى. قلت: «لا تبكِ يا خَوند والله والله هذا عيش التتر دايمًا، وهذا حالُهم. و الله يا خَوند ما فعلوا هذا استقلالًا بك، ولكن هذا خيار عيشة

(١) في الأصل: قال.
(٢) كذا ورد النص في الأصل.

التتر». قال الصارم: فتبسّم الملك الأشرف وقال: «هكذا تكون[١] الملوكُ، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البلاد؟»

وبينا أنا أتحدث مع الملك الأشرف وأُوَطّي أخلاقه، إذْ وردَ مرسوم هلاوون بحضوره بين يديه. فوالله لقد رأيت الملك الأشرف تغيّر لونه، وما رأيتُ الملك الأشرف تغيّر لونه قبلها. ولقد كسرَ الملكُ الأشرف الخوارزميّة وهم سِتّة آلاف وهو في ألف وخمسماية فارس، ولم يتغير لونه. ولقد كسرَ التتار في وقت وكان التتر في ألفين وخمسماية فارس والملك الأشرف في ثمان مائة فارس، ولم يتغير لونه. ولما وقف الملكُ الأشرف بين يدي هلاوون وأنا ماسك بشماله والحاجب/ ماسك بيمينه. [٢٣٠ظ]

قال الصارم: والله لقد رأيت الملكَ الأشرفَ وهو يرتعد مثل القَصبة، ولم يستطع الوقوف على رجليه، وذلك خوف[٢] من هلاوون. وكان الملك الأشرف شابًا حسن الوجه، أسمر اللون بحمرة، تامّ القامة، بوجهه شامات متفرّقة، وكان لابس قباء تتري أخضر ببنود أطلس أحمر، وخف بلغاري بكوابج ذهب، وتخفيفة مزركشة.

فنظرت طقُز خاتون للملك الأشرف، ونظرت إلى هلاوون وقالت: «إن هذا شاب مليح وفارس المسلمين، وهكذا تكون الملوك؟» فنظر هلاوون نحوها وتبسّم وقال: «إنما نحنُ الملوك الذي يحضر هذه الملوك بين أيدينا وقوفًا أذلّةً خايفين من سَطوتنا». كل هذا والملك الأشرف واقف بين يدي هلاوون لا يدري ما يصنع به الدهر. ثم رفع هلاوون رأسه وقال: «يا أشرف تمنّى ما تختار». فقبّل الملك الأشرف الأرض ثلاث مرّات. قال الصارم: فقلت له: «اطلب منه أن يهبَك هذا البرج الذي في القلعة الذي فيه أُمّك وأخوتك وبناتك وحريمُ الملوك وبنات الملك الناصر وحريمه، ومتى لم تطلب منه هذا البرج في هذه الساعة وإلا في هذه الليلة تملّكَ التتار قلعة حلب وتصبح حُرَمُ الملوك الاسلامية جوارًا[٣] لهذه الستّ طقُز خاتون».

قال الملك الأشرف: «لا يكون يقتلني؟» فقلت له: «إنّ التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضّيف». ثم قال هلاوون ثاني مرّة: «أطلب ما تختار يا أشرف سلطان».

---

(١) في الأصل: تكوم.

(٢) كذا في الأصل، وهي: خوفًا.

(٣) كذا في الأصل، وهي جواريَ.

قال الملك الأشرف: «أتمنا على القان أن يهبَ لي هذا البرج الذي فيه حريمي وحريم الملك الناصر وحريم/ الملوك الذين هم هاربون من سطوة القان». [٢٣١و]

قال الصارم: فأغضبَ هلاوونَ ذلك، وأطرق إلى الأرض وقال: «أطلب غير هذا». فسكتَ الملكُ الأشرف. فنظرت طقُز خاتون إلى الملك هلاوون وقالت: «ما تستحيي يطلب منك مثل هذا الملك هذا البرج وتمنعه عنه؟ والله لو طلب مني حلب ما منعتُها عنه، فإنه فارس المسلمين». قال هلاوون: «إنما منعته ذلك لأجلك لتكونَ بناتُ الملوك ونساؤهم جوارٍ بين يديك». قالت: «أنا قد أعتقتهم لوجه الله تعالَى ولأجل الملك الأشرف». فعند ذلك رسم هلاوون للملك الأشرف بما طلب، وقَبّلَ الأشرفُ يدَ هلاوون ثلاث مرات.

فقال الصارمُ: لما قَبّل الملكُ الأشرف يدَ هلاوون ورجع إلينا ووقف بيننا وأراد أن يقبّلَ الأرضَ وأنا ماسك بشماله والحاجب بيمينه، ووالله لقد قَبّل الملك الأشرف الأرض وأراد القيام فلم يستطع القيام، وذلك خوفًا من هلاوون. فأقمته أنا والحاجب بباطَيه، وقلت له: «تثبّت» وقرأت: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(١).

/ وقال الأمير شهاب الدين قرطاي العزّي الخزنداري في تاريخه: قال الصارمُ أُزبك [٢٤١ب] الأشرفي: قال لي هولاكو في جملة كلامه: «يا صارم، تختار أن تكونَ مع الملك الأشرف أستاذك أو تكون معي؟» قال الصارم: فقبلت الأرض وقبّلت يدَه وقلت: «ما أفارقُ وجهَ القان» وكان كذبًا مني. ثم رسم هولاكو بالتوجه إلى الشرق، وجعل كِتبُغا نُوَين نائبًا له بحلب وأعمالها، وبيدرا نائبًا له بدمشق وأعمالها، وتوجّه إلى الشرق. واستصحب الصارم صُحْبتَه والمماليك الترك البحرية الذين كانوا محبوسين بقلعة حلب وهم: سنقر الأشقر وسكز وبرامق وبكمش المسعودي، وكانوا سبع(٢) نفر وقيل تسعة.

قال الصارم أُزبك: لما وصل هولاكو إلى أعزاز، ووصل إلى بلاد الموصل، طلبني وقال: «يا صارم، تختارُ المقامَ عندي وأنا أعطيك طبلخاناة، أو تختار/ المقامَ بأرضك [٢٤٢و] بالشام؟» فقبّلت يده وقلت: «ما أفارقُ وجهَ القان». قال: «لا، الشام أَحَبُّ إليك، فإنّ

---

(١) سورة إبراهيم ٢٧/١٤.

(٢) السلوك ٤٢٧/١: سبعة.

أهلَكَ وأولادك وأملاكك بالشام؟» وأمر لي بالخُيول والأموال والأنعام، ورسم للملوك [٢٣و] والأمراء، الذين عنده وفي خدمته أن يعطيني كل منهم على قَدْره.

قال الصارم: واللهِ العظيم، لما انفصلتُ من بين يدي هولاكو، لم أعلم ما كان حصلَ لي من الأموال والتُحَف، لكنّ الذي عرفتُه من عِدّة الخيل ألف وخمسماية فرس، ومن القماش عشرة آلاف تفصيلة ما بين مروزي وكمخي ونسيج وأطلس وعتابي وغير ذلك.

ولما أمرني أن أتوجّه إلى الشام قال لي في جملة كلامه: «يا صارم، أنت تعرف ما فعلنا معك من الخير وأولادي عندك كِتْبُغا وبَيْدَرا، وهما عندي أعزّ من أولادي يكونان تحت نظرك، ويكون حِسّك عليهما». كل هذا وأنا أقبّل الأرض وأقبل يده. ثم قال لي: «يا صارم، إذا وصلتَ إلى كِتْبُغا أمسك رقبتَه بيدك»، ومسك هولاكو رقبتي بيده وقال لي: «قل لكِتْبُغا أن بعلبك ودمشق وبلاد الشام بلادي وتحت مملكتي فما يحل لنا أن نظلم الرعيّة، كيف تجرّأت وأخذت صندوقَ ذهب من رجل من أهل بعلبك؟. أردد إليه ذهبَه وإلّا تموت. ولا تردّ يدكَ من رقبته إلى أن يردّ إلى صاحب الذهب ذهبَه».

قال الصارم: ثم قال لي هولاكو لما ودَّعتُه: «يا صارم، إذا وصلت إلى كِتْبُغا وبَيْدَرا، [٢٤ب] ساعدهم على فتح بُخْش[1] الفار» – يعني بذلك الديار المصرية – «فإني أمرتهم أن يفتحوا مصر».

قال الصارم: إنّ التتارَ مَثَلُ مصر عندهم مثل بخش الفار، إذا عبرَ من مكان لا يخرج إلّا منه، وذلك لضيق المسلك. ولما أمرني هولاكو بما أمرني به، امتثلتُ أمره [٢٤٢ظ] بالسمع / والطاعة. ثم توجّهت إلى الشام، فوجدت التتار قد اجتمعوا على نهر الاردن. فلما رأوني نزلوا عن خيولهم وقبّلوا بين عينيّ. وذلك إجلال، كون أن عينيّ قريبة من النظر إلى وجه الملك هولاكو. ثم أبلغت كِتْبُغا ما كان أمر الصندوق الذهب، وأنّ الملكَ هولاكو رسم: «أنك تردّ الصندوق إلى صاحبه». فامتثل الأمر بالسمع والطاعة، ورد [٢٤و] [٢٤٦ب] الصندوق إلى صاحبه، والله أعلم/.

قال الأمير شهاب الدين قرطاي العِزّي الخزنداري في تاريخه: قال الصارم أُزبك الأشرفي: لما ودَّعت الملكَ هلاوون من بلاد الموصل، قال لي في جملة كلامه: «يا

---

(١) كلمة عامية تعني: ثقب.

صارم، اشكُرْ نِعمتي عليك». قلت: «يا خَوند – أيّد اللهُ القان – لك عليّ نِعَمٌ كثيرة من الله تعالى ومنك». قال: «تعرف كيف جئتني؟» قلت: «نعم». قال: «وعظّمتك في أعين الملوك إلى أن صِرْتَ تشفَعُ فيهم عندي ويقبّلوا يدَك كما كنت تقبل أيديهم». ثم قال: «يا صارم اشكرْ نعمتي». فقبّلت يده وقلت: «يحفظ الله القان، نعمتك عليّ كثير». قال: «ولا مثل هذه النعمة؟». قلت: «وما هي؟» قال: «في ليلة كذا وكذا ونحن على حلب تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات، والله لم يكن جَرى مني هذا قبلها لأحد، وما فعلت معك هذا كله إلّا حتّى تتوصّى بأولادي كِتْبُغا وبيدَرا وتعمل معهما كما فعلتُ معك، ولا يجيني كتابك إن شاء الله تعالى إلّا بعد أن تكونوا فتحتم مصر».

قال الصارم: لما قَدِمتُ الشامَ وجدتُ التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائهم. فلما علمت أنّ التتار لا بدّ لهم من الديار المصرية، بعثت غلامًا لي في صِفَة جاسوس، وأمرته أن يجتمعَ بالملك المظفر قطُز/ [٢٤٧و] والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويعرّفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأنْ تكونَ ميسرةُ المسلمين قوّيةً بالخيل والرجال، ويعرّفهم أن التتارَ في عسكرٍ قليل، وأوصيتُه أنْ يوصيَ المسلمين أن يكون الملتقا عند طلوع الشمس.

قال الصارم: لما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين، وجدهم خائفين من التتار خوفًا عظيمًا. فاجتمع ببعض الأمراء الذين عَرَّفته بهم، وعرَّفهم ما أوصيتهم به. وكنت قلت في جملة كلامي: «قل للأمراء: لا تخافوا أنا وأصحابي والملكُ الأشرف في ميسَرة التتار. فإذا رأيتم رَنْكي احملوا عليّ وعلى أصحابي، فأنا والملك الأشرف ننهزِمُ بين أيديكم». واللهِ وكذلك كان. فلما سمع الأمراء كلامَ غُلامي، قال بعضُهم لبعض: «لا يكون هذا معمولية[١] على المسلمين».

فلما كان ملتقا الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا وظلّت[٢] عساكر الإسلام، كان أول سَنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة وأشرقت الشمس على تلك العُدَد، فطلبني كِتْبُغا وقد بُهِتَ هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحُسْن ما عليهم وجمالهم، وهم منحدرون من الجبل، وقال لي: «يا

---

(١) لفظة عامية يعني بها: مكيدة أو دسيسة.

(٢) كذا في الأصل، وربما كانت: طلّت، أي ظهرت.

صارم هذا رَنْكُ مَنْ؟» قلت: سنقر الرومي». ثم ظهرت سناجق صُفْر. قال: «هذا رَنك مَنْ؟» قلت: «بلبان الرشيدي». ثم تتابعت الأطلاب أولًا فأولًا، وانحدروا من سفح الجبل، ودقّت الكوسات والطبلخانات[١]، وامتلأ الوادي والبر من العِياط[٢]، وغابت[٣] الفلاحين وأهل القرى والبلدات من كل جانب.

وكنت غِرًّا بمعرفةِ رُنوكِ المسلمين. فصار كِتْبُغا يسألني: «هذا رَنْك مَنْ؟». [٢٤٧ظ] فصِرْتُ أيَّ شيء طلع على لساني قلته. ثم إن/ التتار انحازوا إلى الجبل، وفتحَ اللهُ ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يَسْلَمْ من التتر من يردّ خبر[٤] إلى هلاوون، ولكن قُتِلَ الجميعُ ولم يردّ خبرهم[٥] إلا من كان مقيمًا بدمشق أو حلب. انتهى ما ذكره قرطاي][٦].

فأخذت عُدّتي وصرتُ قاصد[٧] أستاذي، ودموعي تجري على خدودي طوفان لأجل ما تمّ على أهل الإيمان من جنود هذا الجبار الشيطان. وكل ما مررت على [٢٤٧و] ضيعةٍ ألقاها خراب[٨] تندب الأهل والأحباب، ينعق فيها البوم والغراب. فيجدّ بي الوجد ويزيد الانتحاب. وهذه الأمور العظيمة والأحوال الجسيمة لم طرق[٩] مثلها في قديم الأزمان. وتمّ على بلادنا ما تمّ على بغداد، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. والحكم لله [٦٤ظ] صاحب/ الحرَكة والسكون، العالِم بما كان وما يكون، إلى أنْ دخلتُ على أستاذي وجميع الملوك عنده في حَيْرَةٍ واندهال.

فلما دخلتُ عليهم، فرِحوا بسلامتي من تلك الأهوال وسالوني، فأخبرتهم بما تم عليه الحال، وقلت لهم: «الرأي عندي مسيرُكم ومقابلة هذا الجبّار، والتسليم له،

---

(١) في الأصل: الطبلخات.
(٢) الصياح والجلبة.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) كذا في الأصل، وصوابه: خبرًا.
(٥) كذا في الأصل.
(٦) ينتهي هنا نص ابن الفرات.
(٧) كذا في الأصل، وصوابها: فركبت وأخذت عُدّتي وسرت قاصدًا.
(٨) كذا في الأصل، وصوابها: خرابًا...
(٩) كذا في الأصل.

وأخذ(١) والصبر، إلى أن يَجري القلمُ بالنصر للمؤمنين». فأجابوا(٢) الجميعُ وسلّموا نفوسَهم للقضا، وتأسَّفوا على ما مضى. ومن الصباح ساروا(٣) الجميع وفي مقدّمتهم الملك الناصر صاحب حلب، والملكُ الأشرف إلى جانبه، وهو ينشد ويقول/ شعر(٤): [من البسيط] [٦٥و]

لا عُذْرَ للشوقْ إنْ يمشي على قَدَرٍ ماذا عَسَى يبلغُ المُشتاقُ في الكتبِ
أحبابنـا لـو درى قـلـبـي بـأنـكـمُ تـدرون مـا أنـا فـيه لَذَّ لي تـعـبـي
لـكـن أصـعـبَ مـا ألـقـاهُ مِـنْ ألَمٍ أنّي أمـوتُ ولا تـدري الأحِـبَّـةُ بي

ولما سار الملكُ الناصر ومن معه من الملوك طالب(٥) هلاوون، ورأى قلعة حلب على شماله وهي خراب، بكا واستبكا، وأنشأ يتمثّل هذه الأبيات شعر: [من الطويل]

سَقا اللهُ أكنافَ الشَآمِ ومعهدٍ(٦) بـه الـعَـهـد بـاق لا يـزال مُـواظـبـا
ولا بَرِحَتْ أرضُ العَواصم عِصْمةً من السوء تُسقَى دائمَ الوَدْق دائبا(٧)
أيا سـاكـن الشَهبْاء لا زال حبكم يخالـط مِـنّـي أعـظُـمـي والـتـرائـبـا
وحُـزني عـلـيـكـم لا يـزال مجدَّدًا وشـوقـي إلـيكـم لا يـزال مـغـالـبـا
أرومُ لـقـاكـم والـقـضـاءُ يـعـوقُـنـي فـلـو جـادَ سَـيَّرتُ الـريـاحَ ركـايـبـا
وعَفَّرْتُ خدّي في الثَرى فرحةً(٨) بكم وقـلـتُ لـقـلـبي: قـد بـلـغـتَ المآربا

ولما سار الملكُ الناصر(٩) ومن معه من الملوك ورأوا قلعة حلب، وقد بَعُدوا عن حريمهم وأولادهم، ونظروا إلى بعضهم بعضًا، أنشأ الملكُ الناصر شعر(١٠): [من الطويل]

---

(١) كذا في الأصل.
(٢) كذا في الأصل، والصواب: فأجاب...
(٣) كذا في الأصل، والصواب: سار الجميع...
(٤) قارن برواية الأبيات في كنز الدرر ٨/٥٨؛ وعقد الجمان للعيني ١/٢٣٥.
(٥) كذا في الأصل، والصواب: طالبين...
(٦) كنز الدرر: ومعهدًا...
(٧) المطر، وفي كنز الدرر ٨/٥٨: الأفْق.
(٨) كذا في الأصل، وبه لا يستقيم الوزن، وفي كنز الدرر: فرحًا، وهو الصواب.
(٩) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٩/٣٠٤-٣١٤.
(١٠) يرد هذا الشعر أيضًا في تاريخ ابن الفرات (الفاتيكان) ٦/٢٣٩ظ؛ وزبدة الفكرة ٥٠؛ وعقد الجمان للعيني ٢٣٥؛ في حين ورد البيت الأول منفردًا في: مختصر تاريخ أبي الفداء ٢/٦/١١١؛ والنجوم الزاهرة ٧/٢٠٥.

يَعِزّ علينا أن نَرى ربعَكم يبلَى — وكانت به آياتُ حُسْنِكم تُتْلَى
[٦٥ظ] لَقد مَرّ لي فيها أفانينُ لَذّةٍ — تُرَى هل لأوقاتي بها عودةٌ أمْ لا /(١)
أُقَلِّبُ طَرْفي نحوكم في دياركم — فأُكثِرُ فيها النَّوحَ كالناحةِ الثَّكلا(٢)
أأحبابنا واللهِ ما قلتُ بعدكم — لحادثةِ الأيّام: رِفقًا ولا مَهْلا
ولي أُسْوَةٌ مع آلِ بيتِ محمّدٍ — فبعضُهم أَسْرَى وبعضُهُمُ قَتْلا

وهذه الأبيات أبيات مشهورة، وهي تنيف عن ستين بيتًا(٣). فإن الملك الناصر – رحمه الله – ذكر أحواله وما كان تمّ له بها من الأوقات الطيّبة، وذكر ما هو فيه من التشُوق إلى أهله ومملكته، وما هو فيه من الغُرْبَةِ والذُلّ، ولكن صاحب هذا الكتاب اختصرها خِشْية التطويل.

ذِكْرُ ما جَرى للملك العزيز ابن الملك المُغيث صاحب الكرَك

قال الملك العزيز عن نفسه(٤):

لما بعثني أبي إلى خِدمة هلاوون صُحْبة الملوك، ملوك الشام، ودخلنا على هلاوون، كان لي من العمر إحدى عشرة سنة. فأجلس الملوك على يمينه وأجلسني على شماله، وما بيني وبينه غير الست طقُز خاتون. فنظرت الستّ طقُز خاتون نحوي وتحدثت معي بلسان التتر. قال الملك العزيز: ونحن ملوك بني ايوب لم نعرف بالتتري ولا بالتركي ولا بالرومي، وبعضُنا يتحدث بالعَجمي. فلما رأتني لم أجاوبها ولا التفتُّ إليها، وإذا قد أقبل [٦٦ظ] شابٌ حَسَنٌ عمره يناسب عمري،/ وهو لابس قماشًا حسنًا، وقال لي:

«سَلام عليك يا ابنَ العَمّ». قلت: «وعليك السلام». قال: «لا تَخَف مِنّي، أنا ابنُ عَمِّكَ صاحب حصن كَيْفا يا ابن العم. السّتّ خاتون تقول لك: أَلكَ أبٌ ولكَ أُم؟»

(١) كذا جاء عجز البيت في كنز الدرر. أما في عقد الجمان وزبدة الفكرة فجاء:
فما كانَ أَهْنَى العيش فيها وما أَحْلَى

(٢) سقط هذا البيت من زبدة الفكرة وعقد الجمان، أما في كنز الدرر فجاء: ولا سهلا.

(٣) ورد بيتان في عقد الجمان وزبدة الفكرة وقد أسقطهما الخزنداري، وهما:
عبرتُ على الشهبا وفي القلب حسرةٌ — ومن حولها تُرْكٌ بتابعهم مُغْلا
وقد حكموا في مهجتي حُكْمَ ظالمٍ — ولا ظالمٌ إلّا سَيُبْلَى كما أُبلَى

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٩/٤٨٩ رقم ٥٠٣.

قلت: «نعم». قال: «وما صَنْعةُ أبيكَ؟» قلت: «ملكٌ». قال: «ملك قلعة أم إقليم؟» قلت: «ملك قلعة وإقليم».

كل هذا والسّتّ طقُز خاتون تتحدث معه بلسان التتر، وهو يحدِّثني بالعربي. قال لي: «يا ابن عَمّي، لا تكذِبْ فإن التتَر لا يُحبّونَ من يكذب. السّتّ طقُز خاتون تقول لك: ترى أن تقعد عندي وأنا أُعطيكَ مايةَ فارس وأُمَلِّكُكَ إقليم، فإني لم يكن لي ولد، وهذا الملك شيخٌ كبير ما يأتي منه ولد». قال الملك العزيز: فسكَتُّ وقلت: «أريد أمّي وأبي». فالتفتت طقُز خاتون إلى هلاوون وتحدثت معه كلمتين، فاشار بيده يروح.

فقال لي ابن صاحب حصن كَيْفا: «يا ابنَ العمّ، قم واضرِبْ جنوك[1] وقَبِّل يدَ القان». ففعلت ما أمرني به، فرَسَمتْ لي الستّ طقُز خاتون بعشرة أكاديش وثلاثين ألف درهم سلطانية، ورسم لي هلاوون بعشرة أكاديش وعشرين ألف درهم سلطانية وأربعين تفصيلة.

ثم ركبت فسقت مثل البريد من الأُرْدو، ووصلت إلى الفُراة في تسعة أيام. فلما صرت في برّ الشام من الفُراة، سجدت لله – عز وجل – / شكرًا الذي[2] خلصتُ [٦٦ظ] من يد التتر. ثم سقتُ ووصلت إلى دمشق، فوجدتُ التترَ قد توجَّهوا إلى الديار المصرية. فسُقتُ ودخلتُ دمشقَ، فالتقاني النواب المقيمون من التَتر بدمشق، وقَبّلوا بين عَيْنيَّ كونَ أنّ عينيَّ قريبةٌ من النظر إلى وَجه هلاوون. ثم سألتُ عن كِتْبُغا وبيدرا. قالوا: قد توجهوا إلى الديار المصرية.

ثم إنَّ التتر طلبوا في تلك الليلة المغاني والدفُوف والشبّابات، وعملوا سَماعًا وفَرحًا، كون أنَّ الملكَ هلاوون طَيِّب. وطلبوني فحضرتُ أنا والخادم اللالا[3] الذي لي، فنعستُ فإني كنت صغيرَ السّنّ. وإذا بالخادم قد طلبه خادم آخر وقال له: يا طواشي، ما جلوسُكَ عند التتر وهذا وقت الغِناء والسماع، وقد وصل الخبرُ أن التترَ انكسروا وقُتِلوا جميعًا وقُتِلَ كِتْبُغا وبيدرا».

---

(١) راجع معانيها كما أوردها دوزي في تكملة المعاجم العربية، ومنها حركات راقصة فرحًا وشكرًا.
(٢) كذا في الأصل، وربما كانت: أنني.
(٣) كذا في الأصل.

ولما سمع الخادم الذي لي هذا الكلام، طلب كبير التتر وقال له: «إنَّ الملك صغير السِّن، وهو ينعس ولا يعرف ما تقول هذه المطربون. بمرسومك آخذه وأنيِّمه». فأمر له بذلك.

قال الملك العزيز فخر الدين عثمان عن نفسه:

كل هذا وأنا لم أعلم بشيء مما جَرى، فدخل الخادم مُسْرِعًا وأخذ بيدي وطلعنا إلى دار الشمس لؤلؤ. وملأنا السطوح من الحجارة والقِسيّ والنشاب، واجتمعنا نَيِّفًا عن خمسين نفسًا، فلم نشعر إلا والتتر قد وصل لهم هذا الخبر. فركبوا من فورهم وقال بعضهم لبعض: «نروح إلى/ هلاوون وما معنا أحد من ملوك المسلمين؟». فأتوا إلينا [٦٧و] وطرقوا الباب فنظر إليهم الخادم من أعلا السطوح فقالوا له: «إن القانَ قد أرسل إلى الملك العزيز قماشا ودراهم[1] فأتنا به». قال الخادم: إن الملك نائم وهو صغير، إلى غد إن شاء الله». قالت التتر: «ما نتوجَّه إلّا به». فجاوبهم الخادم بكلام غليظ فشتموه وشتمهم، ورمينا عليهم الحجارة. فلما انقطع أملهم مني توجهوا هاربين إلى الشرق.

قال الملك العزيز عن نفسه: فلما كان بالغداة، ركبتُ ولم أُصَلِي الصبح هاربًا إلى الكرَك. فلما دخلت على أبي وأمي تلقُّوني بالفرَح والسرور، وكان بالكرَك يومًا مشهودًا. [٦٦ظ]

قال الملك العزيز فخر الدين عثمان: لو عمل الملك الناصر والملوك الذين معه كما عملتُ أنا في سرعة المسير إلى بلاد المسلمين لَحَصَل لهم النجاة من أيدي التتر. لكن الملك الناصر تهاون في حقِّ نفسه، وهذا أمر أراده الله تعالى، وكان مكتوبًا في القِدَم، فلا رادَّ لمشيئة الله سبحانه.

ذِكْرُ ما جَرى للملك الناصر صاحب حلب والملوك الذين معه مع هلاوون

قال: ولمّا سار الملكُ الناصرُ، وحضر بين يدي هلاوون، أقبلَ عليه وعلى من معه من الملوك، ورسم له بمملكة الشام بكماله، ورسم له بالأموال والخِلَع والتُحَف. فلما توجه الملك الناصر من عند هلاوون، اشتغل مع ملوك الشرق وذلك أنهم بنو عم. فجعل كلٌّ منهم يضيّفه مثل صاحب حِصْن كَيْفا، وصاحب خَرْت بَرْتَ/ وصاحب الموصل [٦٧ظ] الملك الصالح إسمعيل، وصاحب ماردين. فبينا الملك الناصر مشتغل مع أبناء عمه

---

(١) في الأصل: دراهمًا.

الملوك، إذْ وردَ الخَبَرُ إلى هلاوون أن التتر انكسروا على عين جالوت، وقد قتلوا كِتْبُغا وبيدَرا، ولم يبق من التتر من يردّ خبرهم.

قال: فللوقت جهّز هلاوون من جهته من يثق إليه من ملوك التتر وقال: «تسرعوا في الحركة وتأتوني بالملك الناصر ومن معه من الملوك حيث كانوا». فأدركوهم ورجعوا بهم إلى بين يدي هلاوون، فأمر بضرب أعناق الجميع، فضربوا أعناقهم وماتوا شهداء.

ذِكْرُ ما جَرى لهلاوون مع حكمائه

قال: وكان جماعة من ملوك التتر الذين مع هلاوون يتحدثون في الأمور التي يتحدّث فيها هلاوون وحكماؤه[1]، وهي علوم غير العلوم الدينية. وكانوا ينقمون على هلاوون في كل وقتٍ ويقولون له: «تصرف هذه الأموال على هذه الحكماء وما نفعهُم؟» فتمثّل في نفس هلاوون أن يصرفَ بعضَ الحكماء ويستقرّ بعضهم. فطلبهم، فلما حضروا بين يديه قال: «ما محلُّكُم عندي؟» فقام أحد اليهود وكان أعقلَهم وأعظمهم عند هلاوون وقال: «محلُّنا حكماء». قال: «وما محل الحكماء؟» قالوا: «عقلاء». قال: «فأنتم مستحقُّون ما يصل إليكُم؟» قال الحكيم اليهودي: «أيّد اللهُ القان، إنّ لنا في خدمتك عشرين سنة أو يزيد عن ذلك، وإنكَ لم تنزل بلدًا ولا تفتح إقليمًا ولا تطلب/ عدوًّا من أعدائك إلّا ونُصِرتَ عليه، وذلك برأينا والطالع الذي نرصدُه لك، [٦٨و] وما رأيت على خدمتنا لك إلّا خيرًا. فإنْ أنت سمعت من أعدائنا، ونظرت في أرزاقنا فلا تأمن أن الطبيعة تكافيك، وأن اللهَ ينظرُ في رزقك».

قال هلاوون: «فما خيار أفعالكم؟» قالوا: «ولا بد أن نُريك أفعالنا؟» قال: «نعم». قال: «ادعُ لنا عشرَ شمعاتٍ ويكونون وزنًا واحدًا». فلما حضر الشمع قال الحكيم اليهودي: «اطرحوا من العشرة خمسةً في ذلك البئر[2] وخمسة عندنا».

وأمر أن يوقدَ الجميع في وقتٍ واحدٍ ففعلوا. فوقف الحكماء حول الخمسة التي عندهم، فجعل الحكماء إن هَبَّ الهوى[3] وقفوا في وجهه، وإنْ مالَ الشمعُ أقعدوه، وإنْ

---

(١) في الأصل حكمابوه.

(٢) في الأصل البر.

(٣) كذا في الأصل، وهي: الهواء.

احترقَ الفَنْدُ قطفوه، وإنْ سال الشمع جمعوه، وردوه إلى مكانه. فأمّا الخمسة التي في ذلك البئر، فإنهم لم ينتصف الليل حتى فرغوا، وأما الخمسة التي دار بهم الحكماء فإنهم مَسكوا أربع ليال من العشاء إلى الصّباح.

قال الحُكماء لهلاوون: «هكذا محلنا مع هذه الصورة البشرية القائمة: إذا جَرى لها أمرٌ من الأمور أو مرضًا[1] أو عاهة تُعجِزُ صاحبَها عن مداواة نفسه، نَحضُرُ إليه ونداريه ونلاطفه. فإنْ جاء الموت فما لاحدٍ فيه حيلة. أيّد الله القانَ، أنت تعلم أنه قد تقدّمنا في هذا الوجود أنبياء وأولياء وعقلاء وفضلاء وعلماء، وكلهم وقفوا عند الموت، فما شاء الله فهو/ كائن». قال: فعند ذلك أمر هلاوون للحكماء بما جرت به عادتهم، ولم يُنقِص من أرزاقهم شيئًا. [٦٨ظ]

ذِكْرُ قَتْلة الملك المظَفَّر قطز

قال: ولما انكسرت التترُ على عين جالوت، ونصرَ اللهُ تعالى هذه العصابة المحمّدية بهذه المماليك الترك البحرية، أضمر الملكُ المظفَّر قطزُ[2] في نفسه أنه لا يُبقي من المماليك البحرية خوشداشيته أحدًا، وأضمرَ البحريةُ في نفوسهم أنهم إنْ ظفروا به قتلوه.

فتوجه إلى دمشقَ وأقام بها أيامًا قلائل، ثم قصد التوجُّهَ إلى حلبَ فرجع، وقصد الديار المصرية واستنابَ بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي[3]. وسار طالبًا الديارَ المصرية، ووصل إلى منزلةٍ من منازل الرمْل تعرف «القُصَيْر[4]» فدخل إلى الصَّيْد. ثم خرج فتشاوروا على قتله. [٦٨و]

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: مرضٌ.

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤/٢٥١–٢٥٣.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٥/٤٧٣–٤٧٤.

(٤) ضيعة شمالي دمشق، على الطريق بينها وبين حمص، وبها خان يعرف بالقصير، قبالته مجرى ماء، انظر: معجم البلدان لياقوت.

وكان الملكُ المظفَّرُ قطزُ رجلًا عظيمَ الشأن في القوة،.وكان قوسُه سبعينَ رَطلًا دمشقي[١]. وكان في الأمراء البحرية أميرًا يُسَمّى أُنص[٢] فقال له: «يا خوند أنتَ قد كسرت التتر ونصر الله الاسلام على يدك، وأسأل صدقات السلطان أن تهَبَني فلانة جارية الملك المعز أيبك التركماني». فوهبها له، فنزل أُنص وقَبّل الأرض. ثم أتى ليقبل يده فمسك يده وصاح على البحرية فقتلوه بالنشاب من بعيد. ولم يجسُر أحد من البحرية أن يدخل عليه، ومات شهيدًا، رحمه الله ورضي عنه.

وساقوا مسرعين إلى الدهليز، وضربوا مشوَرة/ فيما بينهم. فاتفق الحال أن يكون [٦٩و] بيبرس البندقداري مدبِّر المملكة بالديار المصرية. وفي تلك الساعة ركب بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي الصالحي، وبيسري وساقوا إلى قلعة الجبل. وكان الوالي بها يومئذٍ عز الدين أيبك الرصاصي، فلم يفتح لهم باب القلعة، ووعدوه بالمواعيد الجميلة فدخلوا القلعة. فلما كان الغداة نادوا بين القصرين: «ترحَّموا على الملك المظفَّر قطز، والدعاء للملك الظاهر بيبرس البندقداري». كل هذا في سنة ثمان وخمسين وستماية.

فيها جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بدَسْت المملكة بالديار المصرية.

قال: ولما سمع الأمير علم الدين سنجر الحلبي النائب بالشام أن الملك الظاهر تسلطن بمصر، طلب الأمراء الذين عنده بالشام، وفتح الخزاين وأنفق الأموال، وتسلطن بدمشق وأعمالها، ولقَّب نفسَه بالملك المجاهد. ووافقه الأمراء الشاميون، وقبّلوا الأرض بين يديه، وقبّلوا يده، وضربت السِّكَّةُ والخُطْبة باسمه. كل هذا في سنة ثمان وخمسين وستماية.

في سادس عشر ذي الحجة من هذه السنة خطبوا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري بمصر، والملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبي بدمشق.

وفي هذه السنة كانت تقلبات كثيرة وأقاويل كاذبة وأيمانًا[٣] حانثه وتأوّلات فاسدة، وسبب/ ذلك أنه كانت البلاد من أول هذه السنة إلى نصف صفَر بيد [٦٩ظ] هلاوون، وتوجّه إلى الشرق، واستناب بها كِتْبُغا وبيدَرا فقتلهم المسلمون. ثم صارت

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) راجع كتاب كنز الدرر ٦١/٨ «عز الدين أنس»؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ١١٥/٦ «أنز»؛ والسلوك ١/ ٤٣٥ «مع اختلاف في سياق الرواية».

(٣) كذا في الأصل.

بيد الملك المظفَّر قطُز، فقتله خوشداشيته. ثم صارت في يد الأمير علم الدين سنجر الحلبي. وأخذها منه الملك الظاهر بيبرس البندقداري.

وفيها قتَل هلاوون اثنَي عشر ملكًا، وقيل: أربعة عشر من ملوك الاسلام وأبنائهم، وهم الذين توجَّهوا إليه صُحبة الملك الناصر.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستماية من الهجرة النبوية

وليس للمسلمين خليفة، وأقاليم العجم خرابًا يبابًا(١) بلاقعا، والجوامع والمدارس والخوانك والمساجد والكنايس خرابًا بغير أبواب، لا يأويها(٢) إلا الكلاب، وذلك لعُدْم الناس. والعراق عراق العرب أيضًا كذلك. وبغداد(٣) قد تراجع إليها بعض الناس، ولم يكن ببلاد عراق العرب عامرًا غير الموصل وبعض قراها، وماردين وبعض قراها. وأمّا حرّان وسَروج والرها وبلاد السويدية فإنها أقامت خرابًا يبابًا، وانقطع منها المسافرون ومن يرد إليها، وهذا أمر أراده الله، فلا رادّ لمشيئته.

وسلطان مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وسلطان الشام علم الدين سنجر الحلبي، وصاحب الموصل الملك الصالح إسمعيل ابن بدر الدين لؤلؤ، وصاحب الروم
[٧٠و] محيد(٤) يمينًا/ وشمالًا، وقد اضمحلّت كلمتُهم، وهم السلطان ركن الدين وعز الدين أولاد السلطان غياث الدين كيخصروا، وقد دخل إليهم باجوا(٥) من جهة التتر، وصاحب الكرك الملك المغيث فتح الدين عمر، وصاحب حماة الملك المنصور، وصاحب حمص الملك الأشرف، ونائبه الصارم أُزبك بحمص. وكان الملك الأشرف أفرس من سائر ملوك الاسلام.

---

(١) كذا في الأصل، وهذا الوصف ذكره ابن واصل في مفرج الكروب ٣١٥/٤ مبرزًا واقع الحال في مدائن خراسان سنة ٦٢٧هـ.

(٢) كذا، وهي: لا يأوي إليها...

(٣) في الأصل: بداد

(٤) كذا في الأصل، وفي النجوم الزاهرة ٢٠٠/٧: «وصاحب الروم ركن الدين قليج أرسلان ابن السلطان غياث الدين كيخسروا بن علاء الدين كيقباد السلجوقي وأخوه عز الدين كيكاوس، والبلاد بينهما مناصفة...».

(٥) أنظر: المكين، ص١٦٦: بايجوا.

وفي هذه السنة مات القاضي الصدر الأَجَلّ الفاضل الشيخ شهاب الدين التلّعفري، وكان رجلًا فاضلًا فصيحًا شاعرًا، وله ديوان مشهور[١] وفيه نُكَت وأشيا تعجب الفضلاء من الناس. ومن جملة تغزلاته وفضايله، شعر[٢]: [من الخفيف]

أيَّ دَمْعٍ على الخُدود[٣] أسالَهْ ... إذ[٤] أتته مع النسيم رسالَهْ
مَرّ فيها والزهرُ أزهرُ زاهٍ ... ساحبًا فوق نَوْره أذيالَهْ[٥]
حَمَّلته الرياحُ أنفاسَ عِطْرٍ[٦] ... أودعتْها السحائبُ الهَطّالَهْ
يا خليلي، وللخليل حُقوقٌ ... واجباتُ الاحوال[٧] في كلّ حالَهْ
سَلْ عَقيقَ الحِمَى وقُل إذ تَراه ... خاليًا من صبابة[٨] المختالَهْ
أين تلك المراشفُ العسليا ... تُ وتلك المعاطفُ العَسّالَهْ
وليالٍ قضيتُها كلألاءٍ[٩] ... بغَزالٍ تَغار منه الغزالَهْ
بابليِّ الألحاظِ[١٠] والريق والألـ ... ـفاظ، كُلُّ مُدامةٍ ميّالَهْ[١١]/ [٧٠ظ]
وطويل الصدود والمَطْل والشعْر ... فمَنْ لي بأن يُديمَ مطالَه[١٢]
ونقيِّ الجبين والعَرْض والثَّغْر ... فطوبى لمن حَسا جريالَهْ[١٣]
وسَقيمُ الجفون والعَهْد وا ... لخصْر فكلٌّ تراه يشكو اعتلالَهْ

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٥/٢٥٥–٢٦٣؛ وفوات الوفيات ٤/٦٢–٧١.

(٢) راجع القصيدة في: الوافي بالوفيات ٥/٢٥٩؛ وفوات الوفيات ٤/٦٧؛ والنجوم الزاهرة ٧/٢٥٧؛ والديوان ٣٤، حيث ضمّت تسعة عشر بيتًا.

(٣) الديوان: من الجفون.

(٤) الديوان: مذ

(٥) سقط من الفوات والوافي للصفدي، في حين ورد ثالثًا في الديوان مع اختلاف:
مرَّ فيه والرَّوضُ زاهٍ فأضحَى.

(٦) الديوان: حملته النسيم أسرار عَرْفٍ؛ والفوات: الرياض.

(٧) الفوات: الاداء.

(٨) الديوان: ظبائه

(٩) الديوان: كلآلٍ.

(١٠) فوات الوفيات: اللّحاظ.

(١١) الديوان: سلسالَهْ.

(١٢) الديوان: والهَجْر والمطل؛ وفوات الوفيات: والشعر، في حين أسقطه الصفدي من الوافي.

(١٣) أسقطه الوافي وأثبته ابن شاكر وقال: الجبين والخدّ. والعرض من السيف والعنق: جانبه، والجريال: الخمر.

ما كساني ثَوْبَ السِقام رقيقُ النـ   شْـج إلّا جـفـونـه الـغـزّالَـةْ(١)
من بني الترك كلّما جذبَ القو   سَ رأينا في وجهه(٢) بدرَ هالَةْ
يقع الوهمُ حين يرمي فما ند(٣)   ري يـداه أم عـينـهُ الـنبّالـةْ
قـلـت لما لَـوى ديـون وِصـالي   وهـو مُـثـرٍ وقـادر لا محالـةْ
بيْننا الشرعُ، قال: سِرْ بي فعندي   من صفـاتي لـكـل دعـوَى دلالـةْ
وشهودي من خال خَدّي ومن قدِّ   ي شهود(٤) معروفة بالعدالـةْ
أنـا وكّـلـتُ مـقـلـتـي في دم الخَلْـ   ـقِ فقالت: قَبِلتُ هذي الوكالةْ

ومن جملة شعره وفضائله – رحمه الله – هذه الأبيات، شعر(٥): [من الكامل]

إيـهٍ أعِـدْ ذِكْـرَ الحِمَـى والمعـهـدِ   فلقد شفيتُ بذكره قلبي الصَّدِي
نَبأتَني أخبارَ من سَكنَ الحِمَى   يـا طِـيـبَ مـا تُـمـلي عـليَّ فـردِّد [٧٠ظ]
ضاع النسيمُ بنشرِهم فتعطّرت   منه الـبـقـاعُ وكُـلُ قَـفْـرٍ فـدْفَـد
واللهِ مـا هـيّـجـتَ يـا بَـرْقَ الحِمَـى   وَجْدي بـأهـلِ الحيِّ لـو لم تُـنـشـد
بالأمسِ كنتَ على الديارِ مغرِّدًا   والـيـومَ قـد خَـلَـتِ الـديـارُ فـعـدِّد
يا سَعْدُ إنْ عانيتَ سَلْعًا والنقَا   سَلْ عن فـؤادٍ ضلَّ عنّي وانشد
رحلوا فلا صَبْرِي وفا لي بعدهم   كَـلّا ولا أجْـدَى عـليَّ تجلّدي/(٦) [٧١و]
نـحـنُ المُـحِـبُّـون الـذيـن تـوارثـوا   دِيـنَ المحبّة مُكْمَدٍ عن مُكْمد
كذَبَ الذي عاب التهتُّكَ في الهوَى   صَرِّحْ ولا تُـصـغِـي لِقول مُفَنِّد

---

(١) سقط من رواية الديوان.
(٢) الديوان: في كفه، وفوات الوفيات: في وسْطه.
(٣) الديوان: فلا ندري.
(٤) الوافي بالوفيات: فشهودٌ.
(٥) لم ترد في الديوان.
(٦) في الهامش وبخط مغاير: هذه الأبيات المطبوعة في غاية الانسجام.

ثم دخلت سنة ستين وستماية من الهجرة النبوية

وليس للمسلمين خليفة، وسلطان مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري.

وفي هذه السنة جَهَّز الملكُ الظاهر نائبه بدر الدين بيليك الخزندار[١] لفتح الشَّوبك، ففتحها من الملك المغيث.

وفيها توجه بلبان الرشيدي[٢] وسنقر الرومي[٣] إلى مرج أنطاكية وخرّبوا ونهبوا وكسبوا وغاروا وعادوا إلى الديار المصرية.

وفيها جرد الملك الظاهر فخر الدين ألطنبا الحمصي والعنتابي إلى حلب.

وفي هذه السنة نزلت التتر على حلب، وضربوا عليها حلقة، وعبر مناديهم ونادى في حلب: «من أقام بها مات، ومن خرج منها سلم». وخرّجوا جميع من كان في حلب وضربوا عليهم حلقة وقالوا لهم: «أخبرونا، من هو بحلب أقمناه بحلب، ومن كان من الضِّياع أرسلناه إلى مكانه». فصار كل من الناس يقول: «أنا من حلب» وبعضهم قال: «أنا من المعرّة ومن سرميم[٤] ومن ساير الضِّياع». فكل من ادّعا أنه من الضيعة الفلانية سَيّرُوه إليها، وضربوا على أهل حلب حلقة وقتلوا الجميع.

وفي اليوم الثاني، بلغ التترَ أن عسكرَ مصرَ قد وصل، فهربوا بعد أن قتلوا كل من كان بحلب.

وفي/ هذه السنة كاتب الملكُ الظاهر الأمراء بدمشق وأفسدهم على علم الدين سنجر [٧١ظ] الحلبي، وخامروا عليه، وحصَروه بقلعة دمشق. وهرب منهم إلى قلعة بعلبك. وكان من جملة الأمراء المخامِرين على الحلبي، أيبك البغدادي، بهاء الدين بغدي، قراسنقر الوزيري، سرا سنقر الوزيري، وجماعة يطول شرحهم.

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٠/٣٦٥-٣٦٧.

(٢) راجع كتاب السلوك، الجزء الأول، في مواطن عديدة.

(٣) ترجمته في الوافي ١٦/٥٠٨؛ وذيل الروضتين ٢٢٠.

(٤) كذا في الأصل، وهو بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر ميمه، بلدة مشهورة من أعمال حلب، وفي أمثال الميداني أنها مدينة سدوم التي يضرب بقاضيها المثل، وأهلها اليوم اسماعيلية. أنظر: معجم البلدان لياقوت.

وفي هذه السنة استولى الملكُ الظاهر على دمشق، واستناب بها طيبرَس الوزيري.

وفيها مسك الأمراء الشاميون علم الدين سنجر الحلبي وسَيّروه إلى الملك الظاهر. قال: ولما وصل علم الدين سنجر الحلبي إلى بين يدي الملك الظاهر، تلقاه، وأكرمَه، ومشَى له عدة خطوات، وأعطاه ماية فارس.

وفي هذه السنة كانت حلب خرابًا، لم يكن بها أحدٌ من الناس، وهذه النوبة تسمّى نوبة قرنبيا[1] ويقال نوبة شنغار.

ثم دخلت سنة إحدَى وستّين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها أراد الملكُ الظاهر أن يتوجّه إلى الشام إلى الأعمال الحلبية. ففكّر في نفسه: أن البلاد خرب، والضِّياع خراب، والقِلاع شاغرة من الناس، والغِلال قليل. فخرج إلى غزّة، وقيل أنه فتح أرصوف[2] وفتح قيسارية[3].

وفيها نزل على الطور[4] وسَيَّرَ كتابًا إلى الملك المغيث.

[٧٢و] ذِكْرُ كتاب الملك الظاهر إلى/ الملك المغيث[5]

«المملوك بيبرس البندقداري يُقبّل اليد الكريمة – وما يناسب هذا اللفظ والعلوم الشريفة محيطه –. أن نحن جميعًا مماليك أبيك وجَدّك، وأنكَ قد تقدّم لك علينا خِدَمًا واصطناعًا، وآويتنا في وقت الغربة والوحدة وأحسنت إلينا. والمملوك مشتاق [٧١ظ]

(١) انظر: ابن واصل آ١٦٦آ في سنة ٦٥٩؛ والنويري ٣/٤٥: قرنبيا بمعنى مقرّ الانبياء.

(٢) بالفتح ثم السكون وضم السين المهملة، مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

(٣) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، كانت قديمًا من أمهات المدن. بالهامش: وقيل أن فتح أرصوف وقيسارية كان في سنة ثلاث وستين وستماية. راجع: السلوك ١/٥٢٦–٥٢٨.

(٤) اسم جبل بقرب أيلة من الشام، راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٥) ترجمته في الوافي ٢٢/٤٤١ رقم ٣١٤.

إلى نظر وجهك الكريم، فإن خطر برأيك الكريم أن تتصدّق وتحضر فالأمر لك، وإن رسمت أن أحضُرَ وأُقبّل يدكَ فالأمر لك[١]».

قال: ولما وقف الملك المغيث على هذه المكاتبة، تيقَّن في نفسه أن لا بدّ للملك الظاهر عن الاجتماع به، فإن امتنعَ حاصرَه وضَيَّق عليه.

فسيّر الملكُ المغيثُ والدتَه وأُختَه طاعةً للملكِ الظاهر. فلما حضر هاتين[٢]، أكرمهما الملك الظاهر وأحسن إليهما وضرب لهما شِقَّةً عظيمةً، ورتّب لهما الأشياء التي لا يمكن مثلها من المآكل والمشارب، وسَيّرَ يقول لهما: «أين أستاذنا الملك المغيث؟» قالتا: «هو خايف منك لئلا تقتله». فحلف الملك الظاهر أربعين يمينًا على السيف والمصحف أنه لا يؤذيه، ولا يمكّن من يؤذيه، ولا يقتله، ولا يأمر من يقتله.

وجهّز الأمير عز الدين الحلبي نائب السلطنة بدار العدل الشريف بنسخ الأيمان، وتوجّه إلى الملك المغيث، ورسم على أمه وأخته. فلما تيقّن الملك المغيث في نفسه أنه لا بد للملك الظاهر منه. طلب شهاب الدين/ [٧٢ظ] ابن الصعلوك – وكان واليًا بالكرك – وطلب الطواشي بدر الدين بدر العادلي، وكان خادم جده الملك العادل الكبير وقال لهما:

«أنتما تعرفا أنني متوجه إلى الملك الظاهر، وأنا بين هاتين: إما أن يقتلَني أو يحبِسَني. فإنْ جَرى أحد هذين الفصلين، فلا تنزلوا إلّا بحجارة هذه القلعة». وسلّم لهم الأمير فخر الدين عثمان ويسمّى الملك العزيز وهو حي إلى يوم تاريخه.

قال: ولما رجع الأمير عز الدين أيبك الحلبي بالجواب إلى الملك الظاهر بأن الملكَ المغيث يوم كذا وكذا يكون بين يديك، طلب النقباء والحُجّاب، وركب العساكر ميمنةً وميسرةً ووقف هو في صدر العساكر، وأقبل الملك المغيث.

قال من كان حاضرًا: إن الملكَ المغيثَ لما أقبل، خرج أمراء الميمنة والميسرة كل منهم يسوق ويقبّل يده، ومنهم من نزل عن جواده وقبّل يده. فلما نظر الملك الظاهر إلى

---

(١) في الهامش وبخط مغاير: قلت: وكان من جملة مخاطبات الملك الظاهر للمغيث في هذه المكاتبة قول الجبزرزي: [من الطويل]

خليليّ هل أبصرتما أو سمعتما   بأحسن من مولى تمشّى إلى عبدِ.

العبد: المصطفى بن محب الله.

(٢) كذا في الأصل، وهي: حضرت هاتان...

ذلك، خاف على نفسه وقال: متى أبقيتُ هذا أخذ البلاد مني. فلم يزل كذلك إلى أن وصلَ الملكُ المغيث إلى الدهليز، فأراد النزول، فحلف الملك الظاهر: «وتربة الملك الصالح لا تنزل». فتم(١) راكبًا، ووصل إلى باب الدهليز، وأراد النزول فحلف الملك الظاهر: «لا تنزل إلى وسط دهليزي». فتم(١) الملك المغيث راكبًا إلى أن دخل الدهليز، فقتله الملك الظاهر تحت حافر فرسه./ [٧٣و]

قال: ولما قتلَ الملكُ الظاهرُ الملكَ المغيثَ، بعث كتبه إلى الطواشي بدر العادلي النائب بالكرك يقول له: «تُسلِّمُ لي الكرَك وأنا أُحسِنُ إليكَ وأُعطيك طبلخاناة، وتكون عندي أعظمَ مما كنت عند الملك المغيث».

فكتب الطواشي بدر العادلي إلى الملك الظاهر جوابه: «أنت تعلم أني خادمٌ ولا لي ذرية ولا مالا(٢) أخاف عليه، ولكني أخاف على ديني يا ملك الظاهر. واللهِ لا وصلتَ منها إلى حجر واحد حتى تخربها، يا كذّاب يا غدّار يا مَكّار. مكرتَ بأُستاذك وابن أستاذك، وحلفتَ وكذبتَ، واستأمنوكَ وخُنْتَ، ووثقوا بكَ وغدَرت. فاقطع آمالك من الكرك».

فكتب الملك الظاهر إلى الطواشي بدر وهو يقول: «يا عبدَ النحس، يا كلب يابن الكلب، واللهِ لآخذنّ الكركَ، وإذا فتحتُها حَشَوتُ جِلدكَ تِبْنًا. فسيَّر الطواشي إليه جوابه يقول:

«يا ملك الظاهر، إذا ملكتَ الكركَ احشوا(٣) جلدي فحمًا وانفُخْ فيه بالكِير، وارسُمْ لهم أن ينادوا عليّ: «هذا جزاء وأقلّ جزاء من لا يحفض(٤) أستاذه ولا يكذب في أيمانه».

قال: ولما يئس الملك الظاهر من أخذ الكَرك، ومن سماعه كلام الخادم، وسوء جوابه، نظر إلى الخُدّام الذين حوله من خدامه وقال لهم: «قاتلكم الله! انظروا إلى هذا الخادم وحفظه بيت أستاذه، وجوابه لمثلي، واللهِ واللهِ لئنْ ملكتُ الكَرك وهو حي لأُحسِنَنّ إليه وأجعلَه وَصِيّ(٥) لي بعد غيبتي على ذريتي/ وأجعله وصي أستاذه على [٧٣ظ]

---

(١) لفظة عامية تعني: استمر، أو تابع
(٢) كذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) كذا في الأصل، وهي: يحفظ.
(٥) كذا في الأصل، وهي: وَصِيًا.

حاله». قال: ولما قطعَ الملكُ الظاهر أمله من الكرك ومن الطواشي، أمر بالحِصَار.

قال الأمير فخر الدين عثمان وهو الملك العزيز: لما نزل عليَّ العساكرُ وحاصروني وأنا بالكَرك، أقاموا يحاصروني سِتّة وأربعون[١] يومًا. فطلبت جماعة من الجبلية ووهبتُهم الذهب والدراهم، وأمرتهم أن ينزلوا إلى العساكر ويتجسّسوا الأخبار، فطلعوا وقالوا لي: «إنّ الأمراء يوم الخميس عشيّة النهار ليلة الجمعة يَعبُرونَ الحمّام». وتحت الكرك حَمّام يقال له حمام زبلة. فلما دخل الأمراء الحمّام طلبت المنجنيقي وعلّقت له في المنجنيق ألف دينار، وقلت له: «متى رمَيتَ على الحمّام بهذا الحجر وقتلت الأمراء في الحمّام خذ هذه الألف دينار».

قال الأمير فخر الدين: فعيّر المنجنيقي ورما بالحجر. فلو وقع الحجر على قُبّة الحمّام لم يسلمْ أحد من الأمراء، ولكن نقصَ الحجَر فجاء على المستوقد، فطنّت تلك الحبال، وجَفِلت الخيلُ من الغِلمان، وخرج الأمراء من الحمّام عُراة، والسَّدْر[٢] على رؤوسهم، والبابيّة[٣] هاربين، ولم يلوِ أحد منهم على الآخر. فلما رأى الأمراء ما جَرى عليهم، كاتبوا الملك الظاهر أنّ هذا الملك العزيز كلب ابن كلب، وفعل معنا كذا وكذا.

قال الأمير فخر الدين عثمان ابن المغيث: لما تيقّن الملك الظاهر، وقطع أمله من الكرك من جهة الطواشي ومن جهة الأمير فخر الدين، كتب إلى شهاب الدين ابن الصعلوك/ وهو يومئذ نائبًا[٤] بالكرك، وإلى ابن النجاحي، وهو أمير جاندار وهو [٧٤و]
يقول لهم: «تسلموا لي الكرك وأنا أعطيكمماية فارس». ووعدهم بمواعيد جميلة. فكتبا[٥] هذان الرجلان إلى الملك الظاهر:

«يا خَوند – أيّدك الله – نحن شيوخ كبار، وقد دخلنا في عشر الثمانين، ونحن يوم بيوم ننتظر الموت، وأما الإمرة فإنّا لا نصلح لها، وقد أمّنّا الملك المغيثُ على هذا الصغير ولده، ونحن نقنع بأخباز في الحلقة، والمائة فارس الذي وعدتنا بها تكون لهذا الصغير،

---

(١) كذا في الأصل، وهي: وأربعين.

(٢) أو الشذر.

(٣) البابية لقب عام لجميع رجال الطست خاناة، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك، وهو لفظ رومي معناه أبو الآباء. انظر: صبح الأعشى ٥/٤٧٠؛ والسلوك للمقريزي ١/٥٧٥ (حاشية ١).

(٤) كذا في الأصل، وهي نائب...

(٥) كذا في الأصل، وهي: فكتب هذان...

ويحلف له بالأيمان الغليظة: أنك لا تؤذيه ولا تمكِّن من يوذيه لتبرأ ذِمَّتنا منه، ونحن نسلِّمه إليك، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

قال: ولما سمع الملك الظاهر كلامهما، طلب القضاة والأشراف ومن يثق إليه من أمرائه، وحلَف أربعين يمينًا على أنه لا يؤذي الأمير فخر الدين عثمان ابن المغيث، ولا يمكِّن من يوذيه.

قال: ولما وصل كتاب الملك الظاهر ونسخة الأيمان إلى الكَرك وأوقفوا الأمير فخر الدين عثمان والطواشي بدر الدين بدر على نسخة الأيمان، وضربوا مشورةً فيما بينهم، قال شهاب الدين ابن صعلوك والي الكرك: «كل مُحاصَرٍ مأخوذ، ونحن الغلال عندنا قليل[٢]، والتبن ما في الكرك منه شيء، والشعير قليل، والرجالة الذى[٣] في الكرك قد اختلفوا علينا وصاروا فرقتين: فرقة مع الملك الظاهر وفرقة معنا، ونخاف أن تطول علينا مُدّة الحصار. والرأي/ أن نسلِّمَ القلعة للملك الظاهر، وما أراده اللهُ فهو كائن». [٧٤ظ]

قال الأمير فخر الدين عثمان ابن المغيث: فوافقتهم على ما أشاروا به، وقلت في نفسي: متى لم أوافقهم رضًا وافقتُهم غَصْبًا، وذلك لِقلَّة الأقوات عندنا، واختلاف الرجال علينا.

قال: ولما تسلَّمَ السلطان الملك الظاهر قلعة الكرك من الأمير فخر الدين ابن المغيث، وطلع السنجَق السلطاني عليها، أخذ الطواشي بدر الدين بدر العادلي الحريمَ والجوار[٤] [٧٤و] والبنات، ونزل بهم إلى الملك الظاهر. فلما حضر الطواشي بين يدي الملك الظاهر، نظر إليه وقال له: «يا طواشي، كيف يحِلُّ لك أن تعصي على أستاذك، فإني أنا الإمام وأنا أستاذك؟» قال الخادم: «يا خوند – أيدك الله – دَعْنا من هذا، وأمر لي بما نصنع مع هذا الحريم». قال: «خذهم وتوجَّه بهم إلى ديار مصر». قال الخادم: «من أين يأكلوا[٥] – أيدك الله؟» قال: «كلوا من أكياسكم». قال الخادم: «والله يا خوند لو كان لنا أكياس ما

---

(١) سورة البقرة ٧٤/٢.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) كذا في الأصل، وهي: والرجال الذين...

(٤) كذا في الأصل، وهي الجواري.

(٥) كذا في الأصل، وهي يأكلون.

سَلَّمناك الكرك». قال: فتبسَّم الملك الظاهر وقال: «والله إنكَ خادم محتشم. أعطوه ألفي درهم، وإذا عجزتم شيئًا[١] اقترض ونحن نعوِّضُكم بالقاهرة».

قال الأمير فخر الدين ابن المغيث: لما حضرت بين يدي الملك الظاهر، أكرمني وتلقّاني ملتقًا حسنًا، وتلطّف بي وقال: «مرحبًا يا فخر الدين» وقال: «طيّب قلبك إنْ كان/ الملك المغيث قد مات، فأنا الملك المغيث». [٧٥و]

قال الأمير فخر الدين عثمان: كل هذا وأنا واقف بين يديه قريب منه. فأردتُ أن أقبّل قدمه، فحاز بيده اليمنى ما بين فمي وبين رجليه. ثم أمر لي بمائة فارس، ورسم لي بالأموال والخيول والتفاصيل، وأعطاني ما لا يعطيه ملك غيرُه.

ثم نزلت إلى داري وأقمت بها أميرًا مُدَّة ثلاث سنين أو يزيد عن ذلك. وسَيَّرَ لي الملك الظاهر فرسًا بسَرْج ولجام وجوكان[٢]، وأمر لي بالنزول إلى الميدان ولعب الأُكْرة[٣] مع الأمراء.

قال الأمير فخر الدين: وكنتُ شابًّا مراهق العشرين سنة أو دون ذلك، وكنت في ذلك الوقت في خيار الزنطرة والعافية، وكنت أرمي النشاب مليح، وألعب بالرمح مليح، وألعب الأُكْرةَ مليح. فركبت ولعبت مع الأمراء. فرأيت الأُكْرَة وقد جاءت نحوي، ولم أعلم من كان يسوق خلفَها من الأمراء. وكان البيسري، وكنت غِرًّا بمعرفة الأمراء المصريين، فضربت الأُكْرَة، فوقع الجوكان في طرف كتف البيسري فاعتنق فرسَه من شِدَّة الضربة.

فنظر إليه الملكُ الظاهر وقال له بلسان التركية: «قبَّحكَ اللهُ، ما تستحي، صبي صغير يضربك بالجوكان على كتفك وتعتنق فرسك؟» قال: فنظر البيسريُّ إلى الملك الظاهر وقال له: «أما أنا إنْ كان هذا الصغير ضربني على كتفي/ فغدًا يضربُ غيري على رأسه». قال: فانتبه الملكُ الظاهرُ لما سمع هذا الكلام. [٧٥ظ]

---

(١) كذا في الأصل، ويعني: إذا احتجتم إلى شيء...

(٢) كلمة فارسية «جَوْكان» عصا معقوفة الطرف تضرب بها الكرة.

(٣) لُغَيّة في الكرة، وتجمع على أُكَر. وهي الكرة، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي؛ ومحيط المحيط. والمقصود باللعبة المعروفة اليوم بالـ Polo، وراجع: صبح الأعشى للقلقشندي.

قال الأمير فخر الدين ابن المغيث عن نفسه: كان هذا الحديث يوم السبت، وطلعت يوم الإثنين الخدمة، فأمسكني الملك الظاهر، فأقمت في السجن ثماني عشرة سنة.

وفي هذه السنة وفَد الخليفة العباسيُّ على الملك الظاهر، ويسمَّى الخليفة الأسود وهو أول من ورد من الخلفاء إلى الديار المصرية من الخلفاء العباسيين[1]، وذلك خارج عن الإمام المأمون العباسي. [٧٥و]

وفي هذه السنة مسكَ الملكُ الظاهرُ آقوشَ البَرّلي وبلبَان الرشيدي وأيبك الدمياطي.

وفيها وصل كرمون في جماعة من التتر.

وفي هذه السنة حضر صاحب ماردين إلى بين يدي هلاوون وأحسن إليه وأنعم عليه وسَيّره إلى بلده ملكًا على ما كان عليه. ولما توجه صاحب ماردين إلى بلاده أخذ هلاوون من كان معه من الأمراء على سبيل الرهينة. فلما رحل صاحب ماردين منزلتين، طلب هلاوون الأمراء الذين كانوا مع صاحب ماردين، وأمر بضرب أعناقهم. وسبب ذلك أنهم لما نزل هلاوون على ماردين وحاصرها وأراد صاحب ماردين أن يسلّمَ القلعة لهلاوون فمنعه هؤلاء الأمراء، وهم حسام الدين عزيز وفخر الدين الحاجري وألطنبا الساقي أيوب المهراني عيسى أمير تركمان/. [٧٦و]

وفي هذه السنة تغيّرت دول كثيرة، وتغيّر الحكام من جهة الحكم العزيز بمصر والشام.

وفي هذه السنة حضر الملك الظاهر بدار العدل الشريف، وذلك امتثال[2] للشرع المطهّر. وسبب ذلك أن الملك الظاهر كان قبل أن[3] يملك الديار المصرية عند قتلة الفارس أقطاي، كان قد حفر بيرًا عند تربه الشيخ أبي السعود ولم يكمل عمارته. ثم خرج إلى الشام، واستولى بعض الأمراء على البير وعمل عليه حوض سبيل. [٧٥ظ]

---

(١) هو الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد، وترجمته في الوافي بالوفيات ٣٨٤/٧ رقم ٣٣٧٨؛ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٧؛ وشذرات الذهب ٢٨٨/٥؛ وتراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة ٢١٥؛ ومختصر تاريخ أبي الفداء ١٢١/٦؛ والسلوك ٤٤٨/١–٤٥٨؛ ونهاية الأرب ٢٨/٣٠؛ وذيل مرآة الزمان لليونيني ١٦٣/٢.

(٢) كذا في الأصل، وهي امتثالًا...

(٣) في الأصل: ان ان

فلما ملك الظاهر الديار المصرية افتكر البير وسأل عنه وقيل له: أن فلانًا قد عمره واستولى عليه. فشكى السلطان للقاضي فخر الدين السبكي، وحضر السلطان والغريم في دار العدل الشريف، وجلسا وتحاكما وثبت الحق للملك الظاهر.

وفي آخر هذه السنة جَرّد الملكُ الظاهر الخليفة الأسود ومعه جماعة من العساكر الشامية ومن البغاددة والمواصلة وسيرهم لملتقا التتر، وكان مقدَّم التتر يُسَمَّى قرابغا[١]، ومقدم عسكر المسلمين أسد الدين محمود ابن الملك المفضّل والأمير سابق الدين بوزبا[٢].

ذِكْرُ قتلة الخليفة الأسود

قال: ولما وصلوا إلى أرض الموصل، التقتهم التتر، والتقا العسكران التتر والمسلمون. وكان المُصافُّ قريبًا من الموصل، وقتل بين الفريقين خلقٌ كثير، وحمل الخليفة بنفسه ولم/ يعلم أحد ما جَرى له[٣]. واختلفوا في كيفيّة قتلته: منهم من قال أن الأرض انشقّت [٧٦ظ] وابتلعته، ومنهم من قال أنه صعد إلى السماء، ومنهم من قال أنه فوق جبل هو وفرسه وهو حيٌّ يُرزَق. وعملوا مسجدًا مكان الوقعة، وهو مَزارٌ إلى الآن، والناس يزوروه[٤] ولا ينقطعون عنه.

وفي هذه السنة رجع الملك الظاهر إلى الديار المصرية وأقام بالقلعة المحروسة. ثم عَدَّى إلى البرّ الغربي ليتوجّه إلى الصيد.

وفيها سُرِقَ قُماش الملك الظاهر من خيمته، وهذا أحسن ما يُنقَلُ من محاسِن الملوك.

---

(١) راجع: السلوك للمقريزي ١/٤٦٧.

(٢) راجع: السلوك للمقريزي ١/٤٥٨–٤٦٧؛ والنجوم الزاهرة ٧/٢٠٦؛ وذيل مرآة الزمان ١/٤٤١–٤٨٦؛ وعقد الجمان للعيني ١/٣٢٨.

(٣) راجع: ذيل مرآة الزمان ١/٤٥٤–٤٥٧؛ وكنز الدرر ٨/٧٢–٨٤؛ وتالي كتاب وفيات الأعيان لابن الصقاعي ٢–٣.

(٤) في الأصل: ينذرونه، أي يقدمون إليه النذور.

ذِكْرُ سَببِ سَرِقَةِ قُماشِ الملك الظاهر

قال: كان ببلاد الشرق في جبالٍ تُعرَفُ جبال الجوز، وأهلُها جميعُهم أكراد شُطّار شُجْعان، لا يعرفون الموت، وفي كل وقتٍ يغارون(١) على التتر ويأخذون قُماشهم ويَسرقون أولادهم وخيولَهم. فجاء منهم ثلاث(٢) نفرٍ إلى الديار المصرية. فنزلوا بقريةٍ من قُرَى مصر مجاورةٍ مدينة(٣) القاهرة، تعرف كوم الريش، وهي معدن الأكراد. فلما عدّى الملك الظاهر إلى البرّ الغربي إلى الصَّيْد، نزل هؤلاء(٤) الثلاثة نفرٍ من الأكراد ليتفرّجوا في العساكر. فنظروا إلى عساكر عظيمةٍ وملوكٍ كبيرةٍ، ولم يَروا في بلادهم مثل هذه الجيوش.

فتمثّل في نفوسهم أن يسرقوا كما كانوا يسرقون في الشرق. ومن عادة ملوك المسلمين/ [٧٧و] ملوك مصر خاصّة، إذا نزلوا بأرضٍ بالبرّ يكون حول الدهليز سبع حلقات: أول حلقةِ المَشاعليّة والمَشَاعل، والثاني الحَرسية بالنواقيس والطبول، والثالث البردداريّة والجاندارية، والرابع المماليك البحرية أصحاب النُّوَب، والخامس النقباء وأمراء جاندارية، والسادس الجمدارية والسلحدارية والرِّكاب خاناة، والفراس خاناة والطشت خاناة على باب دهليز الملك، والسابع المماليك الخاسكية الصغار، والسُّقاة(٥) وما يناسب هؤلاء.

وكان للأكراد مقدّم يسمى قَمر، وكان دركُ كل من يأتي من الأكراد من الشلوح وغيرهم لا يطلب إلّا منه. فلما عَدّى هؤلاء الثلاثة نفر الذين ذكرناهم، ورأوا هذه العساكر العظيمة، باتوا في العسكر. فلما كان ثلث الليل الأخير، جاء الثلاثة إلى الحرَسيّة، فوقف منهم رجلان، وتقدم الثالث وتخطّا هؤلاء السبع طوايف الذين ذكرناهم، والجميع نايمين(٦)، إلى أن انتهَى إلى باب الدهليز. ورأى خيمةً عظيمةً، وإذا هي الركابخاناة فدخل. وكان للسلطان غلام يسمّى بغلان. فوجد سرج النوبة بباب الركابخاناة، فأخذه وأخذ حِياصة الرِّكابدار وشاشه ورجع على أثره. فوجد

(١) كذا في الأصل، وهي: يغيرون.
(٢) كذا في الأصل، وصوابها: ثلاثة.
(٣) كذا، وصوابها: لمدينة.
(٤) في الأصل: نزلوا هولا
(٥) يمكن الاطلاع على هذه المصطلحات جميعها في: صبح الأعشى ٤ وتكملة المعاجم العربية لدوزي.
(٦) كذا في الأصل، والصواب: نائمون.

الأجناد والمماليك نايمين. فأخذ ما أخذ من حوايصهم ورجع إلى أصحابه وعَدّوا/ بحرَ [٧٧ظ] النيل، وساروا إلى كوم الريش إلى بيوتهم.

فلما رسم السلطان بالركوب في الليل، قام الرّكابدار فطلب شاشه لم يجده، وحياصته لم يجدها، طلب سرج النوبة لم يجده. فصرخ وقال: «راحت أرواحنا». فقام الأمراء والأجناد والنقباء والحرَسيّة والناس، وارتجَّ العسكرُ وكادت أن تكون فتنةً. فانتبه الملك الظاهرُ مَرْعوبًا وقال: «ما الخبر؟» قالوا: «يا خوند سُرِقَ قُماشك وسَرْجُكَ من وسط خيمتك، وحوايصُ المماليك وشاش المهتار بغلان وحِياصَتُه». وكان السلطان كثير الثبات معوّدًا بالغربة والتشتيت في البرية، فجلس على الكرسي وفكّر في نفسه وقال: أنا لو وَلَّيتُ والٍ من جهتي ما تَجرّأ أحد من العرب أن يدخلَ عليه، وهذا ما هو فعل مَنْسِيٍّ ولا فِعْلُ أحدٍ يعرفني، ولا أحد من عسكري ولا مماليكي.

ثم طلب قمر مقدّم الأكراد الشلوح. فلما حضر بين يديه قال له: «واللهِ متى أُذّن الظهر ولم يكن عندي سَرْجي وقُماش المماليك، شنقتك على باب هذا الدهليز». فقال قمر مقدّم الشلوح: «وحَقِّ راسك يا خوند ما يؤذّن الظهر إلّا وقُماشك عندك. ثم عَدّا بحرَ النيل، ووصل إلى كوم الرّيش ودخل على الأكراد. فقاموا وقبلوا يده. قال لهم:

«أين كنتم البارحة؟» قالوا: «بتنا في العسكر وسرقنا هذا القماش، ورأينا/ هذا [٧٨و] السرْجَ سَرْجًا عظيمًا مكَلَّلًا باليواقيت والجواهر، فخفنا أن يكون سَرْجًا من سُروج الأمراء الكبار، وهذا السَرْج تركناه إلى أن تحضرَ أنت».

قال: فنظر قمر إليهم وقال: «لا تخافوا هذا سَرْج السلطان الملك الظاهر». قالوا: «وهذا القماش؟» قال: «قماش غلمانه ومماليكه». قال الأكراد: «نحن من أين والسلطان من أين؟» قال لهم قمر: «هذا القُماش الذي أخذتموه من وَسط خيمة السلطان، فلا تخافوا فإنكم ما ترجعوا إلا وأنتم أجناد». فأخذ قَمر السرْجَ والقماش والشلوح وأتى بهم إلى السلطان. فلما حضروا بين يديه قال: «من فيكم تجرّأ على خيمتي هذه؟» قال أحدهم: «أنا يا خَوند». قال: «وما حملك على هذا؟» قال الكردي: « – أيد الله السلطان – أنا ورفاقي لنا في الديار المصرية ثلاثة أيام، ونحن معوّدين في بلادنا نسرق من عساكر التتر ونغار[1] عليهم ونأخذ ما نقدر عليه من أموالهم وأولادهم، وما نعرف ترتيب هذه البلاد».

---

(١) كذا في الأصل، وهي: نغير.

[٧٧ظ] قال الملك الظاهر : «هؤلاء صَدقوا». ثم أمر أن يخلعوا على الثلاثة فألبسوهم الخِلَع، ورسمَ لهم بثلاث إقطاعات، كل إقطاع عشرة آلاف درهم، وجهّز الثلاثة إلى ثلاث(١) ملوك من ملوك التتر بالشرق. وتجهّزوا الثلاثة إلى الشرق، وقتلوا الملوك الذين أمرهم بهم الملك الظاهر، وقتلوهم(٢) التتر.

[٧٨ظ] وفي هذه السنة وصل الخبر للملك الظاهر أن التتر نزلوا على البيرة، فجرّد السلطان/ إيغان(٣) سم الموت وآقوش المحمدي(٤). وكان مقدّم التتر يسمى صندغون(٥) وكان مع التتر الملك المظفر صاحب ماردين، ونصبوا على البيرة المجانيق وحاصروها.

وفي هذه السنة كان بالشام جُوع وقَحْط وغلاء وبلاء وخراب الضياع، إلى أن وصَل المكوك في دمشق أربعين دينارًا، والشعير والفُول لم يوجدا.

وفي هذه السنة سَيّر هلاوون رسُلَه إلى الملك الصالح(٦) إسمعيل ابن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يقول له: «تسلّمني القلعة». فجمع الملك الصالح أمراءه وشاورهم في تسليم القلعة. فأشاروا عليه أن تسلّمَ القلعة للتتر. فسلّمها لهم. وكان سوء التدبير وسوء الرأي. وفي يوم الجمعة خامس شعبان من هذه السنة تسلّمت التتر قلعة الموصل، وقتلوا كل من كان بها، وسَبَوا ونَهَبوا وفعلوا أقبح ما يكون وأقبح ما فعلوه أولًا، وقطعوا رأس الملك الصالح إسمعيل وعلّقوها على الجِسْر، وقتلوا ابن [٧٨و] الملك الصالح(٧).

وفي هذه السنة توجّه الملك المجاهد صاحب الجزيرة(٨) والملك المظفّر علاء الدين صاحب سِنْجار إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر. قال: ولما قَدِمَ عليه هذان

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: ثلاثة.

(٢) كذا، وهي: تجهّز الثلاثة، وقتلهم التتر.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤/١٠ رقم ٤٤٦٥؛ والمنهل الصافي ١٨٧/٣ رقم ٦١٢؛ والسلوك ٦٣٣/١.

(٤) ترجمته في الوافي ٣٢٣/٩ رقم ٤٢٥٧؛ والمنهل الصافي ٢٣/٣ رقم ٥١٥.

(٥) السلوك ٤٦٨/١ «والحصار هنا على مدينة الموصل؟!!».

(٦) السلوك ٤٦٨/١، ٤٧٥.

(٧) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٩٣/٩ رقم ٤٠٩٩؛ وذيل مرآة الزمان ٤٩٢/١؛ وتالي كتاب وفيات الأعيان لابن الصقاعي ٣-٥؛ والسلوك ٤٦٠/١-٤٦٨.

(٨) السلوك ٤٦٠/١.

الملكان، عَظُمَ عليه ذلك وقام لهم وتلقاهم[١] ملتقًا حسنًا وأكرمهم إكرامًا عظيمًا، وأعطى الملك المجاهد مائة فارس، ورسم له بنصف الفيّوم إقطاعًا له. وكذلك فعل بالملك المظفر، أعطاه أشياء كثيرةً/ وصار عنده أعزّ الناس. [٧٩و]

وفي هذه السنة، وقع الاختلاف بين التتر هلاوون وبركة، ورحل هلاوون من إقليم الشرق وطلب بلاد بركة، والتقت العسكران، وقُتِلَ بينهم خلقٌ لا يعلم عِدَّتَهم إلّا الله تعالى.

ذِكْرُ سبب اختلاف التتر

قال صاحب التاريخ[٢]: إن التتر لما ظهروا من الشرق أول ظهورهم، رسم لهم شنكِزخان أنه كل من فتح بلدًا من البلاد يكون الثلُث من المكسب لبيت بركة، والثلث لبيت شَنكِزخان، والثلُث له ولعسكره. فلما مات شنكِزخان لم يخرج أحد من التتر عن حكمه ولا عمّا رسم به.

فلما وصل الامر إلى هلاوون وفتح الشرق والعَجم والعراق، وأخذ الأموال، لم يُسَيِّرْ إلى أحَدٍ من التتر شيئًا، وأخذ الأموال جميعَها لنفسه، ولم يُسَيِّرْ لبيت بركة شيئًا، ولا لبيت شَنكِزخان، ويسمى بيت باتوا[٣] وهو الملك الكبير العظيم الذي لهم. فعَظُمَ ذلك على بيت بركة، وسَيَّرَ رسُلَه إلى الملك الظاهر صاحب مصر يقول له: «نحن من الشرق وأنت من الغرب ونحن نأخذ عسكر هلاوون بيننا ولا نُبقي منهم رجلًا واحدًا[٤]». فأنعم له الملك الظاهر بذلك، وتقرر الأمر بين الملكين على ما ذكرناه. فلما بلغ هلاوون اتفاق الملوك عليه، جهّزَ جيشَه وطلب بلاد بركة[٥].

وفي هذه السنة وصل الخبر إلى الملك الظاهر أن رسُلَ بركة قد وصلوا إلى هلاوون، وأنه ضَرَب رِقاب/ الجميع، وخرج بالعساكر إلى الاضاغ[٦] ووصل إلى [٧٩ظ]

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: لهما وتلقاهما... وأكرمهما...
(٢) راجع: ذيل مرآة الزمان لليونيني ٢/١٦١.
(٣) ذيل مرآة الزمان: بيت باتو.
(٤) قارن برواية السلوك ١/٤٩٥؛ ونهاية الأرب ٣٠/٨٧.
(٥) راجع: نهاية الأرب ٣٠/٨٧.
(٦) كذا في الأصل، أما عند ابن الفرات ٧/١٠٠: الاطاع؛ وأبو الفداء ٧/١٤: الاطاغ؛ وكذلك في ذيل مرآة الزمان ٢/١٦٢.

نهر كوتا[١] ووصل إلى تمر قانوا[٢]. ولما بلغ بركة وصول هلاوون إلى بلاده، رسم أن تخلا[٣] له البلاد وألّا يقف أحد بين يديه ولا يقاتله أحد. ثم أخلوا له البلاد مدة خمس[٤] عشر يومًا.

قال صاحب التاريخ: إن نهر سَيْحون نهر عظيم يعادل ماء النيل أو يزيد عنه في العَرض، وأنه في كل سنةٍ ينزل عليه الثلج فيغطّيه أكثر من سَبْع قامات إلى أن يساوي الجبال أو دونها، ويقيم كذلك تسعة أشهر، تسافر عليه المسافرون والتجار والملوك، ويقاتلوا بعضهم بعضًا. فظهر بذلك أن تلك البلاد تسعة أشهر شتاءً وثلاثة أشهرٍ صيفًا.

فلما عدّى هلاوون نهر جيحون، فوجد البلاد شاغرةً وقد هرب عسكر بركة، فأوغل عسكر هلاوون في البلاد، ونهبوا وكسبوا مثل البقر والغنم وما يناسب ذلك. فإن التتر لم يعرفوا القماش ولا الحشمة، وعيشُهم عيشُ الكلاب من الجُوع والقَحْط وسوء اللباس وقلّة الأرياف والثمار، ولا يعرفون غير القُنْدُس[٥] والفرو، وما يناسب هذه الأشياء القبيحة. فلما سمع بركة أن عسكرَ هلاوون قد أوْغَل في البلاد نادَى في جيشه أن: «يركب من عمره عشر سنين».

فركب خلق لا يُدرى/ أولُها من آخرها. وأما هلاوون فإنه أصبح وهو معتقد أنه [٨٠و]
ملَك بلاد بركة، إذ رأى هواءً سَمومًا سُخْنًا. فقال لمن عنده: «ما هذا الهواء السَّموم؟» فخرجوا ودخلوا عليه وقالوا له: «هذا الهوى[٦] حرارته من نفس الخيل».

وكان في جيش هلاوون رجلٌ كبيرٌ السنّ يسمّى صمغار، فطلبه وكان مُقْعَدًا قد بَطُلَ نصفُه، وكان لا يحضر في جيش إلّا وينكسر من كان محاربه، وينتصرُ على عدوه.

---

(١) كذا في الأصل، أما عند اليونيني ٥٣٥/١: نهر كوبا أو نهر كوثا.

(٢) كذا في الأصل، أما عند اليونيني ٥٣٥/١: دمر قانو.

(٣) كذا في الأصل، وصوابها: تُخْلى.

(٤) ذيل مرآة الزمان: خمسة عشر يومًا.

(٥) حيوان مائي لبون من رتبة القواضم، تتخذ منه الفراء، وهو معرب كلمة «كُنْدُر» الفارسية. راجع: لسان العرب.

(٦) المقصود: الهواء.

وكان من جُملة إقطاعه توريز وأعمالها. وسبب نصرته أنه إذا التقا[١] عدّوَه ينزل عن فرسه ويقول لأصحابه: هأنا قاعد هنا، فمَنْ شاء يقاتل عني ومن شاء يدعني».

فلما طلبه هلاوون حضر بين يديه. قال له: «ما تنظر هذا الجيش؟» فأخذ صُمْغار مقرعتَه بيده، ونظر فيها من أولها إلى آخرها، وقال لهلاوون: «هذا قُدّام مقرعتي ستمائة ألف ويفيض من هنا ويفيض من هاهنا، وما أعرف عِدَّة هذا الجيش». قال: فعند ذلك رسم هلاوون: «كل من عدّا نهر سيحون قِبَلَ القان مات».

ثم انهزم هلاوون ومن معه من المُغل من خواصّ عسكره. فلما قطع النهر وَعدّا انكسر الجيش وراءه، وتزاحمت التتر في الهروب. فانخسف بهم الثلج وهي قطعة من الثلج مسافتها ثلاثة أيام. فلم يسلم من التتر من يردّ خبرًا. فكان كل من تقدّم هاربًا غرقَ ومن تأخر قتل. فأما الذين غرقوا/ فإنه لا يُدْرَى عِدَّتُهم، وأما الذين تأخروا قُتِلوا جميعًا. [٨٠ظ]

ولما حضر بركة ورأى تلك المقتلة، أمر أن تُجمَعَ القتلَى، فجمعوهم وعملوهم ثلاثة كيمان تِلالًا عظيمةً، وقد صقلتهم الأمطار والرياح، وقد ابيضَّت عِظامُ القتلى وتنظرهم المسافرون من مسافة يومين، وهذه الوقعة تسمّى نوبة تمرقابوا[٢]، وهرب هلاوون في نفر يسير.

قال صاحب التاريخ: لما وقف بركة على المقتلة ورأى مقتلةً شنيعةً قال: «قَبَّحَ الله هلاوون، هكذا تُقتَلُ المُغل بسيوف المغل. لو كانت كلمتنا مجتمعةً لفَتحنا الأرض بكمالها».

وفي هذه السنة سيرّ الملكُ الظاهر الأمير شمس الدين الفارقاني إلى الوجه القبلي إلى دنقُلة ومعه مايتا فارس وخمسة من الأمراء.

وفي هذه السنة كان بالشرق أمور عظيمة وحروب ومُصافّات، وسنذكرها إنّ شاء الله في هذا التاريخ.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: التقى.

(٢) ذيل مرآة الزمان: دمر قابو.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها فتح الملك الظاهر قَيْسارية[١] بالسيف، وخرّبها إلى الأرض. وهذه أول فتوح الملك الظاهر[٢]. ونزل على أرْصوف[٣] وفتحها، ولما فتحها خرّبها وفرّق ضِياعَها على الأمراء، وأعطا[٤] الأمراء المجرَّدين كل منهم نصيبًا، ووهب أيضًا للملك علاء الدين ابن صاحب الموصل نصيبًا. وهاتان القلعتان كانتا أول/ فتوح الملك الظاهر. [٨١و]

وفي هذه السنة وصل الخبرُ إلى الملك الظاهر أن التتر وصلوا إلى البيرة[٥]، وكان كذبًا من القائل.

وفيها وصل الخبرُ أن هلاوون مريض بمرض يقال له الصرَع، ويعتريه في النهار مرّتين.

وفي السنة مات هلاوون - لا رحمه الله - وكانت موتته بقلعةٍ تُعرَف بقلعة تلا من أعمال قشلاق، وكانت وفاته ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الآخر يوم الأربعاء من هذه السنة.[٦]

وفي هذه السنة وصل الخبر أن عسكر هلاوون قد اجتمع على ولده أبْغا[٧].

---

(١) بالفتح ثم السكون، بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام... انظر: معجم البلدان لياقوت.

(٢) راجع: عقد الجمان للعيني ١/٣٩٦؛ والروض الزاهر ٢٣٠؛ وتاريخ الاسلام للذهبي (٦٦١-٦٧٠) ١٧؛ وذيل مرآة الزمان ٢/٣١٨؛ والمختصر لأبي الفداء ٧/٥؛ والسلوك ١/٥٢٦؛ وكنز الدرر ٨/١٠٧.

(٣) كذا في الأصل، وهي في جميع المصادر: أرْسوف، راء مع السكون وضم السين، مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، وكانت ثغرًا للمرابطة. راجع: معجم البلدان.

(٤) كذا في الأصل، وهي: أعطى الأمراء المجردين كلًّا...

(٥) بلد قرب سُمَيْساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة، ولها رستاق واسع. وحول حصارها، انظر: ذيل مرآة الزمان ٢/٣١٨؛ والسلوك ١/٥٢٤.

(٦) وفي الهامش: هلاك هلاوون إلى العقاب الشديد وعذاب الهُون.

(٧) أنظر خبر موت هولاكو وتولي ولده أبغا في تاريخ الاسلام للذهبي (٦٦١-٦٧٠) ١٩؛ والوافي بالوفيات ٦/١٨٧ رقم ٢٦٣٩؛ والمنهل الصافي ١/١٨٥؛ والنجوم الزاهرة ٧/٣٤٨؛ وعقد الجمان ١/٤١٧؛ وكنز الدرر ٨/١١٤.

ذِكْرُ ما جَرى للأمير شمس الدين الفارقاني بالوجه القِبْلي بإقليم دُنْقُلة

قال سنقر الفارقاني(١): «لما توجهتُ إلى دُنْقُلة، لم يقف أحد بين يدي من السودان ولا العربان. فأخذت العساكر وسُقت وراءهم اثني عشر يومًا، فلم أجد أحدًا يقابلني، فأخذتُ العساكرَ وعَدّيت بر الشرق من النيل. ثم أنزلت العساكرَ في برّ الشرق، وأخذت معي الدللا(٢)، وأخذت معي من العساكر من كل عشرة واحدًا من خيار الجيش، وسُقنا مدة اثني عشر يومًا حتى انتهينا إلى أرض. فسألت الدللا عن تلك الأرض فقالوا: والله من آباينا وأجدادنا ما سمعنا أن أحدًا وصل إلى هذه الأرض».

قال الفارقاني: «قلت للدللا: وما اسم هذه الأرض؟ قالوا: لم نعلم لها إسمًا ولا يعيش في هذ الأرض/ شيء من الحيوان». [٨١ظ]

قال الفارقاني: «فرأيت بتلك الأرض نخل مُقِل(٣) قصير المقدار، ورأيت بها خضرةً مثلَ البستان، فقلت للدللا: ما هذا البستان؟ قالوا: يا مولانا ما هذا بستان، ولكنها أرض مسافتها ثلاثة أيام طولًا وعرضًا. ورأيت بروؤس النخل أعشاشًا. فقلت للدللا: من يأوي هذه الخضرة. قالوا: ما يأويها(٤) غير النموس وطير يقال له الدرّة. قلت: وما هذه الأعشاش التي في رؤوس النخل؟ قالوا: ما هي أعشاش، وإنما النيل في كل سنةٍ يعمّ هذه الأرض التي نحن بها ويملأ هذه البرية التي تراها إلى أن يصل إلى روس النخل، ويقذف القشّ من قُوّة زَخْم التيار إلى أن يعلو روس هذه النخل فيصير أعشاشًا».

قال الفارقاني: «فنظرت إلى شمالي، وإذا أنا بجبلٍ أبيض مثل الثلج، فقلت: وما هذا الجبل؟ قالوا: هذا جبل الرخام. قلت: وكم بيننا وبينه؟ قالوا: يوم وليلة».

قال الفارقاني: «فتركت تلك الجنود التي معي عند الخضرة، وأخذت معي خمس مماليك والدللا ومضيت إلى أن انتهيت إلى جبل الرخام، وإذا هو جبل مقابل الشعاع وفيه من العُمد المقطوعة والقواعد وبعض الأعمدة ملصقة بالجبل لم يقطع، وبعضهم قطعوه، وهو ملقًا على جنبه ما ينيف عن ألف ألف/ عامود أو يزيد عن ذلك. فقلت للدللا: أين [٨٢و]

---

(١) بالهامش: وهما فارقانيان أحدهما نائب الملك السعيد بن الملك الظاهر.

(٢) كذا في الأصل، وهي: الأدلاء.

(٣) كذا في الأصل، وهي: نخلًا مقلًا...

(٤) كذا في الأصل، وهي: يأوي إلى... يأوي إليها...

بحر النيل مِنّا في هذا الوقت؟ قالوا: خمسة أيام. قلت: وكم بيننا وبين البحر المالح المحيط بحر السويس؟ قال الدللا: والله يا مولانا هذا الحال لم يعرفه أحد مِنّا ولا أبانا[١] وأجدادنا». قال الفارقاني: «فاستدلّيت بعقلي وبظاهر الحال أن بحر النيل المبارك ما خلفه من القبلة بحر آخر.

وفي رابع عشر ذي الحجة من هذه السنة يعني سنة ثلاث وستين وستماية مسك الملك الظاهر سنقر الأقرع[٢] وسنقر الرومي[٣].

وفي ثاني عشر شوال سلطن الملك الظاهر ولده الملك السعيد بركة قان[٤] ومسك جماعةً من الأمراء العزيزية والناصرية.

وفيها صار الحكم العزيز أربعة مذاهب، ولم يكن الأمر قبل ذلك كذلك، ولكن كان مذهبًا واحدًا وقاضيًا واحدًا وهو الشافعي[٥]. وسبب ذلك أن الأمير علاء الدين الوزيري كان يكره القاضي الشافعي، فإنه لا يسمع كلام الجند ولا شهادتهم، ولا يسمع إلّا شهادة العُدول. وكان يتوقّف في الأمور التي لا ينبغي التوقُّفُ فيها ويقول: «هذا لا يجوز في مذهبي». فشكى الأمير علاء الدين أيدغدي الوزيري للملك الظاهر حالَه وحالَ المسلمين مع القضاة[٦].

ذِكْرُ ما فعله الملك الظاهر في الأمور الشرعية

ثم إن الملكَ الظاهر/ جلس في دَسْت المملكة بالقلعة، وأوقف المماليك والأمراء يمينًا وشمالًا على قدر مراتبهم، وطلب القاضي ومعه جماعة من أبناء جنسه من سائر المذاهب. فلما حضروا بين يديه قال السلطان: [٨٢ظ]

---

(١) كذا في الأصل، وهي آباؤنا.

(٢) ترجمته في الوافي ١٥/٤٩٠ رقم ٦٥٤؛ وكنز الدرر ٨/١١٥؛ وتاريخ الاسلام للذهبي (٦٦١–٦٧٠) ٣٠٦ رقم ٣٤٣؛ والمنهل الصافي ٦/٨٧.

(٣) ترجمته في السلوك ١/٥٤٠؛ وكنز الدرر ٨/١١٣.

(٤) راجع: زبدة الفكرة ٨٩، ١٦١–١٧١.

(٥) حول هذا الأمر راجع: تاريخ الاسلام للذهبي (٦٦١–٦٧٠) ٢١ (حاشية ١).

(٦) ترجمته في تاريخ الذهبي (٦٦١–٦٧٠) ١٦٢ رقم ١١٧.

«ما تقول يا قاضي في هذه الأمراء والجُنْد والمماليك؟» قال القاضي: «هؤلاء ركنُ الإسلام، وهؤلاء إقامة الدين وسَيْفُ الشرع وركن الإيمان».

قال السلطان: «إذا كانوا يوم القِتال يقاسوا المجانيق والنشاب والسيوف والرماح، وهم غارقون في الوحل والحجارة على أكتافهم وهم يحاصرون العدو، أين تكونُ بقايركم(١) يا قضاة؟» قال القاضي: يكونون منتصبين في المحاريب للدعاء لهم».

قال السلطان: «فأنتم عند الله – تبارك وتعالى – في ذلك الوقت مثلُهم؟» قال القاضي: «اللهم لا». قال السلطان: «فلِمَ لا تقبل شهادتهم يا قاضي؟».

وفي ثاني شهر(٢) ذي الحجة من هذه السنة، جلس الملك الظاهر في دار العدل بالقلعة ومعه القضاة وأرباب دولته، فوقع في يد السلطان قصة مضمونها أن: «نحن اشترينا دارًا من القاضي السنجاري(٣). وبعد وفاته طلعت حُبْسًا». وكانت القصة من بيت الملك الناصر صاحب حلب. فأخذ السلطان القصّة ورماها للقاضي وقال: «ما تقولون في هذه الأشياء/ التي تفعلونها يا قضاة المسلمين؟». [٨٣و]

قال القاضي: «يا مولانا كلُّ شاةٍ معلّقة بعرقوبها(٤)». قال السلطان: «فكيف يكون الجواب في هذه القصة؟» قال القاضي: «إذا ثبت الوقف يُعاد الثّمن». قال السلطان: «فإن كان الوَرثة فقراء؟» قال القاضي: «يرجع الوقف إلى أهله ولا يُعاد الثمن». فامتنع السلطان عن ذلك وقال: «لا يحل لنا أن نُضيع أموال الناس».

ثم تقدم رسول صاحب المدينة – شَرّفها اللهُ تعالى – وقال للسلطان: «يا خوند أنت كتبت لي كتابًا إلى هذا القاضي أن يسلّمَ لي مبلغ الوقف الذي لأهل المدينة، فلم يرجع إلى كتابك». فالتفت السلطان إلى القاضي وقال: «أهكذا هو؟» قال: «نعم». قال السلطان: «ولِمَ تفعلْ هذا؟» قال القاضي: – «أيّد الله مولانا – إن الوقفَ لفقراء المدينة، وهو تحت

---

(١) جمع بقيرة، وهي قميص بلا كمين للنساء، وهو تعبير استعمله السلطان للدلالة على قعود القضاة عن القتال تشبيهًا لهم بالنساء.

(٢) أنظر: تاريخ ابن الفرات ٨٩/٦ظ: ثاني عشر.

(٣) ترجمته في تاريخ الذهبي (٦٦١–٦٧٠) ١٦٢ رقم ١١٧.

(٤) في جمهرة الأمثال للعسكري ١٥٢/٢: «كلُّ شاةٍ تُناطُ برجلها» أي تعلّق؛ وكذلك في مجمع الأمثال للميداني ١٠٦/٢.

يدي ومعلّق بذمتي، ولا يحلُّ لي أعطيه[1] لمن لا أعرفه، وهذا الرجل لم أعرفه. فإن كان مولانا السلطان – أيّده الله – يعرفه ويعرف دينه، سَلَّمتُ المال إليه، وخلّصت عنقي منه». قال السلطان: «نِعْمَ ما فعلتَ يا قاضي، لا تسلِّمِ المالَ إلّا لمن تعرفه أنت وأنا، ونعرف دينه».

وفي هذه السنة شهد عند القاضي بعض الجُنْد فلم يقبل القاضي شهادته، وقيل بعض الأمراء. فبلغ السلطان ذلك وقال له: «لِمَ لا تقبلْ شهادة الأمراء والجند؟» قال القاضي: «لا حاجة لي في القول عنهم». فغضب السلطان/ لهذا الكلام. وقال السلطان: «إنْ كنتَ تعلمُ [٨٣ظ] منهم شيئًا فقل». قال القاضي: «لا أعلمُ منهم إلّا خيرًا، وإنّما مولانا السلطان – أيّده الله – يعلم أنّ مِنَ الأمراء والجند منهم مَنْ جهته على المكس، ومَنْ يأكلُ المكْسَ لا يحِلُّ أنْ تُقبَلَ شهادتهُ، ومولانا – أيّده الله – يعرف عسكره، جيّدَه ورديّه، فإذا أراد أن يُعدِّلَ أحدًا منهم فليغيِّرْ جهتَه إلى الطين، ونحن نعدّل من يختار مولانا السلطان من عسكره من الأمراء والجُنْد[1]».

وفي هذه السنة أحضرَ السلطانُ جماعةً من الأمراء والمقدَّمين والجُنْد وعَدّلوهم، وقبل الحُكّام شهادتَهم. واستمرَّ الحالُ على ذلك إلى يوم تاريخه، ولم يكن الأمر قبلَ ذلك كذلك. وكان قبل سلطنة الملك الظاهر لا تَقْبَلُ الحكامُ شهادة الجُنْد ولا الأمراء ولا المقدَّمين. [٨٣و]

وفي هذه السنة خرج الأمير علاء الدين كُنْدُغْدي الوزيري[2] عن مذهب الشافعي ودخل في مذهب الإمام السيّد أبي حنيفة. وكان القاضي في ذلك الوقت الحنفي القاضي صدر الدين سليمان[3]، والحنبلي القاضي شمس الدين فخر الملوك[4]، والمالكي شرف الدين محمد السبكي[5]. وأضافوا إرْثَ بيت المال للشافعي.

وفي هذه السنة شنقوا الشريف ابن ثعلب، وكان صَلْبُه ووفاتُه بثغر اسكندرية،/ [٨٤و] وكان الوالي بها يومئذٍ شمس الدين محمد بن باخل[6].

وفي هذه السنة قتَل الملكُ الظاهرُ الريد أرناط صاحب جبيل.

---

(١) كذا في الأصل، وهي إما أن تكون: أن أعطيَه... أو: إعطاؤه...

(١) راجع حول هذا الأمر ما ورد في السلوك ١/٥٣٨–٥٤٠.

(٢) أنظر: السلوك ١/٥٣٨ «أيدغدي»، وراجع ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٤٨٤ رقم ٤٤٤٦.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٥/٤٠٤ رقم ٥٥٢؛ وانظر: السلوك ١/٥٣٩.

(٤) ترجمته في الوافي ٢/٩ رقم ٢٦٣، وهو: شمس الدين محمد بن ابراهيم...

(٥) ترجمته في الوافي ٢٢/٥٠٢ رقم ٣٥٣؛ والسلوك ١/٥٩٦.

(٦) ترجمته في الوافي ٢/٢٤٢ رقم ٦٤٤.

ذِكْرُ قتله صاحب جبيل

قال: كان صاحب جبيل ملكًا جليلًا بين ملوك الفرنج، وله صورة عظيمة بينهم، وكان يؤذي المسلمين أذًى كبيرًا، وينقم عليهم ما يفعلون في أديانهم، ويقول: إن المسلمين ليسوا على شيء. وكان في كل وقتٍ رجاله يعيثون على المسلمين، وعلى ضِياع الشام، وكُلّ من أخذوه من المسلمين سَيَّروه إلى قبرص.

وكان هلاوون لما فتح مدينة حلب، وأراد الرجوعَ إلى الشرق، كتب صاحب جبيل إلى هلاوون: «تسيِّر لي عشرة آلاف فارس من عندك، وأنا آخذ ألفَ فارسٍ من الفرنج، وأنا أفتح لك الديارَ المصرية». وقال له في جملة كلامه: «إن البحرية لا شيء، وإنهم مختلفون[(١)] الآراء، يكثرونَ الكذب والمُحال، ومتى ساعدتني فتحتُ لك الديار المصرية».

وكان هلاوون رجلًا حكيمًا كما ذكرنا، فلم يرجعْ إلى كلام صاحب جُبيل، ورجع هلاوون إلى الشرق.

فلما ملك الملك الظاهرُ الديارَ المصرية، لم تكن له هِمّةٌ ولا شُغْلٌ غير صاحب جُبَيل، وعمل على قتله. وكان بالشام رجلٌ يسمَّى السابق شحين ويقال السابق شاهين[(٢)]، وكان مؤاخيًا مع صاحب جبيل. وكان الملك الظاهر يناديه «أخي»/. وكان السابق [٨٤ظ] شاهين رجلًا قَصْد القامةِ إلى الغاية، رقيقَ البشرة. وكان لا يعرفُ يركبُ الفرسَ. وكان على الأرض عظيمَ المقدار. وكانت الفرنج يخافون[(٣)] منه خوفًا عظيمًا، حتى أنّ الفارسَ من الفرنج إذا جفلَ فرسُه يقول له: السابق شاهين في الماء؟

ومن جملة فِعاله أنه كان يأتي إلى الطواحينِ الذين للفرنج على الماء. ويطرق البابَ أو يكسره، ويدخل يربط الخيالة على الرجّالة، ويعبر بهم إلى دمشق، والناس يتفرّجون عليه. وكان له همةٌ عظيمة في الإقدام على الفرنج وقتلِهم.

فطلبه الملك الظاهر وهو نازل على غَزّة، وقال له: «تقتل صاحب جبيل؟» فقال السابق شاهين للملك الظاهر: «يا خَوند – أيّدكَ اللهُ – كيف أقدِرُ أقتل أخي، وأنت تعلم

(١) كذا في الأصل، وصوابها: مختلفو.
(٢) السلوك ٥٥٩/١.
(٣) كذا في الأصل، وهي: وكان الفرنج يخافون...

أني عند الملوك لي صورة كبيرة، فإنهم لا يعرفون الكذِبَ. ومتى قتلته صارت الفرنج[١] الجميع أعدائي؟» قال الملك الظاهر: «إخْتَرْ لنفسك هاذين الشيئين: إما أن تقتلَ صاحبَ جبيل أو أقتلُك».

فلمّا ثبت عند السابق شاهين أن الملكَ الظاهرَ لا بد له من قتل صاحب جبيل، ورأى أن محلَّه عند المسلمين أعظم من محلِّهِ عند الفرنج، وكان السابق شاهين رجلًا جبليًا [٨٥و] من جبال عاملة من أعمال صفَد وحصْن عكار[٢]، فقال للملك الظاهر: / «يا خَوند أنا أقتلُه - إن شاء الله تعالى - بسعادتك».

قال الملك الظاهر: «كيف تقتله؟» قال السابق شاهين: «أقتله بسعادتك». قال الملك الظاهر: «لا بد أن تعرِّفَني كيفَ السبب في قتله». قال السابق شحين[٣] للملك الظاهر: «يا خَوند، غدًا - إن شاء الله - تحضر بين يديك رُسُلَ عكا ويشفعوا عندك أنك لا تغار[٤] على عكا، فلا تَقبلْ شفاعتَهم، وقل لهم: مَنْ أعلمكم أني أغار على عكا؟ فهذا كلام لم يظهر مني لأحدٍ، واطلبني إلى بين يديك، وقل: ما على المسلمين ولا عليَّ أضَرُّ منك أنت، تنقلُ أخبارَ المسلمين للفرنج يوم[٥] بيوم، وابطحْني واضربْني خمسَ عِصِيٍّ، واعتقلني في الزردْخاناة. فإذا فعلتَ معي هذا قدرتُ أن استظهرَ على قتل صاحب جبيل».

فلمّا كان الغداة، جاء الرسل من عَكّا إلى بين يدي السلطان وسألوه ألّا يغار على عكا: «ونحن نحملُ لكَ الخَراج وأيَّ شيءٍ أمر به مَولانا السلطان فعلناه».

قال الملك الظاهر: «فمَن الذي عَرَّفكم أني أغار على عكا؟» قالت الفرنج: «سمعنا هذا». قال الملك الظاهر: «اطلبوا السابق شاهين». فلما حضر بين يديه قال له: «يا سابق، أنتَ تنقلُ أخبارَ المسلمين إلى الفَرنج وتعرِّفُهم ما يجري عندنا يومًا بيوم».

ثم أمر أن يبطحوه، فرموه وضَرَبه الملكُ الظاهرُ خمس مابة دبُّوس. ثم أمر أن يعملوا [٨٥ظ] في/ عنقه سلسلةً، وفي رجله قَيْدًا، وأن يضيِّقوا عليه. كل هذا ورسُل الفرنج وقوفًا[٦]

(١) كذا في الأصل.
(٢) ربما كانت «عكا»، وليس «عكار».
(٣) كذا في الأصل.
(٤) كذا في الأصل.
(٥) كذا في الأصل، وهي: يومًا...
(٦) كذا في الأصل، وصوابها: وقوف.

ينظرون ما يجرا[١] للسابق شاهين. ثم رسم السلطان للرسل أن يرجعوا إلى عَكّا منشرحين الصدور.

فلما كان اليومُ الثاني، قال الملك الظاهر للبيسري: «امضِ إلى الزَرْدخاناة، وانظر السابق شاهين وأيَّ حالٍ هو عليه، وسَلِّمْ عليه عني».

فلما جاء البيسري إلى السابق شاهين، وجدَه في أنحَس الأحوال مزنجرًا مُقَيَّدًا. فلما نظر إليه الأمير بدر الدين بيسري، تبسَّمَ ضاحكًا فقال له السابق: «يا مير بدر الدين، تضحكُ وأنا هكذا؟» فقال له بيسري: «لا تَخَفْ يا سابق الدين، كل هذا خيرات وأنعام تتصل إليك». ثم فك قيده بيده وقلع الزنجير من عنقه.

فلما حضر السابق بين يدي السلطان قال له: «قُلْ لي بأيِّ سببٍ تقتل صاحب جبيل؟» قال السابق: «يا خَوند، مُرْهُم أن يأتوني بدواة وورقة». فكتب السابق شاهين إلى صاحب جبيل:

«من عند أخيه وغُلامه شحين إلى الملك الريد أرناط – وفقه الله تعالى – . يأخي، لا تسلْ ما جَرَى عليَّ بسببك من السلطان الملك الظاهر. ضربني وَقيَّدني وزنجرني واعتقلَني في الزردخاناة بحضور فلان وفلان رسُل عكا. كل هذا حتى أني أقتلك[٢] يأخي، فتحترزْ على نفسك وتعرف كيف تكون، ولا تمكِّنْ أحد[٣] من الدخول لا من المسلمين ولا من الفرنج. وإذا جاك كتابا[٤] من جهتي/ فلا تقرأه إلا وأنت وَحْدَك، [٨٦و] ولا تأمَنْ لأحدٍ من ملوك الفرنج، وإني بعد هذه الفتنة لم أقدر أن اجتمع بك خوفًا من الملك الظاهر. يأخي ولا تثقْ لأحدٍ من جِهتي إلّا لغلامك محمد إبن أختي، فقد أقمته بيني وبينك مقامَ نفسي».

ثم دفع السابقُ الكتاب للملك الظاهر وقال: «يا خَوند إقرأ هذا». فلما وقف الملك الظاهر على كتاب السابق شاهين، أنكره وقال: «يا سابق هذا كتاب من يقتل أخاه؟» قال: «والله يا خَوند ما يقتله إلّا هذا الكتاب».

---

(١) كذا في الأصل، وهي: يجري...
(٢) كذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل، وهي: أحدًا...
(٤) كذا في الأصل، وهي: جاءكَ كتابٌ.

ثم إنّ الملكَ الظاهرَ رسم لمقدمي الداوية بعكا أن: «يكون في الليلة الفلانية ليلة كذا وكذا المراكب تحت قلعة صاحب جبيل في وسط الميناء، ومن نزل إليكم من القلعة تحملوه إلى نهر الكَلْب».

ونهر الكلب مجاور لمدينة بيروت، بينهما مسافة ساعتين، وهي مزرعة للقصَب الحُلْو في مكان رَمْل. وقد أوقف الملك الظاهر صَيّادين على نهر الكلب، وهم جواسيس له في صفة صَيّادين، وقال لهم: «تحترزوا الليلة الفلانية، ومن وصل إليكم من المسلمين أو الفرنج تحملوه إلينا إلى دمشق».

وأمّا السابق شاهين فإنه كتبَ إلى ابن أخته محمد أن: «تتوجه ليلة الجمعة إلى الملك الريد أرناط، وتسلّم عليه من جهتي». وسَيّرَ مع الكتاب سِكينًا مَسْمومًا وقال: «إنْ قَدِرتَ أن تضربَه بهذه السكين فافعلْ».

فتجهّزَ محمد إبن أخت السابق شيهين[1] (كذا!) ووصل إلى جُبَيل. فاستحضره

[٨٦ظ] الملك، وكان/ الملك كما خرج[2] من الحمام فنام على ظهره على التخت، وجلس محمد إبن أخت السابق شيحين بعيدًا منه. فقال له صاحب جبيل: «محمد». قال: «نعم». قال: «كيف حال أخي سابق الدين؟» قال: «بخير». قال: «وكيف تركته؟» قال: «يقبّل يدك ويسلّم عليك». قال: «وما الذي أوصاك به؟» قال محمد: «أودعني كلامًا لا يمكنني أن أنقله لك وأحد من الناس يسمعه». قال الملك: «قُلْ فما هنا أحد». قال محمد: «يأمرني

[٨٦و] الملك أن آتِ إليه وأعرّفه؟» قال: «نعم ادنُ مني». فوثب محمد وثبةً واحدةً وضربه بالسكين. والفرنج جُثَثُهم غِلاظا عُتاة طوالا[3]، ومحمد إبن أخت السابق شاب لطيف البشرة، فقويَ الملك عليه، فضربه محمد ضربةً أخرَى في زردمته[4] فغُشِيَ الملك.

فلما رأى الملكُ نفسَه قد نقصَ عن غريمه، أخذ الدم بيده ورما به إلى خارج الطاق التي عند رأسه. وكان تحت الطاق أقارب الملك وألزامه وأمراؤه، وهم قعود في خدمة الملك. فلما رأوا الدمَ قد نزل من الطاق، جذبوا سُيوفهم وصعدوا.

---

(١) كذا في الأصل.
(٢) كذا في الأصل، وهي: لما خرج من الحمّام، نام على...
(٣) كذا في الأصل، وهي: جُثَثُهم غِلاظٌ عتاةٌ طِوالٌ...
(٤) الزردمة: الغَلْصَمة، أو مَوضع الابتلاع. راجع: لسان العرب.

وأما محمد، لما مات الملك، نزل مُهَرْوِلًا، والمراكب تنتظره تحت القلعة.

فلما التفت الفرنج ومحمد في السلّم قتلوه وقطّعوه إربًا إربًا، وصعدوا فوجدوا الملكَ ميتًا.

وأما الجواسيس الذين في المراكب من الفرنج فإنهم لما سَمعوا الصراخ قالوا: «ما هذا؟» قالوا: «قُتِلَ الملكُ وقُتِلَ محمد إبن أخت السابق شيهين». فللوقت أقلعت المراكب ووصلوا/ إلى نهر الكلب، فوجدهم الصيادون فسألوهم: «من معكم؟» [٨٧و] قالوا: «ما معنا أحد، ولكن قُتِلَ الليلة صاحبُ جُبيل ومحمد إبن أخت السابق شيحين (كذا!)». فمضت[1] الصيادون إلى السابق شيحين وأعلموه بموت صاحب جُبيل وموت ابن أخته. فمضى السابق شاهين إلى السلطان وأعلمه وقال له: «تعيش وتبقى في محمد وفي صاحب جُبيل[2]».

وفي هذه السنة وردت رُسُل من جهة أَبْغا ابن هلاوون وهم كشلي وأُلتمر ومعهم مائة فارس من خيار المُغُل. وكان النائب بالأعمال الحلبية الأمير علم الدين سنجر الباشقردي[3] والنائب بدمشق الأمير علاء الدين [طيبرس][4] الوزيري. فكتب الباشقردي إلى السلطان الملك الظاهر أنه:

«قد ورد من جهة أَبْغا رسولان ومعهما مائة فارس من خيار المُغُل». فكتب إليه الملك الظاهر: «لا تدَعْ الرسُلَ يعدّي معهم أحد غيرُ مملوكين صِغار دون الخمس عشر[5] سنة، وكل من معهم من المغل وغيرهم يقيموا في بر الشرق، وإذا وصل الرسلُ إليك تقف في خدمتهم كما تقف في خدمتي، وتكرمُهم وتحسِن إليهم».

وكتب إليه بما يوصلهم من الأموال، وكتب السلطان أيضًا للملك المنصور صاحب حماة، وكتب أيضًا إلى الملك الأشرف صاحب حمص أن يخدموا الرسُلَ أتمَّ خدمة، وكتب لنائب دمشق مثل ذلك.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: فمضى

(٢) عن السابق شاهين وأخباره، راجع: الروض الزاهر ٢٨٢؛ وعقد الجمان للعيني ٢/٩؛ والسلوك ١/٥٥٩.

(٣) راجع حول ذلك: السلوك ١/٣٩٢، ٧٥٥؛ والوافي ١٥/٤٧٣ رقم ٦٣٩.

(٤) ترجمته في الوافي ١٦/٥٠٨ رقم ٥٥٥.

(٥) كذا في الأصل، وصوابه: عشرة سنة...

[٨٧ظ] فلما وصلت الرسلُ إلى حلب، خدمهم الباشقردي كما رسم له./ ثم توجهوا الرسل[١] إلى حماة، فوقف الملك المنصور صاحب حماة في خدمتهم. ووصلوا إلى حمصَ فخدمهم صاحبها أتمّ خدمة. ولما وصلوا دمشق أكرمهم النائب بها أعظمَ إكرامًا[٢]. ولما وصلت الرسل إلى غَزّة أخذهم المهمندارية وتوجهوا بهم إلى الديار المصرية وتوّهوهُم في الرمل أحد[٣] وعشرين يومًا. ولما حضر الرسلُ بين يدي الملك الظاهرَ أحسَن إليهم إحسانًا عظيمًا، وأكرمهم ما لا يكرمُ رسُلَ التتر ملكٌ غيره. ثم جهّزهم إلى الشرق. فلما تجهّز الرسلُ إلى الشرق قالوا للملك الظاهر: «ما الذي يرسم به مولانا السلطان وبما نجاوب عنك؟» قال الملك الظاهر: «أنتم أتيتم بغير كتاب وجوابي معكم بغير كتاب».

فلما تجهّزَ الرسُلُ، كتب إلى الباشقردي النائب بحلب: «إذا أتاك الرسلُ فتقف في خدمتهم وتخدمهم أكثر ما خدمتَهم أوّل مَرّة، وإذا أرادوا السفرَ فتسقيهم سُقْيَةً لا تعمل فيهم إلا بعد سبعة أيام».

فلما قدم الرسل إلى حلبَ وامتثل النائب بحلب ما رسم له السلطان به، وعمل لهم ضيافة عظيمة، وسَقاهم وعدًا معهم إلى برّ الشرق. ثم أمر له الرسول[٤] بالرجوع. فأبا عن ذلك فالجّ[٥] الرسول على الباشقردي أنه: «لا بد أن ترجع إلى بلادك». فرجع

[٨٨و] الباشقردي فلم يصل إلى حلب حتى بلغه/ أن كشلى قد مات وأن الثاني ضعيفًا[٦].

قال من نقل هذا الكلام: إن التتر لما وصلوا إلى بين يدي أُبغا، وسأل من المُغل عن الديار المصرية، وعن السلطان الملك الظاهر، وعما جرى لهم في الطريق، وعن طريق غزّة، والرمل الذي بين غزة ومصر، فلم يجبْه أحد من المُغل بشيء. فعظُمَ ذلك على أبغا وقال:

«أنا وجهتُكم صُحْبة الرسل لتنظروا الديار المصرية وما هي عليه، والرمل وطريقه،

---

(١) كذا في الأصل، وهي: توجّه الرسُلُ...

(٢) كذا في الأصل، والصواب: أعظم إكرام...

(٣) كذا في الأصل، وهي: واحدًا...

(٤) كذا في الأصل، والأرجح أن تكون: الرسُلُ، حسب سياق الكلام.

(٥) كذا في الأصل، والأدنى إلى الصواب أن تكون: فألحّ الرسُلُ.

(٦) كذا في الأصل، وصوابه: ضعيف.

فلم تأتوني بخبر». قالت التتر: «إنما نحن لم يمكّنونا أن نُعدّي من الفُراة إلى برّ حلب، وأما الرسلُ الذين[١] لك فماتا ولم يكن معهما غير هذين الصغيرين».

قال صاحب التاريخ: إن الرسلَ والمُغل الذين كانوا صحبتهم لم يعرفوا من رتبة الديار المصرية ومملكتها شيئًا، ولكن كما خَرجوا من عند أُبغا كما عبروا عليه.

ثم دخلت سنة خمس وستين [وستماية] من الهجرة النبوية

فيها فتح السلطان الملك الظاهر صفَد، وقيل في سنة أربع وستين في سَلْخها. وكان فتوح صفَد يوم الجمعة عاشر شهر شوّال. ولما فتح السلطان الملك الظاهر قلعة صفد، جمع الخيّالة الذين كانوا بها وقال لهم: «أين قتلتم السابق شاهين؟». قالوا: «على هذا التل». فأمر السلطان بضرب أعناق الجميع على ذلك التل، ويسمى تل القتلا إلى يوم تاريخه.

وفي هذه السنة المباركة أمر/ الملك الظاهر بالخطبة النبوية بالجامع الأزهر بالقاهرة [٨٨ظ] المحروسة، ولم يكن الأمر قبل ذلك كذلك[٢].

وفي هذه السنة رسم السلطان الملك الظاهر لإيغان[٣] سم الموت أن يأخذ معه ثلاثة آلاف فارس ويدخلوا سيس[٤]. فدخلوا ونهبوا وسَبوا وقتلوا وخرّبوا وحرّقوا، ووقع في جملة السبي ابن لافون ابن لاوون ابن صاحب سيس[٥].

وفيها نهب الملك الظاهر قارا والنبك ورسم بعمل جسر على نهر الشريعة.

وفي هذ السنة مات كرمون[٦].

وفيها مات سنقر الرومي بالحبس بقلعة الجبل، وحبسوا مكانه الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المُغيث ويسمّى الملك العزيز. ولما نقلوه من الحبس الذي كان فيه إلى المكان الذي قتلوا فيه سنقر الرومي، قال الأمير فخر الدين عثمان عن نفسه:

---

(١) كذا في الأصل، مزج بين صيغتي المثنى والجمع.
(٢) راجع: عقد الجمان ٢/٦؛ وزبدة الفكرة ١٠٧.
(٣) راجع كتاب السلوك ١/٥٢٥–٥٩٥؛ والوافي بالوفيات ١٠/٢٤ رقم ٤٤٦٥؛ والروض الزاهر ٢٧٧.
(٤) عن سيس وما جرى في هذه الغزاة، راجع: كنز الدرر ٨/١٧٧؛ والروض الزاهر ٢٦٩؛
(٥) راجع: كنز الدرر ٨/١٨٠.
(٦) الأمير كرمون آغا التتري، أنظر: كنز الدرر ١١٨.

«لما نقلوني من المكان الذي كنت فيه، وعَبرت إلى المكان الذي أدخلوني فيه، فوجدت النخ(١) الذي قتلوا عليه سنقر الرومي ملوثًا بالدم ونتان القتل. فكشفت النخ، فإذا تحته قنطار دود، فتشاهدت وقلت: جاء الحق وزهَق الباطل».

وفي هذه السنة مسَك الملكُ الظاهر آقوش المحمّدي(٢) وإيغان سُمّ الموت، ومسك معهم جماعةً من العزيزية والناصرية الذين كانوا تأخروا من عسكر الشام.

[٨٩و] وفي هذ السنة سَيرّ صاحبُ سيس رسُلَه/ إلى الملك الظاهر يطلب منه ولده، فكتب إليه الملك الظاهر: «تسيّر لي سنقر الأشقر من عند التتر وأنا أسيرّ لك ولدك».

وفي هذه السنة غار الملك الظاهر على قصير أنطاكية(٣).

وفيها وقعت الوقعة العظيمة بين التتر أُبغا ابن هلاوون وابن بركة، واستحكمت بينهم الوحشة والبُغْضَة إلى يوم تاريخه.

[٨٩ظ] وفي آخر هذه السنة قدم سنقر الأشقر على الملك الظاهر.

قال صاحب التاريخ: لما قدم سنقر الأشقر على الملك الظاهر بدمشق، خرج الملك الظاهر وتلقّاه من القصر، ونزلا على الأرض واعتنقا وتباكيا ودخلا جميعًا إلى قلعة دمشق، وكان بدمشق يومًا مشهودًا(٤).

وفيها مات الحسام الحاجري وكان من كبار عسكر حلب، وهو صاحب الفضائل. وكان شعره على قدر زمانه، وكان من جملة ندماء السلطان الملك الناصر صاحب حلب. وكانت وفاته بدمشق، وكانت له نكت وفضائل وأشياء مليحة، ولكنّ غيرَه أشعر منه(٥). ومن جملة تغزّلاته وفضائله هذه الأبيات المشهورة: [من الطويل]

على دَمْع عيني من فراقِكَ ناظرُ ... يُـرقـرقـه إذْ لم تُـرقْـهُ المَـحـاجـرُ

---

(١) الحصيرة من القش أو قماش مرصع تضاف إليه أنواع من خيوط الحرير وما سوى ذلك، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي (نخ).

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٣٢٣.

(٣) في الأصل: قصر، أنظر: كنز الدرر ٨/١٢٦–١٣٧؛ وعقد الجمان ٢/٢١–٢٩؛ وزبدة الفكرة ١١٥.

(٤) راجع: الروض الزاهر ٣٢٩–٣٣٠؛ وعقد الجمان ٢/٣١؛ وزبدة الفكرة ١١٥.

(٥) هو أبو يحيى وأبو الفضل عيسى بن سنجر بن بهرام الإربلي، ترجمته في وفيات الأعيان ٣/٥٠١ رقم ٥١٨؛ وقلائد الجمان لابن الشعار الموصلي ٥/٤٧٩–٤٨٧.

فَدَيْتُكَ رَبْعَ الصَبْرِ بَعْدكَ دارسٌ … على أنَّ فيه مَنْزِل الشوقِ عامرُ
بِمِثْلِكَ الشوقُ الشَديدُ لناظري … فأطرقَ إجلالًا كأنكَ حاضِرُ/ [٨٩ظ]
وأطْوي على حَرِّ الغَرامِ جَوانِحي … وأُظْهِرُ أنّي عَنْكَ لاهٍ وصابرُ
ألا يا لَقَومي قد أراقَ دمِي الهَوَى … فَهَل لِقَتيلِ الأعْيُنِ النُجْلِ ثائرُ
ومُذ خبَّروني أنَّ غُصْنَ قوامِه … تبقَّنْتُ أنَّ القلبَ مِنّيَ طائرُ
وما اخضَرَّ ذاكَ الخَدُّ نَبْتًا وإنَّما … لكثرةِ ما شَقَّتْ عليه المرائرُ
وأعْجبُ مِنْ ذا أنَّ طَرفَكَ مُنْذِرٌ … يصدّقُ في آناته وهو ساحِرُ

وهذه القصيدة قصيدة مشهورة بين الناس، وصاحب هذا التاريخ لم ينقل شعر هؤلاء المتأخرين حتى لا يُقالَ أنه اطّرحَ شيئًا من فضائل المتقدمين.

ومن جملة فضائله ونُكَتِه هذان البيتان(١): [من السريع]

بِتْنا على حالٍ يَسُرُّ الهوى … وربما لا يُحْسِنُ(٢) الشرحُ
بَوَّابُنا الليلُ، وقُلْنا لهُ: … إن غِبْتَ عنّا هَجَم(٣) الصبحُ(٤)

ومن جملة تغزلاته وشعره وفضائله هذان البيتان: [من الخفيف]

قلتُ للسائق المجدّ بليلي … وقد اعتدَّ للفراقِ الفريقُ
يا هاديَ الشتاتِ أرْخَصْتَ دمعي … قال لي: هكذا يُباعُ العقيقُ

وما ذكرنا فضائل هذه المتأخرين إلا حتى لا نطرح شيئًا من أقاويل الناس من الغث والسَّمين.

ثم دخلت سنة سِتّ وستين وستماية/(٥) من الهجرة النبوية [٩٠و]

فيها فتح السلطان الملك الظاهر أنطاكية وفتح يافا والشقيف. وكان نزوله على

---

(١) بالهامش: هذا المقطوع إلى الفاضل عبد الرحيم البيساني منشئ صلاح الدين يوسف سنة ٥٩، وهذا صحيح، وراجع البيتين في الوافي بالوفيات ١٨/٣٦٣.

(٢) ديوان القاضي الفاضل ١/٢٦: يمكن.

(٣) نفسه ١/٢٦: دخل، والوافي بالوفيات: إن نمتَ.

(٤) أنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/١٥٨ إلى ١٦٣ تحت رقم ٣٧٤: القاضي الفاضل حيث يرد هذان البيتان.

(٥) في الأصل: وستماية مكررة.

أنطاكية غُرّة شهر رمضان المبارك وفتوحها رابع رمضان. ولما نزل الملك الظاهر على أنطاكية توهّم هو والأمراء والجند أن أنطاكية لم تؤخذ إلّا بعد سنة كاملة، وأن حِصارها يطول عليهم. فأقام الجيش عليها ثلاثة أيام، وأرادوا أن ينصبُوا المجانيق، ونصبَ العسكرُ السلّم الخشب على الأسوار، وصعد الجند الأسوار فلم يجدوا أحدًا يقاتلهم. فملكوا البلد ونهبوا الأموال والقماش والخيول والإبل والأنعام والجوار[١] والعبيد.

قال من كان حاضرًا: إن الذي حصل من الأموال للناس ومن القماش والأثاث لم يحصل لهم في بلدٍ غيرها. وصار جميع أهلها الذين أُسِرُوا منها وهم صغار، حصل لهم بالديار المصرية أمر ونهي وسعادة ما شملت ملوك الرومانية وإنما صاحب هذا التاريخ استقبح أن يسميهم في هذا التاريخ.

وفي هذه السنة كان أمر برواناه في بلاد الروم أعظم من السلطان علاء الدين كيقباد صاحب الروم.

وفي هذه السنة سَيّرَ الملكُ الظاهر العساكر إلى برقة ومقدمهم الصارم أُزبك الباخلي، وكان جملة عِدَّة الذين سَيَّرهم الملك/ الظاهر ستين فارسًا، ومعهم عسكر سكندرية، [٩٠ظ]
ومعهم جماعة من العربان ما مقدارهم أربع ماية فارس.

قال: ولما التقا العسكران على برقة كان ملك العربان في ذلك الوقت يسمى بَلَبُوش، وكان فارسًا مقدامًا في الحرب، فحمل بنفسه ومعه دون العشرة من العرب، واخترق الصفوف إلى أن وصل إلى الصارم فقطع يده[٢].

قال من كان حاضرًا: فلما قطعت يده ورأى[٣] الدم ورأى يده مطروحة على الأرض، غُشِيَ عليه وغاب ذهنه. وصاحت الترك صَيحةً واحدةً، وحملوا بالنشّاب وطرحوا من العرب جماعةً كبيرةً، وانكسرت العرب، وقتلوا من قتلوا ونهبوا من نهبوا وأسروا بَلَبُوش وأتوا به إلى الملك الظاهر.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: الجواري، وراجع: زبدة الفكرة ١١١، حيث الرواية مختلفة.

(٢) أنظر الرواية في: عقد الجمان ٢/١٠٦؛ وزبدة الفكرة ١٣٩؛ والروض الزاهر ٤١٤؛ وكنز الدرر ٨/١٧٣.

(٣) في الأصل: وزا.

قال صاحب التاريخ : لما حضر بَلَبُوش بين يدي الملك الظاهر ، أحسن إليه ، وأنعم عليه ، وأعطاه طبلخاناة ، وجهّزه إلى بلاده ، وأمر لوالي سكندرية أن يسقيه. وكان الوالي بثغر سكندرية شمس الدين إبن باخل. فسقا بَلَبُوش ومات بثغر سكندرية.

وفي هذه السنة ، يعني سنة ست وستين ، فيها تقرّر أمر التزويج للملك السعيد بركة قان ابن الملك الظاهر على ابنة السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي ، تغمّده الله برحمته.

وفيها/ تجهّز السلطان الملك الظاهر إلى الحجاز الشريف. [٩١و]

ثم دخلت سنة سبعٍ وستين وستماية من الهجرة النبوية

فيها فتح الملك الظاهر القلاع الاسماعيلية وعِدَّتُهم تسع قلاع ، وهم مِصْيات[(١)] والمَيْنَقة والعُلَّيقة والرُّصافة والقُدموس والخَوابي[(٢)].

وفيها غار[(٣)] الملك الظاهر على مدينة طرابلس وقطع أشجارها.

وفيها أنفق في العساكر وغار على بلاد السويدية وفتح درب ساك[(٤)] وبُغْراس والمرزن وتركوش وكفر دينين[(٥)] والمناصفات[(٦)] والقُصَير وشنح والجود[(٧)]، وقيل جرَى هذا في سنة ست وستين.

وفي هذه السنة أخذ الملك الظاهر مرتضى ملك الاسماعيلية.

---

(١) في زبدة الفكرة ١٣٨ ، ٢١١ ؛ وعقد الجمان ٢ /٥٩ : مِصْياف ؛ وفي السلوك ١ /٥٨٧ : مَصْياف كرسي بلاد الاسماعيلية.

(٢) السلوك ١ /٥٨٧ : قلعة الكهف ، وقلعة الخوابي ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والرصافة.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) في السلوك ١ /٥٦٧ ومصادر أخرى : درب بساك وتكتب أحيانًا : دَرْبِسّاك. والسويدية حصن وميناء لأنطاكية، وهي في الحوليات الصليبية : Le Soudin port Simon

(٥) السلوك : مرزبان ودركوش وكفردنين.

(٦) القلاع التي ناصف فيها الفرنج وهي : المرقب وبانياس وأنطرسوس.

(٧) السلوك ١ /٥٦٩ والمختصر : شيح الحديد.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستماية من الهجرة النبوية

فيها فتح السلطان الملك الظاهر حصن الأكراد، وحصن عكّار، والقُرَين[١].

وفيها كسرَ الملكُ الظاهرُ التتار على الفراة كسرةً شنيعةً لم[٢] تنهزم السنا[٣] مثلها.

وفيها أمر الملكُ الظاهرُ بخراب عَسْقلان وفتح صافيثا[٤].

وفيها مسك الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وكان أكبر أمراء مصر[٥].

وفيها كانت الوقعة العظيمة بين التتر بالشرق، والتطم الملكان واقتتلا قتالًا شديدًا، أُبغا ابن هلاوون وبُراق ابن بركة، وانكسر براق[٦]. [٩١و]

وفيها حج الملك الظاهر[٧].

وفي هذه السنة سيّر الملك الظاهر الشواني لأخذ قبرص[٨].

ذِكْرُ/ ما جَرى على عساكر البحر في هذه السنة المباركة [٩١و]

قال: ولما رسم السلطان الملك الظاهر بتجهيز الشواني، رسم أن تكونَ الشواني سودًا. ومن عادة شواني المسلمين أن تكون صفرًا وحُمْرًا، ورسم أن يكون في كل شيني عشرة أجناد من خيار حلقته.

ذِكْرُ ما جَرى بين ريسا[٩] الشواني من الاختلاف

قال صاحب التاريخ: إن عسكر البحر بينهم شرط، أنه كل مَنْ حمَل النارَ يعني

(١) زبدة الفكرة ١٢٧-١٢٩؛ وكنز الدرر ٨/١٦١؛ وعقد الجمان ٢/٧٠-٧٩؛ والروض الزاهر ٣٧٥-٣٨٥.
(٢) السلوك ١/٥٨٤؛ والروض الزاهر ٤٠٥؛ وزبدة الفكرة ١٢٣.
(٣) كذا في الأصل، وأقرب الظن أنها: التتار.
(٤) الروض الزاهر ٣٧٤.
(٥) السلوك ١/٥٩٥؛ والوافي ١٥/٤٧٣.
(٦) زبدة الفكرة ١٣٤.
(٧) السلوك ١/٥٨٠؛ وزبدة الفكرة ١٢٠؛ والروض الزاهر ٣٥٤.
(٨) زبدة الفكرة ١٢٩؛ والسلوك ١/٥٩٣؛ والروض الزاهر ٣٨٦؛ وعقد الجمان ٢/٧٣.
(٩) كذا في الأصل، وهي: ريِّسي.

الفانوسَ في الليل في البحر المالح كان المقدّم على العساكر. وكان في أيام الملك الكامل، وقيل العادل صاحب النار الموفّق ريّس سكندرية[١]. فلما صار الأمر إلى ملوك الترك، وصارت الشواني مجاورة قلعة مصر، صار حكم النار تحت يد الريّس ابن إسحق[٢] وهو ريّس الخلافة.

فلما اجتمع الشواني بثغر دمياط، قال الريّس شهاب الدين ابن الموفق ريّس سكندرية: «أنا صاحب النار أبًا عن جَدّ». قال ابن إسحق: «أنا ريّس الخلافة».

واختلفا[٣] هذان الريسان فيما بينهما، إلى أن كادا يقتتلا بالسيوف. فدخل الناس بينهما. وأرادا أن يكتبا للسلطان الملك الظاهر لمن يكون أمر الشواني، ومن يحكم على الريسا[٤]، فما أمكنهم الوقت للعجلة. فأقلعوا من ثغر دمياط وهم متنافسون على بعضهم بعض، ومال كُلٌّ من الريسا[٥] إلى جانب، واختلف القُوّاد والأسطول على بعضهم بعض.

ولما وصلوا إلى وسط البحر/ شال ابن إسحق النار وشال ابن الموفق النار، وأقاموا [٩٢و] كذلك أول ليلة والثاني والثالث[٦]. فأشرفوا على قبرص. وكانت ليلةً مظلمةً شعثةً، ودارت عليهم الجبال جبال قبرص وهاج عليهم البحر.

قال صاحب التاريخ: لو دخل الشواني سالمين إلى قبرص لفتحوا قبرص، لكن كان أمرُ الله قَدرًا مقدورًا. وكان الريّس شهاب الدين ابن الموفّق من جُوّا البحر وابن إسحق من بر[٧] البحر. فلما علم أن البحرَ تحته قليلٌ، وأن الجبال قد احتاطت به، أطفأ النار وخرج سالمًا. وما فعل هذا إلّا مكيدة.

---

(١) النجوم الزاهرة ١٥٤/٧: شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الهواري؛ وذيل مرآة الزمان ٤٥٣/٢.
(٢) نفسه: ناصر الدين عمر بن منصور بن سليمان بن سلامة، ابن اسحق.
(٣) كذا في الأصل، وهي: اختلف هذان...يقتتلان.
(٤) كذا في الأصل، وهي: الرياسة.
(٥) كذا في الأصل، وهي: الريسين.
(٦) كذا في الأصل، وهي: والثانية والثالثة.
(٧) كذا في لأصل، وهي: برّا البحر.

وخرج الثاني منه سالمًا يعرف أبا العباس المغربي. وأما الريّس شهاب الدين إبن الموفق ريّس سكندرية، فإنه نطحَ جبل النمسون فكُسِرَ، وانكسر كل من خلفه وأمامه، ولم يسلم منهم غيرُ الغراب الأخير، فإنه كان آخرهم.

فلما سُمع الصُّراخ لجج، وكان ريّس الغُراب يسمَّى فخر الدين ابن الموفق، وكان عِدَّةُ الشواني أربعة وعشرين شبنيًا، فانكسرَ منهم أحد وعشرين غرابًا على جزيرة النمسون[١]، وسلم ثلاثة شواني. وهذه جزيرة النمسون بينها وبين قبرص مسافة ساعة واحدة.

قال من حضر هذه الوقعة: لما أصبح المسلمون ورأوا أنفسهم على البر، قال بعضُهم لبعض: «ما بقي لنا إلّا الموت». واتّفق الجميع على القتال، ولبس الجند العُدد، وأخذوا خيل الفرنج.

قال صاحب التاريخ: لو اجتمعت كلمة ريسا[٢] المسلمين لفتحوا قبرص، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورًا./ ولما كان بعد الظهر، حضر رسُل من جهة صاحب [٩٢ظ]
قبرص، واجتمعوا بالريّس شهاب الدين ابن الموفق، وهم يقولون: «البلاد بلاد السلطان، ونحن غِلمان السلطان، ولو قاتلتمونا ما قاتلناكم».

قال: فعند ذلك رسم الريّس شهاب الدين ابن الموفق ريّس سكندرية أن ينادَى في الجيش فنادى: «معاشر الجيوش الإسلامية كافة، من سَلَّ سيفًا قطعت يده به».

قال: فعند ذلك سَكتَ الجُنْد وخلعوا لأمة حَربهم، وانكسرت نفوس الناس، والذي كان في نفسه القتال بردت همَّتُه. وكان عِدّة العساكر المذكورة أربعة آلاف وثلثماية ما بين جُنْد وقُوّاد وأسطول.

ثم أخذت الفرنج المسلمين، ومضوا بهم إلى دار الضيافة، وأخذوا قماشهم وقِسِيَّهم وسيُوفهم، وعملوا كل اثنين في خشبة، وركّبوا الجند والريسا[٣] الخيل والنعال مقلبين[٤]. ثم نكسوا سناجق الإسلام على روسهم، وأقاموا سناجقَ الصلبان، ودخلوا

---

(١) عقد الجمان: مرسى النمسون، هو ميناء ليماسول.
(٢) كذا في الأصل، وهي: ريّسي.
(٣) كذا في الأصل، وهي: الريّاس، أو: الريّسين... ريّسَي
(٤) كذا في الأصل، وهي غير واضحة.

بهم جزيرة قبرص مقيَّدين مجرَّسين، والمغاني والزُمور والطبول بين أيديهم، والفرنج يبصُقون في وجوههم، والنساء يقلبون عليهم البَول من علو الأسطحة. وكانت إقامة الجُنْد والريسا في أسر الفرنج ثلاث سنين وأربعة عشر يومًا.

ولما وصل إلى الملك الظاهر الخبرُ بما جرى على جيش الإسلام، عَظُمَ عليه، وحزن لذلك حُزْنًا عظيمًا. وكان/ في القاهرة ومصر وسكندرية ودِمْياط عزاء وبكاء [٩٣و] وعَويل وصُراخ.

ثم إنّ الملكَ الظاهرَ كتب إلى الريدكور مقدّم الداوّية بعكا، إنه: «والله ما أعرف خلاص هذه الجند والريسا إلّا منكم». وكتب في أثناء كتابه لمقدّم الداوّية:

«متى لم تُحضِروا هؤلاء الجُنْد والريسا من قبرُص إلى عَكّا ويقعدوا عندكم في ترسيمكم، وتصل كتبُهم إلينا، وإلّا هدَمت عكا على روسكم[1]».

قال: فعند ذلك اجتمعت الداوّية والإسبتارية والنوباردية واللمانية والبيازنة والبنادقة واشتوروا فيما بينهم. وسَيّروا كتبهم إلى صاحب قبرص، وهم يقولون: «أنت تعلم أنا نحن في بر المسلمين، ومجاورو الملك الظاهر صاحب الديار المصرية، ولا نأمن غاراتِهم، فتسيِّر إلينا الريسا، ومن عندك من الجند يكونون عندنا في حَبْس عكا، لعل أن يعمل لنا مع السلطان مصلحة، ومتى منعتَ عنا ما ذكرناه لك، لا نأمن من غارات المسلمين ومن خراب ضِياعنا وبساتيننا ومن يؤخذ من نسائنا وأولادنا».

فلما وقف صاحب قبرص على كتاب الداوّية، رسم بتجهيز الريسا إلى عكا. وكان الملعون صاحب قبرص قد فرّق بعض الجند ،سَيَّرهم إلى ملوك الرومانية، وجمع من عنده من بقي من الجُنْد، واعتذر أنّ الجُنْد عند كَسْر الشواني غرِقوا، وسَيَّرَ الجميعَ إلى عكا.

قال: وما وصل الريسا إلى عكا، رسم مقدَّم الداوّية أن يعتقلوهم في البرج الكبير الذي على البحر ويسمّى برج الداوية/. فحبسوهم في البرج الكبير ووكّلوا بهم من [٩٣ظ] يحفظُهم، ورسموا ألّا يمنع عنهم شيء من شَهوات الدنيا، ورسموا إن أتاهم كتب أو رسُل أو أحد من أقاربهم فلا يمنع عنهم.

---

(١) عن ذلك، انظر كتاب السلوك للمقريزي ١/٦١٥

ثم إن الريّسا تحيّلوا وساعدهم جماعة من الفرنج من جهة السلطان الملك الظاهر، وعبّروا لهم بمبارد الحديد وبردوا القُيود ونقبوا الشباك الذي للقلعة، وخرجوا في ليلة مظلمة. فوجدوا المراكب تنتظرهم على البحر فركبوا.

فلما وصلوا إلى البرّ فوجدوا الخيلَ مجهَّزةً فركبوا وساقوا طول الليل. فلما طلع[1] الشمس وانفجر الفجر، وجدوا أنفسهم عند الخرّوبة، وهي الفرق بين بلاد المسلمين والفرنج. وفي تلك الساعة كُتبت البطايق للملك الظاهر، وهو في دمشق، ففرح لذلك فَرحًا عظيمًا، وسَيّرَ البشاير إلى الديار المصرية، ففرح الناس لذلك، وكان بالديار المصرية وسكندرية ودمْياط فرح وسرور.

ثم إن الملك الظاهر لما حضرَ الريّسا إلى دمشق، أمر للمهمندارية[2] أن يقيموا ببيتٍ من بيوت القلعة. وطلب الأمراء، وطلبَ القُمّزَ والمغَاني وشربوا. فلما طاب الوقت، قال الملك الظاهر في جملة كلامه للأمراء: «يأمراء، كيف يحِلُّ لنا من الله تعالى أن نأكل ونشرب بمدينة دمشق والريّسا والجند في أسر الفرنج؟» قال البيسري: «نهجم على عكا». قال بعضهم: «ننزل عليها ونحاصرها».

وقال كل منهم كلامًا./ فعند ذلك تبسّمَ السلطان الملك الظاهر، وطلب [٩٤و] المهمندارية، ورسم لهم أن: تحضروا الريّسا في هذه الساعة، فحضر الريّسا وهم مبرقَعون. وقال لهم الملك الظاهر: «اكشفوا عن وجوهكم». فكشفوا، فإذا هم الريّسا. فقام الأمراء وقَبّلوا الأرض بين يدي السلطان، وقبّلوا يده، واعتنقوا مع الريّسا وبكا الأمراء والريّسا. قال: فعند ذلك أنعم السلطان ورسم بالقماش والتفاصيل والذهب والفضة، وكان بدمشق يومًا مشهودًا. كل هذا جرى في سنة ثمان وستين وستماية.

وفيها توجّه السلطان الملك الظاهر إلى الكرك.

وفيها وصلت رسُل بركة بالاتفاق على عسكر هلاوون.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: طلعت.

(٢) صاحب هذه الوظيفة كما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي ٤/٢٢، و٥/٤٥٩: هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين إلى السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم. وهي مركبة من لفظتين فارسيتين: مهمن ومعناه الضيف، ودار مهناها ممسك.

وفي هذه السنة، وقيل في مستهل سنة تسع وستين وستماية، فيها حج السلطان الملك الظاهر.

وفيها نزل الفرنسيس على مدينة تونس، وكان عِدّة جيش الفرنج ثلثماية ألف ما بين خيلٍ ورجال[١].

ذِكْرُ ما جَرى للملك فرنسيس وهو صاحب إفرنسة بالبرّ الطويل

وكان ظنينًا بدينه، وقد ذكرنا ما جرى له مع الملك الصالح نوبة المنصورة، وأسروه البحرية وعتقوه[٢]. وكان صاحب تونس يسمّى أبا عبد الله أمير المؤمنين[٣]. وكان عِدَّة ملوك الرومانية كما ذكرنا سبعة، وقيل تسعة، وهم: الفرنسيس ويسمّى بلسان الفرنج الريد افرنس[٤]/، وكان معه من الملوك الريد كرتاله[٥] وهو صاحب [٩٤ظ] الفنش[٦]، الريد أركون[٧]، صاحب صقلية، الريد الأنكتارة[٨]، الريد ماكيه[٩] والريد ماناكيه[١٠]، ومعهم أجناس كثيرة مختلفة الألسنة من سردانيه[١١]

---

(١) السلوك ١/٥٩٠، وذيل مرآة الزمان ٢/٤٥٤-٤٥٦، وهنا ذكر لسبب هذه الغزوة.

(٢) كذا في الأصل، وهي: وأسره البحرية وأعتقوه.

(٣) أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن السعيد أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، أنظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٥/٢٠٢-٢٠٤.

(٤) المقصود به ملك فرنسا لويس التاسع Louis IX، أنظر عنه: تاريخ الاسلام (٦٦١-٦٧٠) ٩٨-٩١.

(٥) هَل يعني بها قشتالة (Castilla)؟

(٦) وهو Alfonso XI de Castilla.

(٧) عقد الجمان ٢/٦٠: والبرشنوني واسمه ريدراكون «المقصود به جيمس الأول ملك أراجون Roi d'Aragon».

(٨) أطلقه المؤرخون المسلمون على ملك أنكلترة في العصور الوسطى، راجع: صبح الأعشى للقلقشندي ٥/٣٧٥. أما ملك أنكلترة في تلك الفترة فكان اسمه Henry III، في حين كان الأنكتار المقصود هنا هو ولي العهد واسمه Edward.

(٩) غير واضح ما يقصد بها.

(١٠) غير واضح ما يقصد بها.

(١١) هل يقصد بها جزيرة ساردينيا (Sardegna)؟

وهي مدينة عظيمة أكبر مداين البرّ الطويل[١]، ومن أرض تسمّى منبزلير[٢] ومن إفرنسة ومن بركس[٣].

ثم إنهم أقاموا يحاصرون مدينة تونس أربعة أشهر، ومعهم جنس يسمّى باشقرد[٤] وهو جنس ملعون معروف بالشر والنحس، وجميعهم يتحدثون بلسان التركية، وهم أشر الجنوس.

ولما نزلوا بجزيرة تونس جَدّوا في حصارها وعجز المسلمون عن ردهم، ودخلوا إلى أن وصلوا إلى قريب أسوار المدينة، وأخذت الفرنج الجِيَفَ والقَتْلَى ورِمَمَ الكلاب والدواب والقتلَى من المسلمين ورموها تحت رتج البلد. فوخِمَ أهل تونس، وضاق ذَرْعُهم. وكان العرب مستولين على تونس. فعجز العرب والجند وعساكر الموحّدين عن رد الفرنج عن تونس وذلك لكثرتهم، وأراد المسلمون أن يسلّموا البلدَ للفرنسيس [٩٤ظ]
لولا أمر الله، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

قال صاحب التاريخ: إن/ الفرنسيس لما نزل على مدينة تونس كان فيها من [٩٥و]
الموحدين ثلاثة آلاف فارس، فلم يخرج أحد منهم لقتال الفرنج، وكان الموحدون في ذلك الوقت أكبر جُنْد تونس، ولم يخرج لهم غير الحَرَافيش والسوقة وما يناسب هذه الجنوس. وكان الرجل من الموحدين، يخضب لِحيَته بالحِنّاء، ويفرشوا[٥] له على مسطبة داره بِساطًا ومن فوقه نطعًا[٦]، ويجلس ويتّكيْ على مدورةٍ، وتدخل الغُزاة مجرّحين، فينظر إليهم الموحّدونَ ويقولون لهم: «باركَ اللهُ فيكم، كيف كان حالُكم اليوم في الحرب؟» فينظر إليهم الحرافيش ولم ينطقوا[٧]. وكان الرجل من

(١) المقصود به إيطاليا، أنظر: ابن واصل ٤/٢٤٨، وابن الدواداري في كنز الدرر ٧/٢٩٢.
(٢) هل يقصد بها مدينة المرشيليز يعني مدينة مرسيليا (Marseilles)؟ راجع: السلوك ١/٣٦٥ حاشية (١) و(٢).
(٣) هل يعني بها مدينة Burgos في اسبانيا؟؛ وراجع: الروض الزاهر ٣٧٠، والسلوك ١/٣٦٤.
(٤) بعيد الاحتمال أن يكون في جيش الملك لويس التاسع عساكر يتحدثون باللغة التركية. فهل يقصد بهم الباسك؟؟ أما الباشقرد فهم المجر.
(٥) كذا في الأصل، وهي: يفرشون.
(٦) جمعها أنطاع ونُطوع، وهي البساط من الجلد يفرش.
(٧) كذا في الأصل، وهي: ولا ينطقون.

الموحّدين يسرّح لحيتَه ويجلس على بابه كما ذكرنا فيقُال له: «لم لا تخرج تقاتل مع المسلمين؟» فيقول: «حتى يأذنَ لي أمير المؤمنين».

قال من كان حاضرًا: لمّا نزل الفرنسيسُ على تونس لم يخرج إليه أحد من عسكر الموحدين ولا صاحب تونس أبو عبد الله أمير المؤمنين، ولكن فتح الله ونصر على رغم أنفهم. وذلك أن الفرنسيس لما رأى جيشَه قد استظهر على مدينة تونس ولم يبق إلّا أخذها، طلبَ الشرابَ وجلس هو ومن يختاره من أمرائه.

قال بعض الرواة: إن الفرنسيس شَرِقَ بالقَدَح الخمر فمات. وفي روايةٍ أخرى: أنه مرض واشتد/ مرضه ومات. وفي رواية أخرى: أن الفرنسيس لما نزل على مدينة تونس، [٩٥ظ] نزل تحت رَبَح[١] البلد على الماء الحلو، وما له منزلة غيرها.

وضرب الفرَنج خِيامهم على النهر تحت سور تونس [٢] المسلمون في النهر، ورَموا فيه من الجِيَف والقتلَى، ورمَوا أيضًا فيه من الحشيشة ما لا يمكن شَرحُه، ومن الأشياء المسكراتِ وما للما مزير[٣] إلّا في وسط الفرنج، فَوخِمَ الفرنجُ. وكان الشتاء قد أربكهم[٤]، وعملوا لهم مغرًا تحت الأرض، وذلك ليعتصموا من الأمطار والثلُوج. وشرعوا يستعملون الخمور. ونادى أبا[٥] عبد الله أمير المؤمنين صاحب تونس: «معاشرَ المسلمين، كل مَنْ أحضرَ لي أذن من أذن[٦] الفرنج أخذ دينارًا».

وكان الفرنج قد دخل عليهم الشتاء كما ذكرنا، وانهلّت عليهم الأمطار، فجعل المغاربة يدخلون عليهم في الليل في تلك المغاير التي يعتصمون بها من الأمطار والزلازل، وكانت حرافشة المغاربة يغطِسون في البحر من بر تونس، ويطلعون إلى تلك المغاير التي اعتصم الفرنج بها، فيقتلون من الفرنج في كل مغارة الخمسين والستين وهم سَكارَى. ويأتوا بآذان الفرنج إلى أبي عبد الله أمير المؤمنين، فيجازي كلَّ رجلٍ بقدر ما يأتي من الآذان

---

(١) الباب الكبير.
(٢) بياض في الاصل.
(٣) كذا في الأصل، ربما كانت: وما للماء مرور، وهي الأدنى إلى الصواب.
(٤) في الأصل: أركهم، أو أدركهم.
(٥) كذا في الأصل، والصواب: أبو.
(٦) كذا، والصواب: آذان.

بكل أذن دينارًا. فلما رأت الفرنج أن عِدَّتهم قد قلت فافتقدوا المغاير، فوجدوا أكثرَهم قد مات، فرحلوا[١]/ [٩٦و] عن مدينة تونس، ولكن بعد موت الفرنسيس.

وفي هذه السنة حج الملك الظاهر إلى بيت الله الحرام، وزار قبرَ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – وقيل: في سنة سبع وستين، ورجع إلى الديار المصرية وهو في غاية السرور والفرح ولا له عدو بمصرَ ولا الشام، وقد نظّف السواحل من الفرنج.

وفي هذه السنة، فتح الملك الظاهر القُرَين والشّقيف، شقيف أرنون وشقيف تَيرون، وقيل: كان فتوح شقيف أرنون وشقيف تَيرون سنة سبع وستين وستمائة، ولم يبقَ بالساحل يومئذٍ من الفرنج غيرَ عكا وطرابلس والمَرْقَب وصيدا وبيروت [٩٥ظ] وجُبيل. ثم توجه الملك الظاهر إلى الشام.

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها مسَكَ الملكُ الظاهر جماعةً من الأمراء، وهم[٢] أيدُغدي الحاجبي، وسُنْقُر المسّاح، وعلم الدين طردج وعلم الدين صرغان، وكانوا نيفًا عن اثني عشرَ أميرًا، وذلك لما بلغه أن هؤلاء المذكورين كانوا اتّفقوا عليه أن يقتلوه في بعض النقوبات، وكان كَذِبًا من القائل[٣].

وفي هذه السنة[٤] كاد يكون بالديار المصرية وسكندرية ودمياط والأرض

---

(١) في هامش الصفحة المخطوطة وبخط مغاير: قلت: قال بعض فضلاء المغاربة في موت الفرنسيس: [من الخفيف]

يا فرنسيس هذه أخت مصرٍ ... فتأمّلْ لما إليه تصيرُ
دار لقمان هذه لك قبرٌ ... وطواشيك منكر ونَكيرُ

كتبه العبد المصطفى بن محب الدين
راجع هذين البيتين في: السلوك ١/٣٦٥ منسوبين إلى أحمد بن إسماعيل الزيات، مع بعض الاختلاف.

(٢) الأصح أن يقال: منهم، لأن الكاتب نفسه يقول: وكانوا نيفًا عن اثني عشر أميرًا.

(٣) راجع: السلوك ١/٥٩٥؛ ونهاية الأرب للنويري ٣٠/١٨٠ «علم الدين سنجر الحلبي الكبير، والأمير جمال الدين آقوش المحمدي، والأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري، والأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت، والأمير شمس الدين سنقر المسّاح، والأمير علم الدين سنجر طردج الآمدي وغيرهم... وقد وردت اختلافات في الأسماء بين المصادر.

(٤) بالهامش: وفي سنة خمس وستين وستماية، نهب الملك الظاهر قارا والنبك، ورسم بعمل جسر على الشريعة بالشام.

المقدسة إلى عكا حروب ومصافّات وقتل ونهب وسفك دماء من المسلمين والفرنج، لولا أمر الله ولطفُه وتدبير الملكِ الظاهر وسياسته وعقله. وذلك/ أن ملوك البر الطويل وهو [٩٦ظ] المملكة العظيمة، لما بلغهم أن صاحب الديار المصرية قد جهز شوانيَ من جهته ليملكوا مدينة قبرص فانكسروا[١] الجميع على جزيرة النمسون. وقد أسرت الفرنج جميعَ من كان فيهم. وكان صاحب قبرص – لعنه الله – لما أسر الجُنْدَ الذين كانوا في الشواني، سَيّرَ منهم عشرة أنفس إلى البر الطويل. فلما تيقّن ملوك البر الطويل ذلك، عَظُمَ أيضًا على الباب ويسمى اللكات[٢] يعني الخليفة، فالتزم في نفسه أنه لا يُبقي بالديار المصرية ولا بالشام أحدًا من المسلمين، ولا بد أن يملكَ البيت المقدّس من المسلمين.

فسيَّر الباب مرسومه إلى ساير ملوك الرومانية بالبر الطويل، وهي المملكة العظيمة، مسافتها من دمياط إلى البر الطويل في البحر المالح إحدى[٣] عشر شهرًا. وبتلك الأرض ملوك وقِلاع وأجناس مختلفة الألوان. ورسم الباب في جملة كلامه لساير ملوك البر الطويل وصاحب مركرتكونة[٤] ومسّينة وبرشنونة، وسَيّرَ إلى ساير الملوك والنسا ملوك القلاع يقول لهم:

«تُجهِّزوا ألف قطعة شوانٍ وطرايد ومراكب الطرايد لحمل الخيل، والمراكب لحمل المونات، والشواني للقتال، وتكونوا مجهّزين إلى أن نعرّفكم ما تفعلون». فتجهّزت الملوك/ [٩٧و] الرومانية وفعلوا ما أمرهم به اللكاف، وجاءت الفرنج من كل فجٍّ عميقٍ ومن ساير القلاع ومن الجنوس المختلفة الألسنة ما لا يقع عليه الحَصْر. ومعهم جنس يقال له باشقَرْد وهم جنس ملعون وخلق أشرار وجميعُهم يتحدثون بلسان التركية، وليس لهم ملك يدبر أمرهم ولا كبير يرجعون إليه.

وكذلك جنس من الفرنج يقال لهم البنادقة. فإنهم أيضًا كذلك، ولكن البنادقة تجار محتشمون وأناس معروفون لهم أموال. وجنس الباشقَرْد فقراء شريرون مقاتلون معروفون بالشرّ والفتن. وما حضروا في مكان إلّا ونُصِرَ من كانوا معه، وهم يعتقدون أن الموتَ لهم

(١) كذا في الأصل، وهي: فانكسر، والمقصود بمدينة قبرص، الجزيرة.

(٢) اللكاف، والمقصود به: بابا رومية.

(٣) كذا في الأصل، وهي: أحَدَ.

(٤) كذا في الاصل. هل يعني بها مركز تركونة (Tarragona) في اسبانيا؟

في الأرض المقدسة خيرٌ من الحياة. وهؤلاء الجنوس الذين ذكرناهم – لعنهم الله – إذا جلسوا على الشراب يكون نُقْلُهم الفلفل، وذلك لبرودة الأرض التي هم بها.

وأما صفتهم وألوانهم، فإنهم صُفْر الوجوه، نُمْشُ الجفون، زرق العيون، حمر الشعور، أنحس ما يكون من الألوان والأجناس، ومن جملة نحسهم – لعنهم الله – أنهم يَعجَبون من خمسة أشياء عند المسلمين:

أولها: أنهم لا يعرفون ابن آدم أسود، ولا رأوه ولا يروه، وإذا رأوه خافوا منه. ويعتقدون في أنفسهم أنه مَسْخوط عليهم.

[٩٧ظ] الثاني: أنهم يعجبون من البهيمة التي تبركُ ليُحملَ عليها حِمْلُها/ وتقوم بحملها يعني بذلك الجمل.

الثالث: أنهم لا يعرفون أن في الأرض رجلٌ يُباع ويشترَى، وتُدَقُّ على رأسه الصنجة، ويصير ملكًا ويملك البلاد ورقابَ الناس، وهذا عندهم لا يمكن.

الرابع: أن الرجل من المسلمين يتزوج أربع[١] من النساء، وهذا في دين النصرانية لا يجوز.

الخامس: أن الناس إذا تعاملوا يتشاهدون بينهم، وهذا لا يعرفونه، ولكن لهم حُكّام رهبان وقسيسين[٢]. وشهودهم منهم من الجيران إذا تعاملَ اثنان أشهدا عليهما جيرانهما.

ومن جملة نَحسهم أنهم لا يعرفون تجارةً ولا بَيْعًا ولا شراءً غير القمار والنبيذ[٣] وهو جُلُّ دينهم وجل اعتقادهم. ومن جملة ما نقله من سَلكَ بلادَ البرّ الطويل، أن في مدينة مركرتكونة بالبر الطويل أربعين ألفَ كنيسة، وذلك خارج عن الديورة التي بظاهرها، وبداخل مركرتكونة مايتي ألف خَمّارة. وقد ذكرنا أن هولاء الجنوس بأسرهم دينهُم ومذهبهُم القِمار والنبيذُ الخمر، ولا يُعرفُ عندهم الفساد ولا الزنا ولا السرقة، ولهم بظاهر المدينة خمّارات وأماكن معروفة بالفساد والزنا.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: أربعًا.

(٢) كذا، وهي: وقسيسون.

(٣) يضاف فوق السطر: الخمر.

قال صاحب التاريخ: لما اتفق الحال بين ملوك الرومانية بالبر الطويل على ما ذكرناه، ووافقهم ابن الأنبرور، فبلغ ذلك السلطان/ الملكَ الظاهرَ فخاف على نفسه وعلى الديار [٩٨و] المصرية وعلى الشام وعلى عساكره، وقال في نفسه: إن طرقتني الفرنج من سكندرية ومن دمياط ومن عكّا فأخاف أن تأتيني التتر من الشرق، فيضعف حالي عن هاتين الطائفتين.

فجهّز الملك الظاهر أميرًا من أمرائه يقال له الصارم المسعودي[1]، وجهّز معه تُحَفًا وتقادم وأشياء لم يبعثْها ملك لملك غيره. وجهّزه إلى الملك الريد الانكتارة، وهو أكبر ملوك البرّ الطويل، وأخوه أيضًا ملك، ولكن هو أكبر من أخيه. وجهّز معه من جمله التحف ثلاثماية فضلة فلفل، ومن الزمرّد ما لا يعرف قيمته، ومن دُهْن البلسَم ما لا يعرف مقداره، وفيل وزرافة، ومن القماش والأشياء ما لا يوصف ولا يقع عليه الحصر.

وقال الملك الظاهر للرسول: «إذا وصلت إلى الملك أقره سلامي، فإذا سألك ما الذي يأمر به السلطان قَبِّل يده عني، وقل له: يسلّم عليك وما له إليك حاجة، ولكن قصدَه أن تكون أخاه وهو أخوك، ولا تقطع كتبك عنا، ولا تقطعْ كتبنا عنك، ولا تزيد ولا تُنقص».

قال: فلما وصل الصارم المسعودي إلى الملك وأحضر التقادم التي ذكرناها، فأعجب الملكَ ذلك إعجابًا كثيرًا، وقال للصارم: «ما الذي يأمر به السلطان؟» قال الصارم: «يسلم/ عليك وما له حاجة إلّا أن تكون في خير وعافية، ويكون أخاك وتكون أخاه». [٩٨ظ]

قال: ولما سمع الملك مقالة الصارم، أعجبه وأكرم الرسولَ إكرامًا عظيمًا، وأعطاه أشياء كثيرةً لنفسه وللملك الظاهر أمثال ما سَيّره. ثم رجع الرسول إلى الديار المصرية.

فلما كان بعد أربعة أشهر، إذْ وصَل رسُل الباب إلى الملوك بالبر الطويل، أنه: «تتجهّز ثلثماية قطعة إلى سكندرية، وثلثماية إلى ثغر دِمياط، وأربع ماية قطعة إلى عَكّا ليملك البيت المقدس».

فلما وصل الرسول من جهة الباب إلى الريد الأنكتارة قال للرسول: «أين أمرنا اللكاف؟» قال: «إلى عكّا». قال: «وما نصنع في عكا؟» قال: «تملك البيت المقدّس». قال: «والبيت المقدّس في حكم مَنْ؟» قال: «في حكم صاحب الديار

---

(١) راجع: السلوك ١/ ٥٥١؛ والروض الزاهر ٢٤٩؛

المصرية». قال الملك للرسول: «قَبِّل يد الباب وعَرِّفه أنّ صاحب الديار المصرية أخي ولا
[٩٨و] يمكنني أن أضربَ في وجهه بالسيف ولا أسير إلى بلاده لا أنا ولا أخي، وأي مكان
رسم لي الباب غير ذلك مَشيت على رأسي».

قال صاحب التاريخ: لَمّا انفصل رسولُ الباب ورجع إليه من عند الريد الأنكتارة،
كان قد دخل الشتاء والأمطار. وسمعت ملوك الرومانية أن الملك الأنكتارة قد امتنع عن
[٩٩و] الحركة، وأن البحرَ قد غلّق وهاج، وانهلّت/ الأمطار، فتهاون كُلٌّ من الملوك بما هو
بصدده، ومات الباب في تلك السنة. وتمادَى الحالُ على ما ذكرناه، ولم يطرق أحد
الديار المصرية ولا غيرها.

وفي هذه السنة، دخل أجادي وطمغار أولاد هلاوون إلى بلاد الروم[1]، وكان
ذلك بعد خروج أُبغا من أذربيجان من العجم، وبعد أن انكسرَ بُراق ابن بركة، واستوليا
على أموال الروم وحَواصِلها، ورسَما ألّا يتحدّث أحد من نواب المسلمين بالروم، وأن
يكون النوابُ ببلاد الروم من جهة التتر.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها ورد الخبر للسلطان الملك الظاهر أن التتر نزلوا على البيرة وحاصروها أشدّ
[٩٨ظ] حصار، وعِدَّتُهم ثلاثون ألفًا، وهم من خِيار المُغُل. وكان عليهم مقدمان من أكبر
مقدّمي التتر يُسَمّوا ناشي وانباي[2] وكان معهم عساكر الروم وجماعة من مماليك
برواناة وعسكر ماردين وعسكر ميافارقين وعسكر الموصل وعسكر الشهرزور،
ونصبوا على البيرة المجانيق ورموا البيرة بالحجارة.

وكان المنجنيقي الذي بالبيرة رجلًا قليل الخبرة بدولبة المنجنيق، وكلما رمى على
منجنيق التتر لم يقدر على كسره. وكان المنجنيقي الذي مع التتر رجلًا عاقلًا مسلمًا
[٩٩ظ] صالحًا، فتقدم إلى تحت القلعة ووصل إلى جانب/ سور القلعة وقال لأهل البيرة:
«قولوا للمنجنيقي الذي لكم: لو قطع الله من ذراعيه طول شبرا استراح

---

(١) ذيل مرآة الزمان لليونيني ٤٥٧/٢: أجاي وصمغرا. وراجع: الروض الزاهر ٣٩٩؛ والسلوك ٦٠٦/١.

(٢) عند اليونيني ١١٤/٣: تابشي واقتاي، لكن في الصفحة ١١٥ (حاشية ٢): ابنا نوين. راجع: السلوك ٦٠٦/١-٦٠٧؛ ونهاية الأرب ٣٣٣/٣٠؛ والروض الزاهر ٤٠٥؛ وذيل مرآة الزمان ٣/٣.

المسلمين[١] منه». فقطع المنجنيقي الذي للمسلمين من سهم منجنيقه طولَ شبرا واحدًا[٢] ورمى فكسر منجنيق التتر.

فلما انكسر منجنيق التتر، خرج أهلُ البيرة ورجالتهم في حملةٍ واحدةٍ في الليل وكَبسوا التتر وقتلوا منهم جماعةً ونهبوا قماشهم وحرقوا المنجنيق.

ولما بلغ الملكَ الظاهر نزولُ التتر على البيرة، فتح الخزاين وأنفق في العساكر ستماية ألف دينارٍ، وخرج من دمشق ونزل على القطيفة. فوصل له الخبر أن التتر قد حرق المسلمون منجنيقَهم وكبسوهم في الليل، وجرى على التتر أنحَس ما يكون ورحلوا من على البيرة.

وفيها رجع الملك الظاهرُ إلى دمشقَ.

وفيها توجَّهَ الملكُ الظاهر إلى الكرك. ثم عاد إلى دمشق واستنابَ بها عز الدين أيدَمُر ملك الأمراء.

وفيها وصل رسول من جهة صغانوين نائب التتر بأرض الروم.

وفيها وصلت رسل بركة، ووقع الاتفاق بين الملك الظاهر وبركة على أمور لم يقدّرها اللهُ تعالى.

وفيها كان الملك الظاهر مقيمًا بدمشق وهو آمن من كل محذور، والقلاع الاسماعيلية تحت أمره، وسائر الملوك الاسلامية يكاتبونه ويظاهرونه ويكارمونه./ [١٠٠و]

وفيها وصلت مراسلة برواناة.

وفيها فتح الملك الظاهر كَيْنوك[٣].

وفيها وصلت الأخبار أن الخطيب ببغداد خطب ودعا لعساكر المسلمين. فلما بلغ أُبغا ذلك غضب غضبًا شديدًا، وطلب الخطيبَ وقال له: «أنت تدعو لعساكر المسلمين؟» قال: «نعم». قال أُبغا: «ولم؟» قال: «لأن نحن المسلمون وأنتم عساكرنُا». قال: فأعجبَ ذلك أُبغا وقال للخطيب: «افعل ما تختار».

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: طول شبرٍ استراح المسلمون منه.

(٢) كذا، وصوابها: طول شبرٍ واحدٍ.

(٣) راجع: الروض الزاهر ٤١٧؛ ونهاية الأرب ٣٠/٣٣٥؛ والسلوك ١/٦٠٨؛ وفي تاريخ ابن الفرات ٧/١، حوادث سنة ٦٧٢ «وسماها كينول، وقال: يعني المحترقة، لأن المتحكم في سيس وهو المسمى بقسطنطين، كان أخذها من الروم السلجوقية وأحرقها، وهي المعروفة بالحدث الحمراء، ويورد بناء سيف الدولة بن حمدان لها.

وفي هذه السنة سَيّرَ أُبغا أخاه إلى بلاد الروم ومعه مقدم من أكبر مقدّمي التتر يُسَمَّى طقونوين، ومعه أربعون ألف فارس. ورسم لهم أن يكتبوا له أموال الروم ومُتَحصَّلُها، ولا يمكّنوا أحدًا من جهة برواناة أن يتحدث في بلاد الروم، وأن يكون النواب بأعمال الروم «من جهتنا خاصة لا من جهة غيرنا».

وفي هذه السنة مات أقطاي المستعربي المعروف أتابك[١].

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها أقام الملك الظاهر بالشام لما بلغه أن أُبغا شَتّا ببغداد. فلما رجع أُبغا إلى الشرق، عاد الملك الظاهرُ إلى الديار المصرية وأقام بها سنة ثلاث وسنة أربع وسنة خمس [وسبعين؟] وستماية، وهو في أَسَرّ ما يكون من العيش، والمسلمون أيضًا معه في أَسَرّ حال، خالون من الأنكاد مقدمون على الأفراح.

وفي سلخ سنة خمس وسَبعين وستماية

[١٠٠ظ] / توجه الملك الظاهر إلى الشام، ودخل دمشق، وتوجّه من الشام وضرب مع التتر مصافًّا وكسرَ التتر كسرةً عظيمةً شنيعةً على مرج البُلُستَين[٢].

وفيها جلس السلطان الملك الظاهر على التخت بأرض الروم تحت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخصروا ابن قلج أرسلان[٣] السلجوقي، وخرج من الروم ونزل على النهر الأزرق ويسمّى بلسان التركية كوك صو[٤].

ولما رحل من أقشا دربند، سَيّرَ شمس الدين سنقر الأشقر مقدمًا على بعض

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٣١٨ رقم ٤٢٥١.

(٢) السلوك ١/٦٢٥ «مدينة في بلاد الروم اسمها الحالي «البستان»، وهي قريبة من إفسوس». راجع: معجم البلدان لياقوت؛ وسيرة الملك الظاهر لابن شداد ١٦٩–١٧٤.

(٣) في الأصل: رسلان، أنظر: سيرة الملك الظاهر ١٧٥؛ وزبدة الفكرة ١٥٥؛ ونهاية الأرب ٣٠/٣٥٦؛ وتاريخ الاسلام (٦٧١–٦٨٠) ٢٥؛ والسلوك ١/٦٣١.

(٤) راجع: زبدة الفكرة ١٥٤؛ وذيل مرآة الزمان ٣/١٧٦؛ والنجوم الزاهرة ٧/١٦٧؛ والسلوك ١/٦٣٢.

العساكر المصرية ووقعوا بجماعة من التتر مقدمهم يسمّى كراي[١]، واتقع العسكران وقتل بينهم خلق كثير وانهزمت التتر، وأسر المسلمون منهم طايفة يسيرة. ولما وصل الخبر إلى الروم بما جرى على عسكر التتر، خرج مقدّم من مقدّمي التتر يعرف تدون ومعه عشرة آلاف فارس وشاليشهم عساكر برواناة ونزلوا على نهر جاهان.

قال من حضر هذه الوقعة: إن التتر لما تقدّموا لملتقا العساكر الاسلامية لو علموا أن الملك الظاهر صحبة العساكر رجعوا، ولكن توهّموا أنه بعض عسكر مصر. فلما أشرفوا على صحر [ا] البُلُسْتين، وجدوا قوسًا ملقا في الأرض، فطلبوا برواناة وقالوا له كراي وتدون[١] وبعض المقدّمين: «يامير من اين هذا القوس؟» قال برواناة: «من قِسِيّ الشام». قال التتر بعضهم لبعض: «نرجع من هاهنا». فشاوروا برواناة في/ الرجوع إلى الروم. قال [١٠١و] برواناة: «الأمر أمركم». قال كراي وتدون: «لا بد من الموت كيف نرجع مكسورين؟».

وطلبا هنابان مملوان[٢] خمرًا صِرْفًا، فشرباهما ولبسا لأمة حربهما، ولبست عساكر التتر ميمنةً وميسرةً، وجعلوا عسكر برواناة ناحيةً عنهم. وذلك ظن[٣] منهم أنهم مخامرين مع المسلمين، وطلبت[٤] عليهم عساكر الاسلام. والتقا العسكران بعد أن عزلوا عسكر الروم ناحية عنهم كما ذكرنا، وجعلوا الكُرْج طُلْبًا واحدًا.

ولما التقا الجمعان، قُتل التتر بأجمعهم ولم يسلم منهم إلّا قليل. وذلك أن المسلمين كانوا في خلق كثير وكانوا[٥] التتر عشرة آلاف، ونصر الله هذه الملّة المحمدية بهذه العصابة التركية. وفي هذه الوقعة أسر المسلمون من التتر ملكًا كبيرًا يُعرَف زيرك بَهادُر، مسكه الحُسام أستاذدار سنقُر الرومي.

قال من حضر هذه الوقعة: إن التتر لما قُتلوا جميعًا، خاف برواناة على نفسه من العبور إلى الروم، فإنه كان يكاتب الملكَ الظاهر، فوقفَ على جبلٍ من جبال الروم، وطلب من بقي معه من الأمراء وقال:

---

(١) راجع: زبدة الفكرة ١٥٤: توقو وتداون؛ وذيل مرآة الزمان ٤/١٧٦: تتاوون.
(٢) كذا في الأصل، وهي: هنابين مملوءين، والهناب: الكوب أو الكأس. راجع: تكملة المعاجم لدوزي.
(٣) كذا في الأصل، وهي: ظنًّا.
(٤) كذا في الأصل، وهي ربما تكون: وأطلت، أو أطبقت.
(٥) كذا في الأصل، وهي: وكان التترُ.

«ما تَرون، نرجع إلى الروم أو نتوجّه إلى الملك الظاهر؟» فقال بعض أصحابه: «أنت رجل عاقل، وقد أُكلت بيتَ مال الروم أربعين سنةً، وقد خوّلكَ ملوكُ التتر في بلادهم [١٠١ظ] وأموالهم وخزاينهم/، ولا يأكل أحد من التتر إلّا ما فَضُلَ عنك. وفي مثل هذا الوقت تتوجه إلى أعدائهم؟» قال بروانـاة: «أخاف منهم من القتل، فإنّ التتر غدارين مَكّارين». قالوا له: «إن التتر في هذا الوقت يعذرونك، فإنكَ قد أُسِرَ ولدُك، وقتلوا مملوكك الكبير، وخربت بلادُك، وراحت خزاينُك، وتشتّت شملُ أهلك، فإن عذروك فالأمر لله ولهم، وإنْ قتلوك فتموت شهيدًا». وكان هذا سوء التدبير وسوء الرأي. فعند ذلك رجع بروانـاة إلى الروم وصغَى إلى قولهم.

[١٠١و] في هذ الوقعة أسر المسلمون علاء الدين ابن البرواناة وسُنقُر البرواني، وكان أكبر أمراء الروم. ثم رجع الملك الظاهر منصورًا مؤيّدًا، ورجعت العساكر غانمين مسرورين.

ولما وصل الخبر إلى أبغا بما نقلناه، ركب في ثمانين ألفًا وجَدّ في المسير، ووصل إلى مكان المقتلة، فرأى مقتلةً عظيمةً من التتر. فوقف زمانًا وهو يطوف بالقتلَى، وطلب بعض أمرائه وقال: «ما كان يريد يقتل من المسلمين رجلًا واحدًا. أنا أعرف من كان سبب قتل هؤلاء، ومن طلَبهم إلى القتال، ومن كان سبب هذا، وفعل في حق التتر ما فعل، كل هذا فعل بروانـاة. والله لأقطِّعنه ألف قطعة». فطلبوا بروانـاة. فلما حضر بين يديه رسم أن [١٠٢و] يقطِّعوه إربًا إربًا/ فقطعوه[1].

ثم دخلت سنة سِتّ وسبعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها توجه السلطان الملك الظاهر من قيسارية الروم إلى دمشق وأقام بها وهو في غاية الفرح والسرور، وهو وعساكره في غاية ما يكون من البشرى بالنصرة على التتر[2].

وفي هذه السنة مات السلطان الملك الظاهر وشرب بالكاس الذي سقا به.

---

(١) راجع تفاصيل ما جرى على سليمان البرواناة في: سيرة الملك الظاهر لابن شداد ١٨٣؛ وكنز الدرر ١٩٦/٨؛ وزبدة الفكرة ١٥٨؛ وتاريخ الاسلام (٦٧١–٦٨٠) ٢٨؛ والسلوك ٦٤٧/١؛ والوافي بالوفيات ٤٠٧/١٥ رقم ٥٥٦؛ وفوات الوفيات ٧١/٢ رقم ١٧٨؛ وتالي كتاب وفيات الأعيان ٧٩ رقم ١٢٠.

(٢) عن رحلة عودته من الروم مظفرًا، راجع: سيرة الملك الظاهر لابن شدّاد ١٧٧؛ وذيل مرآة الزمان ١٨١/٣؛ ونهاية الأرب ٣٥٧/٣٠؛ والسلوك ٦٣٢/١؛ وكنز الدرر ٢٠٤/٨؛ وتاريخ الاسلام للذهبي (٦٧١–٦٨٠) ٢٨.

ذِكْرُ وفاة الملك الظاهر، رحمه الله ورضِيَ عنه

ولما كان يوم الخميس رابع عشر المحرّم من هذه السنة، يعني سنة ست وسبعين وستماية، جلس الملك الظاهر بالقَصْر الأبلق بدمشق، وخلَع وأنعم وفتح الخزاين وأنفق الأموال، وشرب القُمُز ونثر الدنانير والدراهم والتفاصيل، وهو في غاية الفرح والسرور. وكانت وفاته يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرّم[١]. وفي يوم الجمعة الأخرى خطبوا للملك السعيد بمصر والشام.

ذِكْرُ ما جَرى للملك السعيد

قال: ولما كان يوم الجمعة الأخرى من مملكة الملك السعيد، مسك سُنْقُر الأشقر وجماعة معه من الأمراء الأكابر. ثم أفرج عن سُنْقُر الأشقر[٢].

ثم دخلت سنة سبعٍ وسبعين ستماية من الهجرة النبوية

والخليفة الإمام الحاكم بأمر الله[٣]، وصاحب مصر والشام الملك السعيد بركة قان ابن الملك الظاهر[٤]، وصاحب حماة الملك المنصور، والحاكم على العربان بالشام عيسى ابن مهنا[٥]، والتتر مستولون على بلاد الروم/[٦] والعجم والعراق. [١٠٢ظ]

---

(١) أنظر: سيرة الملك الظاهر لابن شداد ٢٢٠؛ وزبدة الفكرة ١٦٠؛ والسلوك ١/٦٣٥؛ وتاريخ ابن الفرات ٨/٨٠؛ وكنز الدرر ٨/٢٠٨؛ والروض الزاهر ٤٧٢–٤٧٤.

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٥/٤٩٠ رقم ٦٥٦؛ وتاريخ الإسلام (٦٧١–٦٨٠) ٣٠؛ وتالي كتاب وفيات الأعيان لابن الصقاعي ٨٥ رقم ١٢٧؛ والسلوك ١/٦٤٥؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/٩٦.

(٣) أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي القُبّي ابن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله. راجع ترجمته في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٨–٤٨٤.

(٤) الملك السعيد ابن السلطان الملك الظاهر محمد بن بيبرس، ناصر الدين أبو المعالي بركة خان، راجع ترجمته في الوافي بالوفيات ٢/٢٧٤ رقم ٦٩٧؛ وكنز الدرر ٨/٢١٩؛ والسلوك ١/٦٤١؛ وزبدة الفكرة ١٦٢–١٦٤؛ ونهاية الأرب ٣٠/٣٦٩؛ وذيل مرآة الزمان ٣/٢٩٣.

(٥) راجع: السلوك ١/٦٥٦–٦٩٤.

(٦) في الهامش وبخط مغاير: الحمد لله ذي الملك والملكوت، له الملك وله الحمد، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين. بلغ العبد المصطفى مطالعة، وبالله سبحانه التوفيق، لا شريك له.

وفي هذه السنة مات الأمير شمس الدين سنقر الفارقاني، قتلوه المماليك[١] الخاسكية.

وفيها مات الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب الملك الظاهر[٢].

وفيها مات الصاحب بهاء الدين ابن حنا، وقيل مات في سنة خمس وسبعين وستماية[٣].

وفي هذه السنة توجّه الملك السعيد من الديار المصرية إلى الشام، ونزل بدمشق، وأقام بها، وجرّد العساكر إلى سيس، ومقدمهم الأمير بدر الدين بَيْسَري[٤]. ثم أردفهم بعشرة آلاف فارس مُقَدّمهم قلاوون الصالحي[٥].

ذِكْرُ سيرة الملك الظاهر، رحمه الله

قال صاحب التاريخ[٦]: كان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري – رحمه الله – ملكًا جليلًا كبيرَ القدْر، عظيم الشأن، كبيرَ الحُرْمة، كثيرَ البِرّ والمعروف والصدقات لمن يعرفه ولأصحابه، وكان كثير الإحسان لمماليكه. وكان إذا وجدَ صَاحبًا له أحسَن إليه، وإذا لم يجده فلا يفتكره. وكان لا يقف عند أيمانه إذا حلفَ، [١٠٢ظ] وكان إذا وعدَ أميرًا بخيرٍ حبسَه.

وكان خفيف الركاب مِقْدامًا في الحرب، جبانًا[٧] فيه، كثير الحُجَّة، كبيرَ الهمّة.

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: قتله المماليك الخاصكية...؛ راجع ترجمته في المنهل الصافي ٤٩٤/٢ رقم ٥٠٠؛ والوافي بالوفيات ٣١٠/٩ رقم ٤٢٤٥؛ وتاريخ ابن الفرات ١٠١/٧؛ والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٧؛ والدليل الشافي ١٤١/١ رقم ٤٩٩.

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٦٥/١٠ رقم ٤٨٦١؛ والمنهل الصافي ٥١٢/٢ رقم ٧٤٩؛ والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٧؛ وذيل مرآة الزمان ٢٦٢/٣؛ ونهاية الأرب ٣٧١/٣٠؛ وزبدة الفكرة ١٦١–١٦٣؛ وتاريخ ابن الفرات ٩٣/٧.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٠/٢٢–٣٣.

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٦٤/١٠ رقم ٤٨٥٩؛ والمنهل الصافي ٥٠٠/٣ رقم ٧٤١.

(٥) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٦٦/٢٤ رقم ٢٨١؛ وراجع: تاريخ ابن الفرات ١١٧/٧.

(٦) حول سيرته، راجع ما كتبه ابن شداد في تاريخه ٢٦٧؛ وزبدة الفكرة ٥٣–١٥٧.

(٧) كذا في الأصل، ولا يصحّ.

وعمل آثار[١] حسنةً بسائر البلدان، من جملتها المدرسة والسقاية بين القصرين، ومكتب السبيل لأطفال المسلمين اليتامَى مجاور المدرسة، وأجرَى لهم الجامَكيات والجرايات. وهو/ مستمرٌّ إلى يوم تاريخه. وعَمَّر بظاهر القاهرة المحروسة بالحسينية جامعًا لم يُرَ [١٠٣و] أحسن منه، ووقف له وقفًا جليلًا. وعَمَّر بظاهر باب اللّوق قريبًا من البحر ميدانًا عظيمًا لم يُرَ أحسن منه، وهو إلى الآن تلعب فيه الملوك الأُكْرَةَ.

وخرب ثغر دمياط إلى الأرض، وعمل لدمياط جسْرًا متصلًا من باب الشعرية إلى دمياط، وذلك احتياط أن تطرقَ الفرنجُ دمياط، ويكون النيل قد عَمَّ البلادَ فيحصل للمسلمين منه نكَد. وعمل على نهر الشريعة قنطرةً عظيمةً وانتفع بها التجار والمسافرون نفعًا كبيرًا. وعمل على بحر ابن مُنَجًا[٢]. وهو فرع من النيل، وهو بحر عظيم يعادل النيل أو دونه قناطر[٣] لم يُرَ أحسن منها. وكان يحبّ الفقهاء والعلماء ويقيم منار الشرع الشريف.

وخرّب بثغر سكندرية كنيسةً عظيمةً وعملها مدرسةً وسمّاها المدرسة الخضراء، وكان ذلك برأي الشيخ خضر[٤]. وعمّر منار سكندرية من الجانب الغربي وكان آل أمرُها إلى الخراب. وكانت منذ عمّرها الإسكندر لم يجدّد أحدٌ فيها شيئًا. وخرّب أيضًا بثغر سكندرية من الجانب الغربي ديرًا يسمّى دير الزجاج، وعمّره من بيت مال المسلمين، وكان ذلك بإشارة القاضي ناصر الدين إبن المنيّر قاضي سكندرية.

وسبب ذلك أن هذا الدير المذكور بظاهر سكندرية من الجانب الغربي مسافته من سكندرية نصف يوم، وكل من خرج من ثغر/ سكندرية متوجهًا إلى بلاد [١٠٣ظ] المغرب ينزل به، فتقف الرهبان في خدمة من ينزل عندهم ويطعمونه على قدر مقداره، وكذلك من يرد من بلاد المغرب من المغاربة والعُربان والتجار والحجّاج

---

(١) كذا، وهي: آثارًا.

(٢) كذا في الأصل، وفي السلوك ١/١١٩: أبي المنجّا، وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحالية، ثم تمر ببلبيس، وتلتقي في شمالها ببحر الفرما الذي يسير مخترقًا برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة الفرما على البحر الأبيض المتوسط غربي بور سعيد الحالية. وقد بدئ بحفره سنة ٥٠٦هـ في عهد الآمر الفاطمي (٤٩٥–٥٢٤هـ) ونيط بحفرها إلى أبي المنجّا بن شعيا اليهودي.

(٣) في الأصل: قناطرًا.

(٤) المشهور بشيخ الملك الظاهر وذلك لارتباط اسمه به، ترجمته في الوافي بالوفيات ١٣/٣٣٣ رقم ٤١٣.

وملوك المغرب، ينزلون بذلك الدير، فتقف الرهبان في خدمته، ويقدموا له على قدر منزلته والدير على حاله إلى يوم تاريخه.

[١٠٣و] وللملك الظاهر آثار حسنة، مثل فتوح الساحل، وخرّب بعض قلاع الساحل وعمّر بعضها، واستولى على أكثر بلاد العدو، وصار له عندهم كلمة عظيمة وأمر جليل.

وكان قليل الموافاة للفضلاء والشعراء والمُدّاح وأصحاب الفضائل. فمن جملة ما جرَى له في أيام مملكته – رحمه الله – أنه لما بلغه أن الملوك بالبرّ الطويل قد اجتمعوا طالبين البيتَ المقدّس، وأنهم خلقٌ لا يقدر على ردّهم، سَيرّ رسولًا من جهته إلى أكبر ملوكهم الريد الأنكتارة، والريد جكم وأخوه[1] وصالحهم وهاداهم. ولم يطرق أحدٌ من ملوك الفرنج ولا الرومانية بلاد مصرَ ولا الشام، وخدعَهم وأوصَى رسُلَهم بأمور كثيرةٍ قد ذكرناها في هذا التاريخ. وسَيرّ من التقادم والأموال والتحف مالًا جزيلًا، وخدع الفرنج، وسَدّ اللهُ تعالى عن المسلمين ببركته وتدبيره وكان فيه الخير.

[١٠٤و] وفتح قيسَارية وأرصوف[2] ويافا وصفَد ومصيات[3] والمينقة/ والعليقة والرصافة والقُدْموس والخوابي. وغار على سواحل طرابلس وقطع أشجارها وأسر وقتل من وجده في البساتين، وفتح درب ساك، وبُغْراس، والمرزبان[4]، ودركوش[5]، وكفر تبنين[6] والمناصفات والقُصَير، وشنج، وقلعة الجود، وحصن الأكراد، وقارا، والنبك، والقُرَين، وشقيف أرنون، وشقيف تيْرون، وحِصْن عكار والمسلحة[7] وكينوك.

[١٠٣ظ]

ذِكْرُ ما جَرى للملك السعيد من سوء الحال، وسبب انتزاع الملك منه

قال: ولما جلس الملكُ السعيد في دَسْت المملكة بالديار المصرية، وجَرّد العساكرَ إلى

---

(١) هل يقصد به: Jaime؟ كذا في الأصل، وهي: وأخيه.
(٢) السلوك ومعظم المصادر: أرسوف.
(٣) معظم المصادر: مصياف.
(٤) في الأصل: المرزن. أنظر: كنز الدرر ٨/٢١٣؛ والسلوك ٦٣٨: المرزبان.
(٥) في الأصل: تركوش. أنظر: كنز الدرر ٨/٢١٣؛ والسلوك ٦٣٨: دركوش.
(٦) في الأصل: دبنين. أنظر: السلوك ٦٣٨: دنين، وأيضًا: معجم البلدان لياقوت ٤/٢٨٨: كفر دُبّين.
(٧) كذا في الأصل، وربما هي: المسيلحة.

سيس، وخرَج وأقام بدمشق هو ونائبه سيف الدين كوندك[1] وأهل دمشق معه في [١٠٥] أطيب عيش، يدعون بحياته، فإنه كان قد حَطّ عنهم الظُّلامات التي كان أحدثها أبوه عليهم.

ثم اتفق في ذلك الوقت أن بعض المماليك الجمدارية والخاسكية تخاصموا مع كوندك وأرادوا قتلَه. فمنعهم سنقر الأشقر عن ذلك، وأخذ كوندك عنده في داره أحد عشر يومًا، وبعد هذه المدة قصدَ سُنْقُر الأشقر الصلْح بين الفريقين، فلم يقدر على ذلك. فلما كان اليوم الثاني عشر من هذه الفتنة، خرج لكوندك منشور مشرَّفٌ بالعلامة السلطانية من الملك السعيد بأربعين فارس في حلب.

ثم اتفق في ذلك الوقت وصول/ العساكر المجرَّدين ببلاد سيس، فخرج إليهم [١٠٤ظ] كوندك وتلقا الأمراء، وحلف لهم أيمانًا عظيمةً أنهم متى دخلوا دمشقَ مسَك الجميعَ.

قال صاحب التاريخ: لما سمع الأمراء هذا الكلام، خافوا على أنفسهم، واجتمعوا وضرَبوا مشورةً فيما بينهم. فاتفق الحال بينهم ألّا يعبروا دمشق. فنزلوا على القُطَيفة فباتوا. ثم رحلوا ونزلوا على الجسورة بظاهر دمشق. فلما بلغ الملك السعيد ذلك، خاف على نفسه ودخل على أمه وهو خائف وَجِلٌ، وقال: «انظري ماذا تفعلين معي». فخرجت والدته إلى خدمة الأمراء لتشفعَ في ولدها عندهم. فأجابها الأمراء بالسمع والطاعة، وقالوا: «غدًا – إن شاء الله تعالى – نعبر دمشق[2]».

فلما توجّهت والدة الملك السعيد إلى دمشق وصار نصف الليل، توجّه الأمراء طالبين الديار المصرية. فلما بلغ الملك السعيد رحيل الأمراء إلى الديار المصرية، خاف [.٥] على نفسه وطلب الأمير علم الدين سنجر الحلبي وقال له:

«أنت أبي بعد أبي. ما الذي تأمرني به؟» قال الأمير علم الدين سنجر الحلبي: «الرأي عندي أن نركب خلفهم منزلةً بمنزلةٍ، فإذا وصلوا القاهرة أدركناهم». فاتفق الحال على ذلك. فأخذ الأمير علم الدين سنجر الحلبي الملك السعيد صحبته ومن بقي معه من العساكر، وساروا طالبين الديار المصرية.

---

(١) السلوك ١/٦٤٤، ٦٥١، ٦٨٥.

(٢) زبدة الفكرة ١٦٦؛ وعقد الجمان ٢/٢٠٠.

[١٠٥و] ## ذِكْرُ ما جَرى في هذه السنة من النكُث/ والأراجيف والاختلاف والأقاويل الفاسدة والأيمان الحانثة والآراء المختلفة بين المسلمين

قال: لما وصل الملك السعيد إلى قلعة الجبل وطلع إليها، لم يمنعه أحد عنها، واحتاط العساكر المصرية بالقلعة المحروسة. ولكن بعد نهب الأموال وأخذ الخزاين والخيول، ونهبت العربان، ونهب الناسُ بعضهَم بعضًا. وكان لا يقدر أحد من المسافرين، ولا التجار، يقدر أن يسلك من مصر إلى الشام، ولا من الشام إلى مصر، وذلك لاختلاف الملوك والعساكر وقطع الطريق وهيجان العُربان.

ولما احتاط العساكر بالقلعة، كان الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي هو المتحدِّث في المملكة، والأمير عز الدين الأفرم نائبًا للملك السعيد بالقلعة[١] فاجتمع الأمراء وطلبوا الأمير عز الدين الأفرم من القلعة، فنزل إليهم وتحدَّثوا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض:

«هذا صبيّ خفيف العقل، وإن مملكة الديار المصرية مملكة عظيمة، ولها صورة بين ملوك الشرق وملوك التتر وملوك الفرنج، ولا بدّ لنا من رجل يكون أكبر قَدْرًا وسِنًّا، فندخل تحت طاعته ونمتثل أمره، ويكون يعرف قدرَنا، ويحسن لكل مِنَّا على قدر منزلته».

وقال الأمير عز الدين الأفرم[٢] وسُنْقُر المسّاح والأيدمري وبكتاش أمير سلاح [١٠٥ظ] والحاج طيبرس الوزيري: «ما فينا من يصلح لهذا/ الأمر غير الأمير سيف الدين قلاوون». فامتنع عن ذلك. فقام عز الدين الأفرم وقال: «ما ترون يأمراء؟» فقام الحاج شمس الدين سنقر المسّاح، ومسك يد الملك المنصور وبايعه، ونهض بعده الحاج طيبرس الوزيري، وقام بعده الأيدمري وبايعوه أن يكون مدبر هذه المملكة، ويكون نظره عليهم.

قال صاحب التاريخ: كان ذلك لطفًا من الله تعالى.

ولما طلع الملك السعيد القلعة واستقرّ بها، غلق الأمير عز الدين الأفرم عليه باب القلعة، وقطع عنه الماء، وطمع الأمراء فيه. وبقي الملك السعيد ثلاثة أيام محاصرًا بالقلعة، وبعث إليه

---

(١) كنز الدرر ٨/٢٢٩؛ والسلوك ١/٦٢٢.

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي (٦٧١–٦٨٠) ٣٢، ٣٦–٣٨؛ ونهاية الأرب ٣٠/٣٩٤.

الخليفة يقول له: «اخلَعْ نفسَكَ من المُلْك، وَولِّ أخاكَ، فإنّ أباكَ له خدمة علينا وأيادٍ وانجا(١) بنفسكَ سالمًا، ونحن نعطيك الكرك».

قال صاحب التاريخ: لما وصلت هذه الرسالة إلى الملك السعيد، ورأى العجزَ في نفسه، وقد عجز عن قتال العساكر، ورأى قِلَّة أنصاره، وتخلّا عنه أمراؤه ومماليكه، أذعن إلى ما أُمِرَ له به، وأجابهم إلى ذلك.

وفي يوم الثلاثاء من هذا الشهر المذكور شهر ذي القعدة من سنة سبع وسبعين وستماية، فيها رسم الملكُ السعيد قبل أن يخرج من القلعة ألّا يبقا في حبس القَلْعة رجل واحد.

ثم توجّه من قلعة الجبل منفيًّا إلى قلعة الكرك.

[وفي هذه السنة](٢) [في شهر ربيع الأول سنة ٧٨، وكانت مدة سلطنته سنتين وشهرًا]./ وتسلطن أخوه سلامش ولقّبوه الملك العادل(٣)، وكان ذلك بإشارة الأمير [١٠٦و]
سيف الدين قلاوون الصالحي. ولما استقرت سلطنة الملك العادل سلامش، رسم الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي للأمير شمس الدين سنقر الأشقر أن يتوجّه إلى الشام ويقيم بدمشق ويكون نائبًا بها عن الملك العادل. وقال الأمير سيف الدين قلاوون لشمس الدين سنقر الأشقر: «يأمير شمس الدين، أنت نائب هذا الملك بالشام وأنا نائبه بمصر، وأنت خوشداشي وأكبر مني، وأنا أنت وأنت أنا، ومهما جرَى لك بالشام تعرفني، ومهما جرَى لي بمصر عَرَفتك، ولا تقطع كتبك عني».

ولما كان ثاني جمادى الآخرة من هذه السنة، جرت أمور يطول شرحُها، ولكن اختصرناها ونقلنا محاسن ما فيها.

قال صاحب التاريخ: واستقرّ الأمير شمس الدين سنقُر الأشقر بنيابة دمشق وأعمالها، والأمير سيف الدين قلاوون الصالحي بمصر وأعمالها. ولما كان سابع شهر رمضان المعظمّ من هذه السنة، ركب السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي في دَسْت المملكة بالديار المصرية(٤).

---

(١) كذا في الأصل، وهي: وانجُ.

(٢) ما بين الحاصرتين أضيف في السطر الأخير من الصفحة وبخط مغاير عوض إضافتها في بداية السطر.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٥/٣٢٦ رقم ٤٦١؛ وكنز الدرر ٨/٢٧٧؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/١٤٨.

(٤) بالهامش: وقيل كان سلطنة الملك المنصور في شهر شعبان.

ذِكْرُ مملكة السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي

قال: ولما ركب السلطان الملك المنصور في دست المملكة بالديار المصرية [١٠٦ظ] بالشاويش(١) والغاشية/ والحُجّاب والنقباء، ومشَى الأمراء وأبناء الملوك في خدمته يمينًا وشمالًا على قَدْر مراتبهم. وانفصل أمرُ الملك العادل سَلامُش، وكان ذلك لطفٌ من الله تعالى بالمسلمين(٢). فإن الملكَ المنصور قلاوون الصالحي – رحمه الله ورضي عنه – أثّر آثارًا حسنةً.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستماية من الهجرة النبوية

فيها كان الملكُ المنصور قلاوون الصالحي مالكَ الديار المصرية لا غير(٣).

ذِكْرُ محاسن الملك المنصور قلاوون الصالحي، رحمه الله

وما أثّره في دولته من الخيرات والأفعال التي لا تُنْقَلُ عن غيره، وهذا ما نقله الشيخ الإمام شرف الدين ابن الوحيد الموقِّع صاحب الفضايل والكتابة الحسنة في تاريخه، وهو تاريخ مختصر يشتمل على محاسن الناس وسماه: فضائل الدولة المنصورية على الدولة الظاهرية.

قال: ولما جلس الملك المنصور في دست المملكة بالديار المصرية، رأى أن مماليكه قليل، وكان قد مسك جماعةً من الظاهرية والسعيدية وقتلهم. فصار باب القلعة شاغرًا من الجُنْد. فرسم الملك المنصور أن: «يجمعوا أولاد البحرية».

فجمعوهم من باب اللُّوق مَساطيل ومقامرين ودلّالين بالأسواق، ومنهم من

(١) الشاويش والغاشية: غطاء تختلف جودته ونفاسته يغشى به سرج الفرس، وكانت في دولتي السلاجقة والمماليك من شعارات السلطنة، وكان يحملها أمام السلطان مروِّض الجياد. راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي. وعن شعائر السلطنة راجع: صبح الأعشى للقلقشندي ٤/٧، ٤٤–٤٩؛ والمواعظ والاعتبار ٢/٢٠٩.

(٢) عن سلطنة الملك العادل سلامش، أنظر: زبدة الفكرة ١٧٣؛ وعقد الجمان ٢/٢٢٣؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/١٤٩.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤/٢٦٦–٢٧١؛ وراجع عن سلطنته: تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ٥٤؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/١٥٣؛ وزبدة الفكرة ١٧٤.

كان وَقّادًا في قَمين الحمّام، ومنهم من كان يحمل في حوانيت الطباخين. ورسم لهم بالخيول/ والأموال والإقطاعات والجَوامك والجِرايات واللّحم، ورسم أن يكونوا بباب [١٠٧و] القلعة على جَاري عادة آبائهم. وهذا فِعْل لم يُنقَل إلّا عن الملك المنصور قلاوون الصالحي، رحمه الله ورضي عنه. وكان ذلك بالرغم من نائبه طُرنطاي[1]. فإنه كان يكره البحرية وأولادهم، وسبب ذلك أن أمراء البحرية كانوا في وقتهم رجالًا شجعانًا مقدامين في الحروب.

فلما أن آل المُلكُ إلى السلطان الملك المنصور وصار هو الحاكم في المملكة المصرية والجيوش المنصورة، فكان من بقي من البحرية يستقلّون أن يقبّلوا يد طُرنطاي، وكانت أولادهم تدبيرهم سَيّئ. فلما جلس أولاد البحرية على باب القلعة، واستقرّ حالُهم على ما ذكرناه، رسم الملك المنصور أن يكتبوا له المعتقلين بالحبوس، فكتبوا له ذلك.

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: إن السلطان الملك المنصور لما جلس بدست المملكة بالديار المصرية، رسم لمن كان بباب القلعة: كل من نزل ممن كان معتقلًا بحبس القلعة يُعتقَل بخزانة البنود. وكان الملك السعيد ليلة نفيه من القلعة أعتقهم. فلما تملّك الملك المنصور، افتكر المعتقلين، فرسم بعمل أوراق ليفرج عنهم.

ذِكْرُ ما جَرى للأمير فخر الدين ابن الملك المغِيث مع الملك المنصور قلاوون

قال الشيخ شرف الدين ابن الوحيد:/ فلما عملوا أوراق المعتقلين وقرأوها على [١٠٧ظ] السلطان الملك المنصور، نظر إلى طُرنطاي مُغْضَبًا وقال: «أنا أمرتكم أن تكتبوا أوراق العَوامّ وسائر الناس؟ إنما أطلب فخر الدين عثمان[2] ابن الملك المُغِيث، وعلاء الدين إبن بروانَاة».

قال طرنطاي: «أما إبن البَرواناة فقد أخذه الأمير شمس الدين سُنقُر جاه البرواني مملوك أبيه، وأما الأمير فخر الدين ابن المغيث فلم نعلم له خبرًا».

---

(١) طرنطاي، الأمير حسام الدين أبو سعيد المنصوري، نائب السلطنة بالقاهرة. ترجمته في الوافي بالوفيات ٤٢٩/١٦ رقم ٤٦٦.

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٤٨٩/١٩ رقم ٥٠٣، وعثمان بن عمر بن أبي بكر بن محمد الملك العزيز.

فعظُمَ ذلك على الملك المنصور وقال: «من كان في ذلك الوقت على السجن؟» قالوا: «الطواشي محسن المغيثي خادم الملك المغيث[1]». فطلب الملك المنصور الخادم. فلما حضر بين يديه قال له: «أين فخر الدين عثمان؟» قال الخادم: «محبوس». قال: «ما أخرجه الملك السعيد في جملة العالم؟» قال: «نعم». قال: «فمن حبسه ثاني مرة؟» قال الخادم: «يا خوند هو حَبَسَ نفسَه». قال السلطان: «ولم؟» قال:

لما خرج من الحبس جلس هو وعلاء الدين ابن البرواناة بباب القلّة، فوجد الوقت لم يكن له حاكم فرجع، وقال لي ومسك ذيلي وسألني أن يدخلَ الحبس. فلم أنعم له بذلك. فقبّل يدي وبكا، فقلت له: اطلب النجاة لنفسك. فقال: النجاة لنفسي السجن. قلت: ولم؟ قال: الذي أخرجني ما هو إمام، وقد فرغ حكمه وأكون في حبس المملكة. فأرجع في حبس الشلوح. فإذا حُبِستُ/ [١٠٨و] في حبس القلعة إلى أن يقوم للناس إمام، فإن أخرجني فكان من الله، وإنْ حبسني فمن الله». فأمر الملك المنصور بطلب فخر الدين ابن المغيث.

قال الأمير فخر الدين عن نفسه: لما حضرت بين يدي الملك المنصور، قال لي: «مرحبًا يا فخر الدين – رحم الله أباك – كان له علينا صدقات وبِرّ ومعروف». وكان البيسري إلى جانب قلاوون، فقال للملك المنصور: «اقتل هذا الملعون ابن الملعون فإنه ثعبان ابن ثعبان». قال الملك المنصور: «يا هذا اتقِ اللهَ في نفسك. هذا الرجل كان في الحبس وأخرجوه فرجع بنفسه إلى السجن. كيف يَحِلّ لنا من الله نقتله». كل هذا بلسان التركية.

قال الأمير فخر الدين: وأنا لم أعلم شيئًا مما يقولون. ثم التفت الملك المنصور نحوي وقال: «يا فخر الدين، أعطيك مائة فارس وتكون معي وعندي ومن جملة أولادي. [١٠٧ظ] «قال ابن المغيث: فقبّلتُ الأرض وقلت: «يا خوند – أيّدك الله – قد كَبُرَ سِنّي، ووهَن عظمي، وعجزت عن الحركة، وأنا أسل الجلوس في بيتي أو الرجوع إلى السجن». قال الملك المنصور: «يا فخر الدين لا تقلْ هذا، فإني اليومَ قليل الرجال وفرحت لما رأيتكَ سالمًا». قال فخر الدين ابن المغيث: فقلت: «يا خوند – أيّدك الله – مرهم أن يحبسوني أو تتصدق عليَّ بالنزول إلى منزلي».

قال فخر الدين: فلما سمع الملك المنصور قولي بكا، ورسم لي بالنزول إلى بيتي ورسم لي بخلعةٍ/ [١٠٨ظ] سَنّيةٍ، وبالأموال، وبما يكفيني وها أنا في بيتي إلى الآن.

---

(١) السلوك ١/٣٣٩، ٣٦٠.

وفي العشرين من ذي الحِجّة، رسم السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي أن يكون الأمير حسام الدين لاجين[١] نائبًا بدمشق، وقيل بقلعة دمشق، وأن يكون بيبرس الجالق مساعدًا للأمير حسام الدين لاجين فيما يفعله بقلعة دمشق. وكان الجالق في ذلك الوقت أكبر أمراء دمشق ومقدميها[٢]. ورسم للأمير حسام الدين لاجين النائب بقلعة دمشق ألّا يخرج عن كلام بيبرس الجالق ولا عن أمره.

ذِكْرُ ما جَرى في هذه السنة من الفِتَن والحروب والأقاويل المختلفة والأيان الحانثة

قال: ولما وصل الأمير حسام الدين لاجين نائبًا بقلعة دمشق، تخيّل منه سُنقُر الأشقر واحترز على نفسه منه. ثم إن سنقُر الأشقر طلب الأمراء واستمالهم وأعطاهم الأموال ووعدَهم بمواعيد كثيرة، ووافقوه أن يكون مَلِكًا بالبلاد الشامية. واتفقوا على ذلك وحلفوا له.

ولما كان العشرين من المحرّم من السنة، ركب سنقر الاشقر من دار السعادة بدَسْت المملكة بالبلاد الشامية بالغاشية والشبابة، ومشَى الأمراء في خدمته يمينًا وشِمالًا على جاري عادة الملوك، ولقّب نفسَه الملك الكامل وطلع قلعة دمشق.

في تلك الساعة، مسَك حسامَ الدين لاجين مملوك الملك المنصور/ النائب بقلعة [١٠٩و]
دمشق، ومسك أيضًا بيبرس الجالق وحبَسهما بقلعة دمشق[٣].

---

(١) الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري مملوك المنصور قلاوون. ترجمته في الوافي ٣٨٥/٢٤ رقم ٤٤٩؛ وأعيان العصر ١٦٥/٤ رقم ١٤١٢.

(٢) الأمير ركن الدين بيبرس الجالق الصالحي المعروف بالعجمي. ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٤٨/١٠ رقم ٤٨٤٢؛ وأعيان العصر ٧٨/٢ رقم ٤٩٥؛ والمنهل الصافي ٤٧٤/٣ رقم ٧١٩؛ والنجوم ٢٣٢/٨، والجالق صفة للفرس إذا كان قوي النفس كثير اللعب.

(٣) حول هذه الأحداث راجع: زبدة الفكرة ١٧٨؛ ونهاية الأرب ١٤/٣١؛ وعقد الجمان ٢٣٣/٢؛ والسلوك ٦٧٠/١.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة من الهجرة النبوية

فيها عملوا عزاء الملك السعيد بدمشق ومصر.

وفيها جلس سُنقُر الأشقر بدَسْت المملكة بدمشق وأعمالها، وكان من جملة الأمراء المُخامرين مع سنقُر الأشقر: قَراسُنقر المُعِزّي[١]، لاجين الزيني[٢]، آقوش السّعدي، بكجا العلائي، الحاج أزدمر الكَبكي، المطروحي، وكانوا نَيِّفًا عن ستين أميرًا.

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: إن هولاء الأمراء المذكورين لم يكن فيهم أحد مخامرًا على السلطان الملك المنصور صاحب مصر، ولكن الملك المنصورَ لما بلغه أن سنقُر الاشقر تسلطن بدمشق، كتب إلى الأمراء المقيمين بدمشق: «ألَّا تخالفوا الأمير شمس الدين، وفي هذا الوقت لا يمكنكم إلّا طاعته، وأنا أُسَيِّرَ لكم من جهتي من أثق به أنا وأنتم، فامشوا تحت ظل سنقر الأشقر، فإذا وقع سيف أو حرب فلا يَسُلُّ أحدٌ منكم سيفًا».

وكتب لكل أميرٍ من هؤلاء الأمراء المذكورين كتابًا بمفرده واسمه. ثم جرد السلطان الملك المنصور أميرين وهما عز الدين الأفرم والأيدمري، وكانا هؤلاء[٣] الأميران أكبر خوشداشية الملك المنصور. وجرّد معهم عشرة آلاف فارس من خِيار عسكر مصر. وكان هذان الأميران من مماليك/ السلطان الملك الصالح نجم الدين [١٠٩ظ] أيوب. وكان كل منهما يدعي الكثرة على الآخر، فلم ينتظم لهما أمر. ثم إن سنقر الأشقر فتح الخزاين، وأنفق الأموال، وأرضا الأمراء، وخرج طالبًا الديار المصرية. فعند ذلك كتب الأمير عز الدين أيبك الأفرم كتابًا إلى الملك المنصور تضمينه أنه:

«أنا والأيدمري كلمتان مختلفان (كذا!)[٤] وكل منا يتعاظم على صاحبه، فابعث لنا من هو أكبر مِنّا سِنًّا وقَدْرًا، نكون تحت طاعته ونمتثل أمره وما يأمر به». فلما وقف الملك المنصور على كتاب الأمير عز الدين الأفرم، طلب الأمير علم الدين سنجر الحلبي وقال له: «أنت أنا وأنا أنت».

---

(١) قراسنقر الأمير الكبير شمس الدين المعزي، ترجمته في الوافي ٢١٢/٢٤ رقم ٢٢٧؛ وتاريخ ابن الفرات ١٧٠/٧.

(٢) المملوك الخاص للملك السعيد، راجع: السلوك ٦٤٥/١.

(٣) كذا في الأصل، والصواب: وكان هذان.

(٤) وصوابها: مختلفتان.

وأقامه مقامَ نفسه وسلطنه في تلك الساعة بقلعة الجبل وأمر أن يضربَ له الدهليز بظاهر القاهرة، وأمر له بالحرَسية في الليل وأن يركب بالسناجق ويركب في الليل بالجفتاه[١] على جاري عادة الملوك. وأمر الحجّاب والنقباء أن يمشوا بين يديه، وأن يكتبَ المناشير ويعطي الأخباز باسمه. وأمر الموقّعين أن: «تكونوا بين يديه كما أنتم بين يديّ، وتمتثلوا أمره كما تمتثلون أمري، ولا يخرج أحد عمّا يأمر به الأمير علم الدين».

وسار الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائبًا للملك المنصور بدمشق، وهو في زيّ ملك. وأما سنقر الأشقر فإنه سار طالبًا/ [١١٠و] الديار المصرية، ووصل إلى قاقون[٢] وقال في نفسه: إن الأمير عز الدين الأفرم والأيدمري لا شيء.

فلما بلغه أن علم الدين الحلبي قد خرج من الديار المصرية وقد سلطنه الملك المنصور وأقامه مُقامَ نفسه، نزل سنقر الأشقر بالمنزلة التي كان بها، ولم يتقدّم منها، وذلك خوف[٣] من علم الدين سنجر الحلبي. فلما وصل علم الدين سنجر الحلبي إلى غزّة، وتلقاه هذان الأميران عز الدين الأفرم والأيدمري، قال صاحب التاريخ:

والله لم يلتفت إليهما ولا أنصفهما في السلام. وكان يهون عليهما القدوم على الملك المنصور ولا يقدما على الحلبي. فكان علم الدين الحلبي والعساكر المصرية كلّما تقدم الأمير علم الدين سنجر الحلبي منزلة تأخر سنقُر الأشقر منزلة.

ذِكْرُ ما جَرى في هذه الوقعة بين المسلمين في بعضهم البعض

قال من حضر هذه الوقعة: إن الملك المنصور قلاوون الصالحي لما بلغه أن الأمراء الشاميين أطاعوا سنقُر الأشقر وأجابوه ومشوا تحت طاعته، وأنه لقّب نفسَه الملك الكامل، وطلع قلعة دمشق ومسَك حسام الدين لاجين وبيبرس الجالَق، وكتب الملك المنصور كتبًا للأمراء الشاميين وأجاب الأمراء بالطاعة والامتثال لأمر السلطان الملك المنصور.

قال من كان حاضرًا هذه الوقعة: لما تقدّم علم الدين الحلبي من غزّة طالبًا الشام، تأخر/ [١١٠ظ] سنقُر الأشقر، فلم يزالا[٤] هذان العسكران المذكوران، الحلبي يتقدم وسنقُر

---

(١) من مراسم احتفالات ومواكب السلاطين المماليك، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي (جفتاه).

(٢) حصن بفلسطين قرب الرملة. وقيل: هو من عمل قيسارية من ساحل الشام. راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٣) كذا في الأصل، وصوابها: خوفًا.

(٤) كذا في الأصل، وصوابه: فلم يزل هذان...

الأشقر يتأخّر، إلى أن وصَلا إلى الجسورة بظاهر دمشق، والتقا العسكران على الجسورة.

ذِكْرُ ما جَرى بين المسلمين في هذه الوقعة

قال من حضر هذا المُصافّ: إن السلطان الملك المنصور لما جرّد الأمير علم الدين سنجر الحلبي كتب كتابًا ثانيًا لأمراء دمشق وصاحب حماة:

«إنكم تعلمون أن عسكرَ الشام ليس له قدرة بعسكر مصر، وأنا أعلم أنكم ما وافقتم الأمير شمس الدين طاعةً له، ولكنْ خِفْتم الفتنة، فامشوا تحت طاعته، وامتثلوا ما يأمركم به، فقد سَيّرتُ إليكم أميرًا أكبر خوشداشيتي وأكبر مني. فإذا التقا العسكران لا يجذب أحد منكم سيفًا، والله الموفّق إن شاء الله تعالى».

وكتب كل كتاب باسم أمير. فلما وصلت كتب الملك المنصور إلى هؤلاء الأمراء، امتثلوا ما رسم لهم الملك المنصور به، ومشَوا تحت طاعة سنقُر الأشقر إلى يوم الوقعة.

قال من كان حاضر[(١)] الوقعة:

لما التقا العسكران، حمل سنقُر الأشقر ولطمَ سنجر الحلبي فكَسره وبدد جيشَه يمينًا وشمالاً، ولم يبقَ إلا هزيمة عسكر مصر. ثم التفتَ يمينًا وشمالاً فلم يجد أحدًا من أمرائه سَلّ سيفًا/ ولا مسَكَ رمحًا ولا جذب قوسًا. [١١١و]

وتقدم علم الدين الحلبي فانهزم سنقر الأشقر وبكمش السعدي والأمراء الذين ذكرناهم، وتبدد عسكر الشام يمينًا وشمالاً، وأخذ العساكر المصرية أموالهم وقماشهم، ووقع فيهم النهب والقتل والسبي[(٢)].

ثم إن سنقر الأشقر طلب الرحبة هو ومن معه من الأمراء قاصدين أُبغا. فمنعهم عيسى ابن مهنا عن ذلك واسترضاهم وذكّرهم بالآخرة وقال لهم: «بالله لا تفعلوا ولا ترجعوا في آخر أعماركم إلى الكُفْر، ومتى رحلتم إلى التتر تقوَى كلمتهم على الاسلام».

---

(١) كذا في الأصل، وهي: حاضرًا.

(٢) حول هذه الواقعة، راجع: زبدة الفكرة ١٨١؛ ونهاية الأرب ٣١/١٤-١٩؛ وعقد الجمان ٢/٢٤٤؛ والسلوك ١/٦٧٥؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/١٦٩؛ وتشريف الأيام والعصور ٦٣؛ وتاريخ الإسلام (٦٧١-٦٨٠) ٤٥.

فاتفق الحال بين الأمراء وسنقر الأشقر وعيسى ابن مهنا أن يرجعوا إلى الشام، وينزلوا بالقلاع الشامية إلى أن يفرج الله تعالى ويفعل ما هو أهله. ثم إن سنقر الأشقر وآقوش السعدي والأتابكي كتبوا كتابًا إلى أُبغا: «أن نحن مماليكك، وعلى طاعتك، ونقاتل معك، وإنْ أمرتنا بالحضور حضَرنا بين يديك». فجاءهم جواب أُبغا أن: «تحضروا إلينا قولًا واحدًا، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، والبلاد لكم، وأنا واحد منكم».

فركب الأمراء ولم يبقَ إلّا التوجُّه إلى التتر. فمنعهم عيسى ابن مهنا، واجتمع الأمراء وضربوا مشورةً فيما بينهم. وقال بعضهم لبعض: «نحن مسلمون ولا نرجع في آخر أعمارنا إلى بلاد الكفر». فاتفق الحال أن يرجعوا إلى بلاد الشام، فرجعوا إلى الشام واستولوا/ على القلاع الشامية، وقالوا: «نقيم هاهنا إلى أن يفعل الله ما يريد». [١١١ظ]

ثم نزل الجميع إلى صهيون وملكها سنقر الأشقر، وأخذ الحاج أزدمر قلعة شيزَر والكَبكي بلاطنس وأولاد الملك الظاهر بالكَرك، وآقوش السعدي قلعة الشَّوبك، والأمراء الباقون متفرقون في الحصون والأغوار، وشرعوا يطلبون الصلْح من السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ويسألونه في تجديد الأيمان لهم.

قال صاحب التاريخ: لما انكسر سنقُر الأشقر من علم الدين الحلبي وولّى سنقُر الأشقر ومن معه منهزمين إلى بلاد الشرق، ودخل علم الدين الحلبي دمشق وهو ملك والأمراء في خدمته يمينًا وشمالًا والشاويش والحُجّاب والنقباء والغاشية بين يديه، والموقِّعون جالسون بين يديه على عادة الملوك، وجلس بالقصر الأبلق، ووقف الأمراء في خدمته يمينًا وشمالًا على قَدْر منازلهم، ووقف الأمير عز الدين الأفرم بين يديه في صفة أمير جاندار حامل عصاة المملكة، فلم يأذن له الأمير علم الدين الحلبي بالجلوس.

وفي يوم الخميس سلخ جمادى الأولى من هذه السنة، وصل[1] الخِلْعة والتقليد للأمير حسام الدين لاجين/ أن يكون نائبًا بالشام بكماله. [١١٢و]

فركب الأمير حسامُ الدين لاجين، وخرج إلى سوق الخيل بالجمدارية والسلحدارية على جاري عادة النواب بدمشق.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: وصلت.

ثم دخلت سنة ثمانين وستماية من الهجرة النبوية

والسلطان بمصر السلطان الملك المنصور، وقد تقرر له مملكة الشام بكمالها إلى حدود الفراة، لكنّ القلاع الإسماعيلية تحت حكم سنقُر الأشقر، والأمراء متفرّقون في أقطار الشام.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار المزعجة والأحوال المنكرة وكَثْرة الأراجيف والجفول أن التتر واصلون إلى الشام المحروس.

وفيها توجّه السلطان الملك المنصور إلى الشام إلى مدينة غزة، ونزل بها بتلّ العُجول، ورجع إلى مصرَ فأقام أيامًا قلائل، فقويت الأخبار بوصول التتر. [١١١ظ]

وفي سلخ جمادى الآخر من هذه السنة، وصل السلطان الملك المنصور إلى حمرة بيسان، ومسك كَوُنْدَك[١] وساطلمش[٢]، وقيل أنه غرّقهم في بحيرة طبرية[٣] وأصحاب الأخبار متباينون في قتله هؤلاء الثلاث أمراء[٤]، فمنهم من قال: قتلهم طُرُنْطاي وغرّقهم في بحيرة طبرية، ومنهم من قال: أنهم طلعوا بهم قلعة صفد ولم يدرِ أحد كيفية قتلتهم[٥].

ولما مسك السلطان الملك المنصور هؤلاء الأمراء، هرب [سيف الدين] أيتمش / [١١٢ظ] السعدي و[سيف الدين بلبان] الهاروني على حميّة إلى تل الثعالب[٦]، طالبين سنقر الأشقر.

---

(١) كنز الدرر ٨/٢٤٠ «حمراء بيسان»، وحول حادثة سيف الدين كوندك، راجع: زبدة الفكرة ١٩١؛ والسلوك ١/٦٨٥؛ وعقد الجمان ٢/٢٦٣؛ وتاريخ الإسلام (٦٧١-٦٨٠) ٥٤؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/٢٠٦؛ وتشريف الأيام والعصور ٨٤.

(٢) سيف الدين كوندك من مماليك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي النجمي، ونائب السلطنة في مصر في سلطنة الملك السعيد، وساطلمش هو سلاح دار السلطان الظاهر بيبرس.

(٣) راجع: كنز الدرر ٨/٢٤٠؛ وزبدة الفكرة ١٩٢؛ وتاريخ الإسلام (٦٧١-٦٨٠) ٥٤؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/٢٠٧؛ وعقد الجمان ٢/٢٦٤-٢٦٦.

(٤) كذا في الأصل، وهي: الأمراء الثلاثة. وهذه الإشارة تؤكد على النقل والتصرف بالنص إلى درجة الإبهام، والإشارة هنا إلى الأمراء الثلاثة الذين ذكرهم ابن الفرات وابن عبد الظاهر وهم: أيدغمش الحكيمي، وبيبرس الرشيدي، وساطلمش السلاح دار الظاهري، ولكن ماذا عن كوندك!!!؟

(٥) تاريخ ابن الفرات: أمر السلطان بإعدامهم... فكان آخر الأمر بهم. وفي زبدة الفكرة: أعدموا... وكذلك في عقد الجمان.

(٦) تشريف الأيام: توجهوا إلى صهيون ولحقوا بسنقر الأشقر.

وجرّد السلطان الملك المنصور خلفهم جماعة من الأمراء مقدّمهم طقصوا الناصري، فلم يبلغوا منهم مقصودًا.

وفيها دخل السلطان الملك المنصور مدينة دمشق، وهو أول دخوله ملكًا، رضي الله عنه ورحمه وعفا عنه.

وفي هذه السنة كانت وقعة حمص.

ذِكْرُ وَقْعَة حمص وما جرى للمسلمين

ولما كان يوم الخميس رابع عشر رجب الفَرْد من هذ السنة، يعني سنة ثمانين وستماية من الهجرة النبوية، فيها كان ملتقا الجمعَين على حمص عند تربة خالد ابن سعيد ابن الوليد.

قال صاحب التاريخ: إن المُحْصي والمقَلّل من الناس يقولون أن هذه التربة التي بظاهر حمص أنه خالد ابن الوليد المخزومي – رضي الله عنه – وهذا كلام سقيم ليس له صِحَّة، وإنما خالد ابن سعيد ابن الوليد، وهو صحابي وهو من شهداء اليرموك[1]. [١٣]

هذه التربة التي بظاهر حمص هي تربته، وإنما خالد ابن الوليد المخزومي – رضي الله عنه – مات بالمدينة في سلطان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – وكان وَصِيُّه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه. – ولما سمع عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – الواعيه يعني الصراخ،/ وكان عمر نهى عن الصراخ على الموتَى، قال: «ما هذا [١١٣و] الصراخ؟» قالوا: «يأمير المؤمنين، مات خالد بن الوليد». فقال: «دَعْ نساء بني المغيرة يولولن على خالد ابن الوليد».

---

(١) هذه الرواية تتناقض ورواية البلاذري في أنساب الأشراف ٥/٢٧٢، التي يقول فيها: وتوفي خالد بحمص، ودفن في قرية على ميل منها، قال الواقدي: فسألت عن تلك القرية فقيل: دثرت، وأوصى إلى عمر بن الخطاب... وفي روايات المؤرخين المتأخرين تأييد لصحة هذه الرواية، كرواية ابن الفرات في تاريخه ٧/٢١٦ «كان الملتقى بوطأة حمص بالقرب من مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه»؛ وفي تاريخ الإسلام للشيخ الذهبي (٦٧١–٦٨٠) ٥٧: «ووقع المصافّ ما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن»، وفي عقد الجمان للعيني ٢/٢٧٥؛ «وكان الملتقى بوطأة حمص، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه.». وتكررت الرواية نفسها في زبدة الفكرة ونهاية الأرب وسواها من كتب المؤرخين قدماء ومحدثين. والمدهش أن المؤلف انفرد بروايته نقلًا عن الواقدي الذي ذكر روايته البلاذري، وإلى ابن قتيبة الذي لم أعثر على هذه الرواية في كتابه «عيون الأخبار».

وفي رواية أخرى: إن خالد ابن الوليد لما مات بالمدينة – شرّفها الله تعالى – وسمع الصراخ قال [عمر][١]: «دعهن يولولن على خالد من غير صغصغةٍ ولا لغلغة»[٢]، رضي الله عنهم أجمعين. وهذا نقله الواقدي وابن قتيبة في كتبهم.

قال: لما التقا الجمعان عند تربة خالد ابن سعيد ابن الوليد بظاهر حمص، حملت ميسَرةُ التتر على ميمنةِ المسلمين، فانكسر المسلمون ولم يلوِ أحد منهم على الآخر، ولا الأب على ابنه، ولا الأخ على أخيه، وربما وصل بعض عساكر المسلمين إلى الديار المصرية، وعدّا البحر الحلو وصار إلى البرّ الغربي من نيل مصر، ولم يعلم أحد ما وراءه، وربما وصل بعض الأمراء إلى غزّة وبعض الأغوار. ثم رجع من الطريق، من جملتهم بشكا العلائي، وصل إلى الغَور ورجع، وبكجك ابن الأيدمري وصل إلى الرملَة ورجع، وقيل إلى قلَنْسُوة[٣] من أرض الشام ورجع، ووصل أيضًا الجالَق إلى بعض هذه الأماكن ورجع.

ثم إنّ ميسَرَة المسلمين حملت على ميمنة التتر فانكسرت التتر وقُتِلَ منهم خلق كثير. والذي سَلِمَ من التتر لم يدرِ ما جَرى بعده. ثم إن التتر الذين كسروا الميمنة [١١٣ظ] نزلوا/ بحمص وطبخوا وشَووا وأكلوا وتيقّنوا في أنفسهم أنهم قد كَسروا الجيوشَ المنصورة.

قال: فعند ذلك رسم الملك المنصور قلاوون الصالحي بدقّ الكوسات. فلما سمع التتر النازلون بأرض حمص الكوسات، علموا أنّ صاحبَ مصر ثابت وأن المسلمين مستظهرون، فركبوا وطلبوا الشرقَ هاربين.

قال من كان حاضرًا هذه الوقعة: لما رجعت التترُ هاربين طالبين بلاد الشرق، كان السلطان الملك المنصور واقفًا في طريقهم ولم يكن حوله من عساكر المسلمين خمسون فارسًا إلّا أقل من ذلك. وكانت التتر في ثلاثين ألف[٤].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) العقد الفريد ٢٣٥/٣: «قال عمر: «وما على نساء بني المغيرة أن يُرِقنَ من دمعهن على أبي سليمان، ما لم يكن لغْوًا ولا لَقْلقة».

(٣) حصن قرب الرملة من أرض فلسطين، راجع: معجم البلدان لياقوت.

(٤) كذا في الأصل، وهي: ثلاثين ألفًا.

ثم إنّ التتر طلبوا الشرق، وانحاز السلطانُ الملك المنصور إلى الميسرة إلى نهرٍ يُعرف العاصي، وكفَى اللهُ شرّهم ونصر الله – تبارك وتعالى – هذه العصابة المحمدية بهذه (كذا!) المماليك الترك البحرية(١).

ثم إنّ الحاج أزدمر – رحمه الله – باع الدنيا بالآخرة، والتفتَ إلى مماليكه يمينًا وشِمالًا وقال: «لا يصحبني من يريد الحياة». ثم حمل بنفسه وهو ومن معه، وطعن منكوتمر ابن هلاوون، ولم يرجع الحاج أزدمر ولا أحد من مماليكه حتى قُتِلَ الجميعُ مكانهم، رحمهم الله(٢). ولما وصلت الأخبار إلى أُبغا بموت أخيه وكسر عساكره حمل على قلبه.

وفيها مات أُبغا.

وفي هذه السنة تواترت الأخبار بموت أُبغا/(٣) ابن هلاوون. [١١٤و]

قال صاحب التاريخ: لما مات أُبغا، وقع الاختلاف بين التتر، ومال كل منهم إلى جانب وإلى جهة، وثارت الفتنة بينهم، وكاد ملوكهم أن يقتلَ بعضُهم بعضًا. فاتفق الحال بينهم على أن يقيموا بينهم أحمد سلطان بن هلاوون، ولم يكن معظم التتر راضين بمملكته عليهم، فإنه كان يتظاهر بدين الاسلام(٤).

وفيها رجع السلطان الملك المنصور إلى الديار المصرية وتثبّت المُلْك له بمصر والشام.

---

(١) يمكن العودة إلى أحداث هذه الموقعة وتفاصيلها في زبدة الفكرة ١٩٦؛ ونهاية الأرب ٣١/٣٤؛ وعقد الجمان ٢/٢٧٢، والسلوك ١/٦٩٣؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/٢١٦؛ وكنز الدرر ٨/٢٤٣؛ وتاريخ الإسلام (٦٧١–٦٨٠) ٥٧.

(٢) ترجمته في المنهل الصافي ١/٣٤٨ رقم ٣٩٦؛ والوافي بالوفيات ٨/٣٧٠ رقم ٣٨٠٣.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ٦/١٨٧ رقم ٢٦٣٩، والنجوم الزاهرة ٧/٣٤٨؛ والمنهل الصافي ١/١٨٥، في هامش الصفحة الأيمن والأعلى، وبخط مغاير: هذا السعيد الشهيد الحاج أزدمر ومماليكه السعداء الشهداء، حيّاهم الله تعالى وبيّاهم، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.
كان لسان هذا السيد ينشد:

اقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي

إخلادًا للغيرة الإلهية والحميّة الدينية.

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ٨/٢٢٧ رقم ٣٦٦٤؛ والبداية والنهاية ١٣/٣٣؛ والعبر للذهبي ٥/٣٤٢؛ وشذرات الذهب ٥/٣٨١؛ والمنهل الصافي ١/٣٥٤ رقم ٣٣٣؛ وتشريف الأيام والعصور ٢٧١؛ وتاريخ ابن الفرات ٨/٤؛ والسلوك للمقريزي ١/٧٢٦.

ذِكْرُ مناقب السلطان الملك المنصور – رحمه الله – وما أثّره في أيام مملكته من الخَيْرات مع الناس ومع نفسه

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد[١]:

لما كسَر السلطانُ الملك المنصور التتر، ورجع إلى الديار المصرية، وجلس في دَسْت مملكته بالديار المصرية والشام، طلب مملوكَه الأمير حسام الدين. فلما حضر أمره بالجلوس، وَقرَّبه منه، وقال له: «يا طُرنطاي، أنت تَعلم ما كنا فيه وما صرنا إليه، وأنا لما كنتُ أميرًا ما خرجت عن رأيك ولا عقلك، وما رأيت على رأيك وعقلك إلّا خير، وقد وَلَّيتُكَ أمور الجيش، وفوّضتكَ في الحديث مع الأمراء والمقدّمين والجند والاقطاعات وكتب المناشير. فاعمل فيهم بنور الله تعالى، واتقِ اللهَ في نفسك، وهؤلاء خوشداشيتي البحريّة تُخفِض جَناحك لهم، والتطفْ بهم وبأولادهم. وإنْ شكَى لك أحد من إقطاعه أو طلبَ زيادةً فارضِه من عندك أو من بيت المال. ولا تشاورني، وقد قلّدتك/ أحوال [١١٤ظ]
جيش الاسلام، فلا تحوجْ أحد[٢] أن يشكوَ إلي منك».

كل هذا وطُرنطاي مطرق برأسه إلى الأرض[٣]. ثم أمر الملك المنصور بخِلْعَةٍ سنيّةٍ وتقليد بنيابة السلطنة بالديار المصرية. ثم بعد أربعة أيام، طلب السلطان الملك المنصور الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[٤]. فلما حضر، أجلسه بين يديه وقال له:

«يا سنجر، اعرف نِعَمَ الله عليك، واشكر الله على ما أولانا وأولاكم من النعم. وقد وَلَّيتُكَ الديار المصرية أن تكون وزيرًا بها. فاعرفْ كيف تكون. وهذه خزاين الإسلام فارغة فاملأها لي ذهبًا واتقِ اللهَ في نفسك، ولا ترغبْ في أموال الناس، ولا تَدْع أحدًا يشكو منك، ولا تملأ خزاين الإسلام إلّا من المال الحَلال، ولا تميل إلى الظلم. واعلم ما أنت فيه، واتقِ الله في نفسك. وقد أذنت لك أن تتحدّث مع النظار والمستوفين والمشدّين والولاة بالاقاليم فيما يختصّ بالأموال السلطانية، ويكون نظرك على خوشداشك طُرنطاي، وقد وَصَّيتُه أيضًا عليك».

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٣/١٥٠ رقم ١١٠٤، وفوات الوفيات ٣/٣٩٠ رقم ٤٦٢.

(٢) كذا في الأصل، وهي: أحدًا.

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٦/٤٢٩ رقم ٤٦٦.

(٤) ترجمته في الوافي ١٥/٤٧٥ رقم ٦٤٣.

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: فحينئذٍ صارا[١] هذان الأميران عند الأمراء والجند والمُشدّين والولاة والنظّار والمستوفين محلهما عندهم محلّ السلطان، ومحلّ السلطان محلّ الخليفة. فما يمكن أحد من هؤلاء الطوايف الذين ذكرناهم من الأمراء والجنْد وغيرهم أن يتحدثوا/ إلّا معهما. [١١٥و]

ثم بعد عشرة أيام، طلب السلطان الملك المنصور الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي، وكان أكبر خوشداشية الملك المنصور، وكان من مماليك الملك الكامل أبي الملك الصالح[٢]. فلما حضر بين يديه قام له وأجلسه بين يديه وقال له: «يأمير شجاع الدين أنت خوشداشي، وأكبر مني سنًا وقَدْرًا، وأنت كاملي صالحي، وأنا صالحي بلا كاملي».

كل هذا وطغريل الشبلي يقبّل الأرض، وقال له: «أنا أعلم دينك وعَقْلَك وثباتك ومروءتك ومعرفتك بالناس، وقد ولَّيتك دارَ العَدْل الشريف، وحَكَّمتك فيما ترى به من نور الله – عز وجل – من أمور القضاة والحُكّام والأشراف والجَوامع والخوانق والمدارس والمساجد، والمتحدثين من المتعممين في الأمور الشرعية، وقد قلعت من عُنقي وقلدته في عنقك، فانظر ماذا تصنع».

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: لقد نظرت وسمعت أنه كان الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي إذا ركب من دار العدل الشريف، تركب ولاة مصر وولاة القاهرة ونوّابهم بين يديه، وتركب الحُكّام الأربعة معه إلى داره، ويقفون[٣] ركاب بغالهم حتى ينزلَ الأمير شجاع الدين من على فرسه، فيسلّمون عليه في وقتٍ يردّ عليهم السلام، وفي وقتٍ يشير برأسه. فكان/ الناس يومئذٍ ثلاث فرق: [١١٥ظ]

الفرقة العُليا، القضاة والأشراف والعلماء والفقهاء وأرباب الطيالس والبقاير والأمور الدينية، والأحكام في الشرايع النبوية.

والفرقة الثانية: الأمراء والمقدمين[٤] والأجناد، وما يتعلّق بالجيوش.

---

(١) كذا في الأصل، وهي: صار هذان.
(٢) كنز الدرر ٨/٣١٢–٣١٣.
(٣) كذا في الأصل، وهي: يوقفون.
(٤) كذا في الأصل، وهي: والمقدّمون.

والفرقة الثالثة : المشِدّون والولاة والنظّار والمستوفون، وما يتعلق بالأموال وبيت المال.

فكانت طبقة القضاة والفقهاء والعلماء والاشراف إذا جرَى بينهم أمر لا يعرفون غير طغريل الشبلي. وكان الطبقة الثانية، الأمراء والمقدّمون والجند إذا جرَى لهم أمر فلا يعرفون إلا طُرنطاي. وكانت أصحاب الوظايف والمشِدّون لاستخراج الأموال إذا جرَى لهم أمر فلا يعرفون إلا الشجاعي. وكان السلطان الملك المنصور – رحمه الله – رجلاً قد تقدّم سِنّهُ، وأراد بذلك الراحة من أمور الناس، وخلاصَ ذِمّته منهم من الذنوب.

فكان – رحمه الله – لا يكتب خطه إلّا لنوّاب الشام خاصة، أو في أمرٍ يجب عليه كتابته، أو المناشير، أو الأموال الديوانية. ولا كان يكتب كتابًا من جهته إلى والٍ ولا قاضٍ ولا مُشِدّ إلا إذا اضطرّ نوابه إليه. وكان لا يدخل عليه أمير ولا مقدّم ولا أحد إلّا من يطلبه هو بنفسه، رحمه الله ورضي عنه./ وذلك أنه كانت قد ضَعُفَت [١١٦و] حركتهُ وعَظُمَ شأنه وكثرت عساكره وتضاعف عِدّة مماليكه. وكان الملك المنصور في أيام مملكته، لا يدخل عليه أحد من خَلْق الله إلّا يومَ الخدمة، وكان يقصد بذلك تعظيمَ المملكة.

وكانا[١] هذان الرجلان طُرنطاي والشُجاعي متباغضين متفاوضين متشاققين متعادين متطلعين كل منهما إلى مساوئ الآخر. فكان أحد[٢] منهما لا يقدر يظلم أحد، وذلك خوف من خوشداشه. فكان الملك المنصور – رحمه الله – مستريحًا في قلعته، لا يعرفُ غيرَ ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يركب.

ذِكْرُ محاسن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، رحمه الله

قال الشيخ شرف الدين ابن الوحيد – رحمه الله – : كان للسلطان الملك المنصور – رحمه الله – خوشداشًا يسمّى عز الدين الأفرم، وكان أكبر خوشداشيته وكان أمير جاندار، وكان عند الملك المنصور عزيزًا إلى الغاية، وكان للأمير عز الدين الأفرم أموال جزيلة ومتاجر كثيرة في سائر أقاليم الديار المصرية والشام، ما بين فنادق وحوانيت ومتاجر ومراكب وأملاك وبساتين ومن سائر الأصناف.

(١) كذا في الأصل، والصواب : وكان هذان...
(٢) كذا في الأصل، وهي : الواحد... أحدًا، وذلك خوفًا...

فكان معظم الأوقات إذا طلب الشجاعي مالًا أو حقًّا من الحقوق الديوانية، فيقال له: هو في جهة الأمير/ [١١٦ظ] عز الدين الأفرم. فرسم الشجاعي بطلب أستدارية الأفرم. فلما حضروا بين يديه رسم لهم أن: «تحملوا أربع ماية ألف درهم». ورسم على دواوينهم فنزلوا إلى مصر، وبلغ الأمير عز الدين الأفرم ذلك، فركب وطلع إلى الملك المنصور. فلما دخل عليه الأفرم، تحرّك له وأجلسه وتحادثا ما كان في أيام الصِّبا، وما كان في أيام الملك الصالح، وتذاكرا أسماء خوشداشيتهم البحرية، فوجدا الجميعَ قد ماتوا.

قال الملك المنصور لعز الدين الأفرم: «يأمير عز الدين، ما جاء بك في هذا الوقت؟» قال عز الدين الأفرم: «إن خوشداشي الأمير علم الدين الشجاعي ظلمني، أو قال: يريد يظلمني، وقد طلبني بما قدره أربع ماية ألف درهم، وقدرتي تعجز عن هذا».

قال الملك المنصور: «لا كَيد ولا كرامة لسنجر الشجاعي. اطلبوه». فلما حضر بين يديه قال له: «ما لك وللأمير عز الدين؟» قال الشجاعي: «يا خوند، إنما أنت أستاذي وهو أستاذي». قال الملك المنصور: «فلِمَ يشكوا منك؟» قالف الشجاعي: «إنما أنا مملوكه، وقد نصحته وقلت له: أخرج زكاة مالك. فإن اختار أن يعطيها، هو يعرف لمن يعطيها، وإذا لم يعطيها[1] وإلا هو يعرف عن من منعها».

قال: فنظر السلطان الملك المنصور إلى عز الدين الأفرم وقال له: «يا أمير عز الدين، اتّقِ اللهَ تعالى في نفسِك، وما مقدار/ [١١٧و] ما بقينا نعيش، والدنيا أقلّ من هذا، وكل من عليها فان، أعطِ زكاة مالك». قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: لقد نزل عز الدين الأفرم وحمل أربع ماية درهم[2] ولم يذكرها للملك المنصور بعدها.

ذِكْرُ محاسن السلطان الملك المنصور قلاوون

قال: كان السلطان الملك المنصور – رحمه الله – له مماليك أمراء شباب يطلبهم إذا خلا وحده، فينبسطون بين يديه، ويزيدون وينقصون وهو يضحك. وكان يفعل ذلك في كل وقت. من جملتهم الآقوش مغلطاي ابن أمير مجلس، اللمش أخوه، طُرنطاي البغدادي، مُغلطاي البغدادي، علي ابن كرمون، ساطلمش ابن صلغاي.

(١) كذا في الأصل، وصوابها: وإذا لم يُعطِها.
(٢) كذا في الأصل، وربما كانت: أربع ماية ألف درهم، كي يستقيم السياق.

وكان ذلك في ابتداء دولته، ورسم لهم إذا طلبهم إليه: «يأتوا متخفّفين». فيأتوا إليه كما أشار. وكان فيهم من يلعب بالقب[1] ومن يتعانا حس الوتر. فكان إذا جلسوا بين يديه، ويقال للملك: «النائب حضر لأمر من الأمور». فيقوم الملك المنصور من مرتبته ويجلس في مرتبة أخرى، وهي مرتبة المملكة. ثم يقوم المماليك بأجمعهم فيلبسون قماشهم ويقفون من بعيد. كل هذا يقصد به الملك المنصور تعظيم المملكة والنيابة، رحمه الله.

وهذه المحاسن كلها التي ذكرناها في محاسن الملك المنصور تكون قيراطًا في محاسن السلطان[2]/ الملك الناصر محمد ولده، إذا انتهينا إلى مملكته. [١١٧ظ]

وفي هذه السنة كتب أحمد سلطان ابن هلاوون كتابًا إلى الملك المنصور قلاوون الصالحي.

ذِكْرُ مراسلة أحمد سلطان إلى الملك المنصور صاحب الديار المصرية

أولها: «الحمد لله. بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلّا الله محمد رسول الله. بإقبال قان فرمان أحمد سلطان من عند أحمد سلطان ابن هلاوون إلى عند صاحب مصر الملك المنصور قلاوون. أما بعد.

فإن اللهَ - تبارك وتعالى - لسابق مشيئته وعنايته ونور هدايته، قد أرشدنا في عنفوان الصِّبا وريعان الحداثة بالإقرار بالنبوّة والاعتراف بالوحدانية والشهادة بمحمدٍ - صلى الله عليه وسلم - وتصديق نبوّته، وحُسْن الاعتقاد بأوليائه في بَرِيَّتِهِ ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾[3]. فلم نزلْ نميلُ إلى كلمة الدين وإصلاح الاسلام والمسلمين إلى أن أفاض اللهُ نعمتَه علينا، وأهدَى عقيدة الدين إلينا، وذلك بعد أبينا وأخينا، وخلّد نعمتَه لدينا، فأفضَى اللهُ من جلابيب ألطافهِ

---

(١) كذا في الأصل، وهي ربما تكون «القبق» إحدى الألعاب التي كانت سائدة آنذاك، راجع: السلوك ٥١٨/١، حاشية (٦)؛ وتكملة المعاجم العربية لدوزي ١٧٤/٨.

(٢) في الأصل: السلطان السلطان.

(٣) سورة الأنعام ١٢٥/٦.

ولطائفه ما حقّقنا به جزيل آلائه وعوارفه. وأصبح عندنا في قرلطاي[١] المبارك، وهو المجمع التي تجتمع فيه آراء الإخوان وأصحاب العقول والأذهان، وجميع الأمراء والخِلّان، وأرباب الرتَب والأديان،/ وفيه تتفق كلمة العِباد وزعماء البلاد، ومنه [١١٨و] ينفذ حكمه على من جرى به قلمه، فمن هناك تتفرق عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها وخافت الأُسْدُ من سَطْوتها ورعبها، التي تخضع لها شُمُّ الأطواد، ويلين لهيبتها الصَّمُّ الجماد[٢]. ففكرنا فيما يثبّتُ اللهُ عزايمهم إليه، ويجمع آراءهم عليه، فرأيناه مخالفًا لما كانت عليه آباؤنا وأجدادنا وأمراؤنا وأجنادنا وأحبابنا وأضدادنا، فرأينا أن رضا الله تعالى ورضا المسلمين إقامة هذه الكلمة إلى يوم الدين. فأطفأ اللهُ تلك الفِتَن الثائرة، بزوال تلك الدواير الدايرة. وقد عزمنا على ما رأيناه من أمور الصَّلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا من النجاح.

وقد بعثنا هذه الرسالة صحبه الإمام العَدْل عبد الرحمن، قدوة العالمين، كمال الدين، وهو الآن عنوان لنا ومشير علينا، فارسلناه رحمةً من الله لمن دعاه، ونِقْمَةً على من أعرضَ عنه وعصاه[٣]. وارسلنا صُحْبَته أقضى القضاة قطب الدين، وأتابك بهاء الدين، وهما من ثقاة هذه الدولة الزاهرة، والعصابة القاهرة، ليعرّفوكم ما يجب عليكم من حقوقنا، وما يقع عليكم من عقوقنا.

وقال الله تعالى لرسوله: الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، وأنَّ اللهَ – عز وجل – / قد أوقع [١١٨ظ] في قلوبنا أن نتّبع الحقَّ وأهلَه، ونشكرَ اللهَ على جزيل فضله، والحمدُ لله الذي سبَّب لنا أسباب الإحسان. فسبحان ﴿مَنْ هُوَ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَانٍ﴾[٤] وإن تطلّعت نفوسُكم إلى دليلٍ تستحكم به دواعي الاعتماد، وحجة ترجعون بها إلى بلوغ المراد. فانظروا إلى ما ظهر أثرُه وعَمّ خبرَه، فنحن أرباب الحتوف، وأصحاب السيوف. وقد ابتدأنا بتوفيق

---

(١) السلوك: قوريلتاي، وتشريف الأيام: قوريلتالي: وهي في التركية quriltay هو الإسم المغولي لمجلس السلطنة الذي يختار الحكام ويدرس الأزمات الكبيرة التي يعجز عنها الحاكم بمفرده.

(٢) السلوك ١/٩٧٨: صم الصلار؛ وكنز الدرر ٨/٢٥٠: الصم الجلاد؛ والمفضل [٣٣٨]: الصم الجلاد.

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله، رسول الملك أحمد بن هولاكو، تلميذ الشيخ موفق الدين الكواشي الموصلي، ومملوك الخليفة المستعصم بالله. ترجمته في الوافي بالوفيات ١٨/٣١٢ رقم ٣٦٦؛ وكنز الدرر ٨/٢٦١؛ وذيل مرآة الزمان ٤/٢١٥؛ وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٠٦؛ وتاريخ ابن الفرات ٧/٢٧٨.

(٤) سورة الرحمن ٥٥/٢٩: كُلَّ يومٍ هُوَ في شَأنٍ.

الله تعالى بإظهار كلمة الدين، وإعلاء كلمة الموحدين، وأقمنا ناموسَ الشرع المحمّدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي، إجلالًا وتكريمًا وتوحيدًا وتعظيمًا، وأدخلنا السرورَ على قلوب الجمهور، وعفَونا عن كل من اجترَم جُرْمًا أو أثِمَ إثمًا، وقلنا: عفَى اللهُ عَمّا سلفَ، ومن عاد، وهذا هو السداد.

وتقدمنا بعمارة المساجد والمدارس، وجَدَّدنا من أوقافها ما كان دارس، وسدَدنا سبيلَ البِيَع والكنَايس، وعمرنا الجوامع والخوانك، وأجرينا الجِرايات والجوامك، وأطلقنا سبيلَ التجار يسيرون في أعمالنا ليلًا ونهار، ورسمنا أن يسافرون[١] على قَدْر اختيارهم. ولا يتقفّى[٢] أحد من الشحاني[٣] آثارهم. ورسمنا لنوابنا بالبلاد أن يطهِّروا الأرض من الفساد، وقلنا: لا يتعرض أحد إلى قُصّاد المسلمين، والحمد لله رب العالمين/ [١١٩و] فمن سلك معنا طريق الصواب ﴿فَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[٤]. وقد حرّمنا على عساكرنا ما لم يرضى[٥] اللهَ ورسوله.

فإن كان الملك المنصور صاحب مصر يرى أن يسلِّم لنا ما فتح آباؤنا وأجدادنا وأمراؤنا وأجنادنا، وإلّا فنحن واصلون إليك وواردون عليك. فانظر لنا أرضًا من بلادكم تسع عساكرنا وتضم قاصدنا ووارِدنا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٦].

ثم بعث هذه الرسالة صحبة القاضي قطب الدين محمود قاضي سيواس، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والأمير شمس الدين عرف[٧] بالصاحب، وهو وزير صاحب ماردين عرف[٨] ابن التيتي، وعلى أيديهم هذا الكتاب

---

(١) كذا في الأصل، وفي السلوك: يسافروا.

(٢) المراقبة وتتبع الأثر.

(٣) جمع شحنة، وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد. راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٤) سورة صٓ ٢٥/٣٨.

(٥) كذا في الأصل، وهي: لم يُرضِ...

(٦) سورة الأسراء ١٥/١٧

(٧) كذا في الأصل، وهي: المعروف...

(٨) كذا في الأصل، وهي: المعروف...

مفتوحًا بغير عنوان ولا ختم، وفيه طمغات[١] حمر ثلاث عشرة طمغه[٢].

ولما وقف السلطان الملك المنصور على كتاب أحمد سلطان كتب جوابه.

ذِكْرُ جواب السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي لأحمد سلطان

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصَحْبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين. بقوة الله تعالى، بإقبال دولة الملك المنصور. كلام قلاوون إلى أحمد سلطان بن هلاوون. أما بعد حمد الله تعالى الذي أوضح[٣] لنا وبنا الحقّ منهاجًا، وجاء نصر الله، فدخل/ الناس فيه أفواجًا. والصلاة على سيدنا [١١٩ظ] محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي فضَّله الله على كل نبي[٤] وشرّفه وعَظّم كلمَته وبالحق عرّفه – صلى الله عليه وسلم – صلاة تنير ما دَجا وتُبير من داجا.

وقد وصل كتابه[٥] الكريم الملتقا بالتكريم المشتمل على النبأ العظيم، في دخوله في الدين وخروجه عن مِلَّة العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب، فرح به من كان بمدينة دار السلام إلى أن عَمّ على سائر بلاد الإسلام. وقد قيل أن أصَحّ الحديث ما روي عن مسلم، وقد توجّهت الوجوه لله – تبارك وتعالى – أن يثبتك على هذا القول الثابت، وينبتكَ أحسنَ المنابت، والحمد لله الذي اختصّك بهذا الدين المبارك، وإعانتك[٦] على ذلك، ونحمد الله على انشراح صدره للإسلام وإلهامه لشريف هذا الإلهام. ونحن نحمد الله تعالى إذْ جعلنا من السابقين الأولين غيرَ ضَالّين.

---

(١) تمغ: كلمة مغولية معناها خاتم، ودخلت التركية في صيغة تمغة، ومنها أخذت العربية تمغة أو «دمغت».

(٢) قارن بنص الرسالة كما وردت في كتاب السلوك ١/٩٧٧ «ملحق رقم ٧»؛ وكنز الدرر ٨/٢٤٩؛ وزبدة الفكرة ٢١٩؛ وتشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ٥–١٠، حيث ظهرت واضحة لجهة اختلاف الترجمات عن المغولية.

(٣) في الأصل: وضح. أنظر: صبح الأعشى ٧/٢٣٧: أوضح، وكذلك في تشريف الأيام والسلوك.

(٤) في الأصل: شي. أنظر: صبح الأعشى ٧/٢٣٨: نبي، والتشريف والسلوك... وكنز الدرر؛ وزبدة الفكرة.

(٥) كذا في الاصل، وفي جميع المصادر: الكتاب الكريم، وهو الأدنى إلى الصواب.

(٦) كذا في الأصل، وهي: أعانك.

وأما قولك «إفْضاء المملكة إليك، وإيراثها عليك بعد أبيك وأخيك، وإسْباغ نعمته عليك»، فنحن نشكر الله تعالى على إعانته التي أعانك وإظهار سلطانك.

وأما قَولك: «قد سَيّرت رسالتك مع السادة المشفقون[١] عليك، فقد حلفوا ألا [١٢٠و] يعود[٢] إليك، وذلك لِما رأوا من رحمتنا/ ورأفتنا ورِفْقنا برعيتنا.

وأما قول أحمد سلطان: «نحن قاصدون إليك وواردون عليك» فاسألْ من بقي من فضل سيوفنا من أمراء أبيك وأخيك، فإنهم إلى الحضور إلينا غير موافقيك. وفي قولٍ آخر لأمراء أبوك[٢] وأخوك، فإنهم للحضور إلينا لا يوافقوك. وأما قولك: «تنظر لنا أرضًا تسَعُ واردنا وتضمّ قاصِدَنا»، فالأرض التي ببلادنا من رممكم قد جافت، وطيورُها من أكل لحومكم قد عافَت، وبلادكم أوسع في الفضاء وأسرع للقضاء، فانتظر إنّا منتظرون». ثم أنشأ يتمثل شعر[٣]: [من الطويل]

إذا جِئتمُ سلطانَ أحمدَ فاسئلوا ... عساكرَه يومَ الوَغا ما لَقُوا مِنّا
وقَد جَرّبُونا قبلها في وقايعٍ ... تعلّمَ غُمْرُ القوم منّا بها الطعْنا
أسودُ وَغًا لولا وقائعُ سُمْرِنا ... لما لبسوا قيدًا ولا سَكَنوا سِجْنا
وقَدْ عَرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقِعَها مِنّا، فإن عاودوا عُدْنا

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين وستماية من الهجرة النبوية

والسلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي – رحمه الله – صاحب الديار المصرية والشام، خارجًا عن القلاع الشامية. وسنقُر الأشقر مستوليًا على صُهيون، وأولاد الملك [١٢٠ظ] الظاهر بالكَرك، والملك المنصور صاحب حماة بحماة[٤]،/ وملوك الشرق على ما كانوا عليه، وأمير العربان مُهنّا ابن عيسى، وسلطان التتر والعجم وبغداد والعراق أحمد سلطان، وهو يومئذٍ مسلم موحِّد.

---

(١) كذا في الأصل، وصوابه: المشفقين... فقد حلفوا ألّا يعودوا...
(٢) كذا في الأصل، والصواب: لأمراء أبيك وأخيك.
(٣) لم ترد هذه الأبيات في نص الجواب السلطاني الوارد عند اكل من بن عبد الظاهر، وابن الدواداري والمقريزي والعيني، والاختلافات بين روايات هذه المصادر كبيرة جدًا.
(٤) في هامش المخطوط وبخط مغاير: الحمد لله تعالى ذكره، بلغ العبد المصطفى بن محب الدين مطالعةً، وإلى الله عز وجل نرغب في الشكر على ما أولاه، والتوفيق لما يرضاه.

وفي هذه السنة وصل من جهة أحمد سلطان إلى دمشق رسولاً[١] يسمَّى شُجاع الدين عبد الرحمن، وكان معه كلام كثير وأقاويل عظيمة، وتهديد من جهة التتر. فأنزله السلطان الملك المنصور بقلعة دمشق، ورتّبوا له راتبًا جزيلًا، وأعطاه الملك المنصور أشياء جليلة وقماشًا وخُيولًا وأشياء لم يُعطها ملكٌ غيرُه. ثم مات الرسول في تلك السنة وكانت وفاته بقلعة دمشق.

ذِكْرُ سبب وفاته

قيل: إنه كان رجلًا ساحرًا معروفًا بهذا الفن، وأنه كلما دخل على الملك المنصور يرَى الملك المنصور في نفسه يقتله، فلم يقدرْ على ذلك، ولم يقدرْ أن يقدر على من يأمره بقتله. فقال الملك المنصور لنائبه طُرنطاي: «كلما دخل لي شجاع الدين عبد الرحمن أريد قتله فلم أقدر على قتله». قال طُرنطاي: أنا أقتله؟» قال: «اقتله». قال: «أمرتني بقتله؟» قال: «نعم». فأخذ طُرنطاي قَدحًا ودخل إلى المنزل الذي شجاع الدين عبد الرحمن فيه فقال له: «السلطان الملك المنصور يسلم عليك، وأنتم في بلاد التتر/ عندكم إذا أراد الملك [١٢١و] أن يخدمَ رجلًا ويعظِّمه يسقيه قَدحًا من يده، والسلطان الملك المنصور يسلِّم عليكَ وقد سَيَّرَ إليك هذا القدح. ألا ترى أن تشربَه؟» قال: «نعم».

فتناول شجاع الدين عبد الرحمن القدَح بيده وشرب نصفه وقال: «بسم الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء».

قال له الأمير حسام الدين: «والله لا بد أن تشربَ باقيه». قال من كان حاضرًا: إن شجاعَ الدين عبد الرحمن لم يشرب القدَح حتى يبست يده على القدح وانقلب على ظهره ومات لوقته.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستماية من الهجرة النبوية

فيها أمر السلطان الملك المنصور بعمارة البيمارستان والمدرسة والقُبَّة والسقاية بين القصرين بالقاهرة المحروسة.

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: رسولٌ.

ذِكْرُ محاسن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي
تغمده الله برحمته

وكنا قد تقدّم قولُنا أن السلطان الملك المنصور قد كسر التتر على حمص، وذكرنا ما جرى له مع التتر.

قال صاحب التاريخ: إن السلطان الملك المنصور لما أقبلت التتر عليه، ورأى خلقًا لا يُدرَى أولها أم آخرها، رفع رأسه إلى السماء وقال:

«اللّهمّ أنت أعلا وأعلم بأني رجل غريب، قليل الرجال، وقد افترَى علينا هؤلاء القوم، ودخلوا إلى أرضنا، وسلكوا بلادنا، واستولوا علينا، لعلمهم باختلافنا. اللّهمّ إني أشهدكَ عليّ وأنبياءك وحَمَلَة عرشِك، إنْ نُصِرتُ/ هذه المِلّة المحمدية على هولاء [١٢١ظ] الملاعين، لأبنينّ بالقاهرة مدرسةً وبيمارستانًا وسِقايةً ومدفنًا لي إذا مِتُّ، وأجتهدَ جُهْدي وطاقتي في منع ما أقدر عليه من المحرّمات».

ولما أمر الملك المنصور للشجاعي ببناء ما ذكرناه، نزل إلى بين القصرين، وأمر بحفر الأساس، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستماية، والفراغ منه في جمادَى الأول سنة أربع وثمانين وستماية. وكان المشدّ على العمارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي.

ولما أراد الشجاعي أن يرميَ الأساس، طلب الفقهاء والقضاة، وكان من جملة من حضر القاضي مجد الدين ابن الخشاب وغيره وقال: «يا قضاة، انظروا ما أنا فاعل». ثم أمر التتر المقيدين أن يرموا أساس المدرسة والقُبّة وقال: «قد رميتُ أساس هذه المدرسة والقبّة في طالع سعيد على أكتاف التتر، ومتى خَرِبَت عَمُرَت على أكتاف التتر». ثم شرعوا في العمارة.

وهذا الذي نقلناه لم يرد أحسن منه ولا وقع لأحدٍ في تاريخ، وهو أن المدرسة والقُبّة وما يليهما بُنوا[1] على أكتاف التتر.

وأقام الحال إلى أن آل الأمرُ إلى دولة مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر محمد ابن

---

(١) السلوك للمقريزي ١/٧١٦، ٧٢٥، ٩٩٧ ملحق رقم ٩؛ وعقد الجمان ٢/٣٢٦؛ ونهاية الارب ٣١/١٠٦–١١٣؛ وتشريف الأيام ٥٥–٥٧.

مولانا السلطان الملك المنصور، وجاء التتر نوبةَ شَقْحَبَ[١] وكسرَهم المسلمون، ووقعت المأذنه وغيرها، بنيت القُبّة والمدرسة على أكتاف التتر.

ذِكْرُ محاسن / الملك المنصور وما فعله الشجاعي في المدرسة والبيمارستان [١٢٢و]

ثم إنّ الشجاعي جلَس بنفسه مشدًا على العمارة، ولم يعتمد على غيره. ثم إنه أمر لمقدمي الأسرى أنهم يطلعون المأذنة الحجَر وينزلون بالتراب، فكانوا يطلعون حاملين وينزلون حاملين، فعظم ذلك عليهم. ورأى الشجاعي أحدهم وقد قصَّر في العمل فضربه ببندقه. فنخسَ عينه، فبكا التتري ونزل إلى أبناء جنسه فتباكَوا جميعًا، ثم طلعوا جملةً واحدةً إلى الشجاعي. فلما نظر إليهم قال: «ما بالُكم؟» تقدم أحدهم وقال: «يا أمير علم الدين – نصرَكَ الله – ارفِقْ بنا يرفق الله بك يوم الحاجة.

قال: ولما سمع الشجاعي كلامَ التتر وبكاءهم، بكا وبكا من كان حاضرًا. ثم استثنا التتري بكلام قال:

«والله يا خوند، وحياة رأسك ورأس مولانا السلطان، ما فينا من لا له في بلاده صوره وأملاك وبساتين وعائلة وغير ذلك، ونحن مسلمون وقد رمانا الله تعالى في أيديكم بذنوبنا، ونحن نطلع بالحجر وننزل بالتراب، فلو عذّبنا الله – تبارك وتعالى – بنار الآخرة ما عذبنا بأكبر من هذا في الدنيا، ونسئل صدقاتك أن تسئل السلطان إما أن تقتلونا أو ترفقوا بنا».

قال الشجاعي: «طيّبوا قلوبَكم، وحق رأس مولانا السلطان، متى كَمُلَت عمارة هذه المدرسة والبيمارستان والقُبّة والسقاية في حياة مولانا السلطان، ونزل إلى هاهنا، ووقَّف الوقف، / وأعتق من أعتق، وعمل من الخيرات ما يُعمَل، جعلتكم من جملة العتقاء، وخلصت لكم أخباز[٢] في الحلقة». قال: فعند ذلك قَبّل التتر الأرض بين يدي الشجاعي، وقبّلوا يده وعملوا بالفاعل. [١٢٢ظ]

---

(١) قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ، تحت جبل غباغب، أنظر: معجم البلدان ٨٧١/٣.

(٢) قطعة ارض تمنح إلى أمير أو إلى أي شخص من المجندين ويستغل حاصلها في سبيل عيشه، راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي ١٥/٤.

ذِكْرُ محاسن الملك المنصور قلاوون الصالحي رحمه الله

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]. فلما كَمُلَت المدرسة والبيمارستان والقبّة والسقاية، ونزل الملك المنصور إلى بين القصرَين، ودخل البيمارستان، جلس على كرسيّ وطلَب القضاة والأشراف والعُدول وسَراة الناس وقال: «اشهَدوا عليّ يا عُدول أنني قد أذنتُ للمتصرِّف في هذا المكان أن يطعمَ كُلَّ من يردُ عليه من مثلي إلى أسفل[٢] ولا يمنعه عن مريضٍ ولا جريحٍ ولا صاحب عِلّةٍ ولا صُعْلُوكٍ ولا جُنْدي ولا أمير».

ثم خرج ودخل المدرسة ووقف في الشبّاك الذي على الحوض، وقد خلع على الشجاعي خِلْعَةً سنيّةً لم يلبس ملوكُ الأكاسرة مثلَها. ثم إن الشجاعي رسم أن يكسوا التتر جميعًا أجلالًا، وعمل على كتف كلِ واحدٍ مسحاة وقُفّة، وقال لهم: «إذا أشَرت لكم بيدي فقبّلوا الأرض». ثم إن الملكَ المنصورَ لما أطال نظرَه وهو بالشباك وقال: «يا سنجر». قال: «نعم». قال: «ألم أقُل لك إذا بنيت هذه القُبّة تعملها قبالة قُبّة أستاذي؟» قال الشجاعي: «أيّد اللهُ مولانا السلطان، لما أمرتني بذلك كان خوشداشك قراسنقر المعزّي حيًّا. فلما فرغت القُبّة مات. وانصرف/ على القبّة ستة وثلاثين ألف دينار. ولما [١٢٣و] مات خوشداشك احتجت عملت هذا المكان الذي أنت فيه مدرسةً. قال الملك المنصور: «نِعْمَ ما فعلت».

ثم خرج السلطان ليركبَ، ومشَى الشجاعي وطُرنطاي بين يديه. فلما قدَّمُوا الفرسَ، وأراد السلطان الركوبَ، أشار الشجاعي للتترَ فقبّلوا الأرض، وكان أولهم من دار البيسَري إلى السيوفيين. فلما نظر الملك المنصور قال: «من هؤلاء؟» تقدم الشجاعي وقال: «يا خوند – أيّدك الله – هؤلاء التتَر الذين استعملناهم في هذه العمارة، وهذا نهار عيد ونهار عِتْق، وأنت تعلم أن الملوكَ الذين ربّوا مولانا السلطان إذا كان لهم نُوّاب وضَمِنَ لهم النائب شيئًا عن مخدومه لا يخجلوه ولا يكذّبوه. وإني ضَربتُ ببندقةٍ فخسَفتُ عين هذا – وأشار بيده إليه – وكانوا يطلعون هذه المأذنة بالحجارة وينزلون بالتراب، فوقفوا واستغاثوا من التعب، فضمنت لهم

---

(١) سورة الفتح ٤٨/١٠.

(٢) تشريف الأيام والعصور: على من يكون مثلي فمن دوني إلى أنهى طبقات الغنى والفقر والمسكنة ١٢٧.

عنك، أنه متى كَمُلَت هذه المدرسة والبيمارستان في حياتك نَفُكُّ قُيودَهم ونكسُوهم ونعطيهم أخبازًا في الحَلْقة». [٢٤]

قال: ولما سمع السلطان الملك المنصور كلامَ الشجاعي، أطرق زمانًا. ثم رفع رأسه وقال: «أخطأت يا سنجر، لا يمكن أن نصدّقك ولا نكذّبك. يا مسكين ما تعلم أن هؤلاء التتر أعدانا وأتونا ليقاتلونا ويقتلونا، وقد نصرنا الله – تبارك وتعالى – عليهم، وما في هؤلاء من لا له في الشرق زوجة ومِلْك وحِرْفَة وكتبه./ ومتى أعطيناهم في الحلقة [١٢٣ظ] فيكونوا أصحابًا وهم أعداء. فإن رأوا خَيْرًا كتموه وإنْ رأوا شرًّا نقلوه، وإنْ أمكن أحدًا منهم فرصة هربَ إلى بلاده. ولكن ما نكذّبك. نعطيهم في ثغر سكندرية».

قال الشجاعي: «يا خوند – أيّدك الله – هؤلاء أربع ماية فارس، فإذا أعطيناهم دَخْلَ سكندرية ما يفضُل لبيت المال شيء». قال السلطان: «فأين نعطيهم؟» قال: «نعطيهم في قُوص، ويكونوا سَدًّا بين المسلمين وبلاد السودان». قال: فعند ذلك رسم السلطان لأسرا التتر أن تُفكّ قُيودهم، ورسم لهم بالكسوة السنية من بيت المال والسيوف، وكتبوا مناشيرهم المماليك(١) السلطانية، وسَيّروهم إلى قُوص وهم إلى الآن.

وفي هذه السنة، كان الملوك بالشرق كلٌّ منهم على ما هو عليه.

فيها رسم السلطان الملك المنصور باليزل(٢) على الكرك. فنزل عليها العساكر المصرية، وحاصروها أشدّ حصار، وحاصرها الأمراء بالنوبة، كل نوبة أربع شهور. ومات عليها من الأمراء أمير يعرف سنقر البُدَيْوي(٣).

وفي هذه السنة مات الملك المنصور صاحب حماة – رحمه الله – وهو الذي كان بقي من ذرية ملوك بني أيوب(٤). وكان رجلًا عاقلًا فاضلًا مترسلًا كريمًا حليمًا

---

(١) كذا في الأصل، وهي: وكتبتْ مناشيرهم المماليكُ...

(٢) كذا في الأصل، وهي إما أن تكون: باليزك، أو النزول، وهو الأدنى إلى الصواب.

(٣) هو أحد الأمراء البحرية الذين غادروا القاهرة إلى بلاد الشام والروم بعد أزمة الصراع على الحكم مع الملك أيبك المعز.

(٤) محمد بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ترجمته في تشريف الأيام والعصور ٢٩٨؛ والسلوك للمقريزي ٧٢٥/١؛ ونهاية الأرب للنويري ١٢١/٣١؛ وكنز الدرر ٢٦٥/٨، وتذكرة النبيه لابن حبيب ٨٨/١؛ والوافي بالوفيات ١١/٥ رقم ١٩٦٦؛ وزبدة الفكرة ٢٤٦.

شجاعًا، وكان الناس يستنشقون فيه رائحة ملوك بني أيوب. ولما وصل الخبر للسلطان [١٢٤و] الملك المنصور بموت/ صاحب حماة، رسم بالخِلْعَة والتقليد للملك المظفّر ولده[1] مكانه. واستقرّ الملك المظفر بمملكة حماة إلى أن مات.

وفيها رسم الملك المنصور قلاوون الصالحي بالخِلْعَة والتقليد أيضًا لمهنا ابن عيسى أن يكون أميرًا على سائر العربان بالشام بكماله على جاري عادته وعادة أبيه[2].

وفي هذه السنة غرقت دمشق، وطلع الماء من أسوار دمشق إلى المدينة، وعدم الناس أموالًا وقماشًا وتحفًا. وكان العسكر المصري نازلًا بدمشق، فغرقت خيول العساكر، والسعيد من نجا بنفسه[3]. ولما غرقت دمشق وجرى فيها ما ذكرناه، عمل القاضي صدر الدين ابن المرحِّل[4] هذين البيتين، وذكر فيها أمورًا لا ينبغي ذكرها، ولكن هي مستحسنة. شعر[5]: [من الرمل]

إنْ يَدُمْ ذا الغيثُ شَهْرًا واحدًا ... جاءَ بالطوفانِ والبحرِ المحيطِ
ما هُمُ من قومِ نوحٍ يا سَما ... أقْلِعي عنهم فَهُمْ مِن قومِ لوطِ

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستماية من الهجرة النبوية

فيها وردت الأخبار بموت أحمد سلطان بالشرق، قتله أرغون أخوه وجلس مكانه.

---

(١) الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد بن محمود المظفر بن محمد المنصور بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ترجمته في تذكرة النبيه لابن حبيب ١/٦٢ و٨٩ و٢١٤؛ والوافي بالوفيات ٥/١١ رقم ١٩٦٦؛ وشذرات الذهب ٥/٤٩٢، ٤٤٣؛ وعبر الذهبي ٥/٣٨٩؛ ونهاية الارب للنويري ٣١/٣٧٩؛ وتالي وفيات الأعيان للصقاعي ١٣٦ رقم ٢١٥؛ وزبدة الفكرة ٢٤٦ و٣١١ «ترجمة والده الملك المنصور»؛ وعقد الجمان للعيني «وفيات سنة ٦٩٨هـ»، وتاريخ الاسلام للذهبي (٦٨١-٦٩٠) ١١، والحاشية التابعة لها.

(٢) ترجمته في تذكرة النبيه ١/٩١؛ والنجوم الزاهرة ٧/٣٦٣؛ والدرر الكامنة ٥/١٣٨ رقم ٤٨٦٥؛ والشذرات ٦/١١٢؛ وكذلك وفيات سنة ٧٣٥.

(٣) حول هذا السيل، يمكن مراجعة تاريخ الإسلام للذهبي (٦٨١-٦٩٠) ١١ وحاشيتها الزاخرة بالمصادر التي ذكرته.

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات ٤/٢٦٤ رقم ١٨٠٢؛ وفوات الوفيات ٤/١٣ رقم ٤٩٠.

(٥) أنظر: كنز الدرر لابن الدواداري ٨/٣٨٨.

وفي هذه السنة رسم السلطانُ الملك المنصور قلاوون الصالحي للأمير سيف الدين بلبان الطباخي أن يكون نائبًا بحصن الأكراد، ولم تكن قبل ذلك تعرف طرابلس[١].

وكان الأمير سيف الدين بلبان الطباخي رجلًا شجاعًا مقدامًا، أجلَّ أمراء الملك المنصور ومماليكه بالشام[٢].

ثم ورد مرسوم ثاني ان[٣]: /«إلى الطباخي أن تنزلَ على المرقب، وتقطع أشجارها، [١٢٤ظ] وتخرّب ضياعها، وتقتل من تجده فيها، وتضيّق على من يكون بها، وإن قدرتَ على فتحها فافتحها».

قال من حضر هذه الوقعة: فجمع الأمير سيف الدين بلبان الطباخي من كان عنده من الجُنْد والأمراء، وطلب عساكرَ حمص ومن كان ببعلبك وبعضَ عساكر دمشق، فاجتمع عنده ما تكون عِدَّتهُ عشرة آلاف فارس أو دون ذلك، ونزل على المرقب وحاصروه.

قال صاحب التاريخ: لـمّا نزل الأمير سيف الدين بَلبان الطباخي على المرقَب وحاصرها وضَيّق على أهلها، ووصلت إليه الجيوش الإسلامية من كل فجٍّ عميق، فلما ضاق ذَرْعُ الفَرنج، نزلوا من القلعة وكان بها من الفرنج ماية وعشرون فارسًا. فنزلوا أولًا فأولًا، ورتّب بلبان الطباخي العساكر الإسلامية مَيمنةً ومَيْسَرةً. وخرجت الفرنج وتحدّروا من باب المرقَب فارسًا بعد فارس، ولم تكمُلْ عِدَّةُ خَيّالة الفرنج أربعين فارسًا إلّا دون ذلك، ومن خلفهم الرجّالة بالرماح والنشّاب والجروخ[٤].

فلما رأى الطباخي أن المكان مضيق على عسكر الإسلام، أمر العساكر الإسلامية أن يتأخّروا حتى يصلوا إلى مكانٍ أوسع من المكان الذي هم به. فتأخّر بعضُ العساكر، وتقدّم بعضُ الفرنج، وتأخر بعض العساكر/ وتقدّم بعض الفرنج، وتفاقم الأمر في [١٢٥و] التقديم والتأخير. فصرخَت الفرنج صرخةً واحدةً، فانكسَر المسلمونَ، وصارت

---

(١) بالهامش: قبل أن تفتح طرابلس، كان النواب من جهة السلطنة يقيمون بحصن الأكراد.

(٢) ترجمته في الوافي ١٠/٢٨٢ رقم ٤٧٨٨؛ والمنهل الصافي ٣/٤٢٢ رقم ٦٩٩؛ وأعيان العصر ٢/٤٢ رقم ٤٥٤.

(٣) كذا في آخر صفحة المخطوط.

(٤) جمعها «جَرْخ»، قذّافة، آلة من آلات الحرب القديمة ترمى منها السهام والنفط. راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي (جرخ).

كسرةً شنيعةً، وركبت الفرنج على المسلمين بالسيوف والرماح، والفرنج أيضًا بالمجانيق والجروخ. فصارت كسرةً شنيعةً، وولّى الجيشُ منهزمًا، وركبت الفرنج على أعناق المسلمين بالسيوف، وقُتل من قتل وسَلِم من سَلِم من الجند.

وأما الرجّالة الذين بالجبال فقتلوا عن آخرهم، وكانت كسرةً شنيعةً، وكانت الفرنج في خَلْقٍ قليل، وكان المسلمون في جمعٍ كبير(١).

ولما بلغ الملكَ المنصورَ ذلك، كتب إلى الأمير حسام الدين لاجين النائب بالشام أن: «تجهَّز من عندك سنجر المصري»، وكان مملوك الملك المنصور شراء ماله، وكتَب له أن: «تمضي إلى مكان الوقعة، وتجمع من حصن الأكراد من الأمراء والتركمان، وممن كان حاضر(٢) هذه الوقعة، وتكشفَ الكشفَ الشافي، وتنظِّم بذلك محاضر بالقُضاة والعُدول. فإن كان بلبان الطباخي قد انكسرَ من الفرنج فتقيده وتسيِّره إلينا، وإنْ كانت كسرةً من الله تعالى، فتبطحه على الأرض وتضربَه سبع عصي».

فلما حضرَ سنجر المصري إلى حصن الأكراد، جمع الأمراء والتركمان ومن كان حاضر(٢) هذه الوقعة، وعمل محاضرَ بصورة الحال، وذلك بحضور القضاة والأشراف وأكابر البلاد، أن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي لم يهرب من الفرنج / ، ولكن قصد أن يتأخَّر العساكر إلى مكان أوسع من مكانهم، وفعل الله ما أراد. [١٢٥ظ]

قال: فعند ذلك أمر سنجر المصري أن يفرشوا بساطًا على الأرض، وقال لبلبان الطباخي: «نَمْ على هذا البساط». وضربه سبع عصي.

فلما حضر سنجر المصري إلى بين يدي الملك المنصور، وقروا(٣) عليه المحاضر، قال لسنجر المصري: «بطحته على الأرض؟» قال: «على الأرض، لكن بسطتُ له بساطًا». قال الملك المنصور: «ما في كتابنا لك أن تبطحَه على الأرض؟». قال: «نعم، ولكني كرهت أنْ أخرقَ حرمة المملكة في مثل ذلك المكان». قال السلطان: «أمر السلطنة فيه خَرْق حرمة، أنت خرقتَ حرمته بتلك الأرض، ولكن أنا أخرقُ حرمتَك هاهنا».

وأمر أن يبطحَ سنجر المصري، وضربه عوض السبعة سبعين.

---

(١) عن هذه الواقعة، راجع: السلوك ١/ ٦٨٤؛ وسائر المصادر التي أرّخت لهذه الفترة.

(٢) كذا في الأصل، وهي: حاضرًا.

(٣) وقرأوا.

وفي هذه السنة، توجه السلطان الملك المنصور من الديار المصرية إلى الشام ونزل على المرقَب وحاصرها أشدّ حصار.

وفيها فتح الملك المنصور المرقب، وكان فتوح المرقَب يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول من هذه السنة، يعني سنة أربع وثمانين وستماية، وفتحها في خمس وثلاثين يومًا[١].

وفي هذه السنة وردت الأخبار من الديار المصرية بولادة مولانا السلطان الأعظم/ الملك الناصر محمد بن مولانا السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، تغمده الله برحمته. [١٢٦و]

قال: ولما ورد الخبر على الملك المنصور وهو نازل على المرقَب، أمر بدقّ الكوسات وسمّاه محمدًا. وكان الملك المنصور - رحمه الله - قليلًا أن يعيشَ له ولد. فقصد بهذا الاسم الشريف أن يمدّ الله تعالى له في حياته وكان كذلك.

وجاء من الملك الناصر ملك عظيم القَدْر، كبير الشأن، وجاء فيه جميع أوصاف الملوك المتقدمين من كل ملك خِصْلَة، وسيأتي شرح هذا الكلام إذا انتهينا إلى أيّام دولته المباركة[٢].

ذِكْرُ ما جَرى عند مولد السلطان الأعظم، الملك الناصر محمد ابن مولانا السلطان الملك المنصور

قال: ولما ورد الخبر إلى الملك المنصور بمولد السلطان الأعظم الملك الناصر، رسم أن يُعملَ لمولده طالعًا، وجمع أصحابَ عِلْمِ الفلَك من سائر أقطار الشام، ومن جملتهم الشيخ العالم القُدْوَة في علوم الفلك الشيخ برهان الدين. وقالوا للملك المنصور:

«هذا يجيء منه مَلِك عظيم الشأن، كبير القَدْر بين الملوك، مسموعٌ قولُه ممتثَلٌ أمره، سريعٌ حركتُه، مقدامٌ فيما يفعله، وربما ينقص عليك أشياء من فعلك، وتشمله فيه

---

(١) عن فتح حصن المرقب، راجع: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٨١-٦٩٠) ١٤؛ وتذكرة النبيه ١/٩٦؛ وتشريف الأيام ٧٧؛ وزبدة الفكرة ٢٥٢؛ والسلوك ١/٧٢٨؛ وعقد الجمان ٢/٣٣٨؛ وذيل مرآة الزمان ٤/٢٣٩.

(٢) أنظر: زبدة الفكرة ٢٥٢.

سعادته، وما يتحرك في أمرٍ إلّا ويبلغه، ولا يطلب حاجةً إلّا وتُقضَى له، ولا يطلب عدوًّا [١٢٦ظ] إلّا وينتصرُ عليه،/ ولا يقصد حِصْنًا إلّا ويفتحه، ولا بلدًا إلّا ويملكه، وتكون جميعُ الملوك يكاتبونه ويسالمونه ويظاهرونه ويوادّونه، ويكون عمره طويلًا ويحصل له في آخر عمره زُهْد وورَع ورأفة ورحمة ونظر إلى الرعيّة، ويطلع إلى أصحاب العلوم والفضايل، ويؤثر في العالم آثار حسنة، ويظفر بأعدائه، وتكثر مماليكُه ويحسُن جيشه، وتطيب أوقات العالم في أيامه، ويقِلُّ تعَبُ الجنْد في أيام مملكته، ولا يجد في دولته عدوًّا يحاربه، ولا من يشاققه، كل ذلك لطف من الله وتأييد له».

وفي هذه السنة مات الشيخ الإمام العالم الفاضل الورع الزاهد سيد المحدِّثين الشيخ تاج الدين الصرخدي الدمشقي[١]، وكان رجلًا محدِّثًا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومن جملة تلاميذه القاضي شمس الدين الحريري قاضي القضاة بالديار المصرية. وقيل أن الشيخ تاج الدين المذكور، نفوه من دمشق، وقيل أنه التزم ألّا يسكنَ دمشق. فخرج منها وأتى إلى الديار المصرية وأقام بها مدة سنتين فلم يعجبه المقام بمصر، وذلك لقلة ثمارها، وكثرة غُبارها، وقِلّة فضائل أهلها، وضيق مساكنها. فعمل هذه الأبيات يتشوّق إلى الشام ودمشق وغضارتها ونضارتها [١٢٧و] وطيب مستنزهاتها وثمارها/ وأشجارها وأنهارها وأقمارها، ويذمُّ مصرَ وضيقة مساكنها، وقِلّة مستنزهاتها وقِلّة موافاة أهلها، من جملتها هذه الأبيات المشهورة، شعر: [من البسيط]

سَلْ سَلِمْتَ على جِيران جَيْرُون[٢] ... يا صاحِ عن مُسْتَهامِ القَلب مَحْزونِ
وخُصَّ جامعَها عَنّي فَكَم جمَعتْ ... أكْنافُه الشَمْلَ بالأحباب عن حينِ
حيثُ البدور على تلك الغصُون غدَتْ ... تختالُ كالغِيد في الأعطاف واللِّين
واشْرِفْ على الشَرف الأعْلَى إذا سَرحَتْ ... تلكَ الظِّباءُ بسَرْحاتِ الميادينِ
في يَوْمِ سَبْتٍ تَرَى الوفَراتِ جائلةً[٣] ... على المناكب أمْثالَ الشعابين
وسَهْمُها حَيّ[٤] دال السَهْم فهو لقلبي ... السهم منه سِهامُ الشَوْقِ تُصْمِيني

(١) ترجمته في تالي كتاب وفيات الأعيان ٦١ رقم ٩٢.
(٢) بالفتح، قيل أنها إسم لمدينة دمشق، وهناك روايات، كثيرة، راجع: معجم البلدان لياقوت.
(٣) خصل الشعر أو جدائل الشعر الكثيفة المنسدلة على المناكب.
(٤) كذا في الأصل، وربما كانت: أو حيث، حين، كي يستقيم الوزن.

وقُل نُريدُ بَريدَ الدَمْعِ فيكَ كما ... يُثيرنا مأثور آثار مَشْجُون(١)
واقرِ السَلامَ على الوادي وسَرْحته ... وحَيِّ بأناسِهِ عَنِّي لِتُحْييني
٣ وقِل بمَسْجِدِ خاتونٍ فَإنَّ به ... وبالمُنَيبع(٢) أضْحَى القَلبُ في هُون
وأنتَ يا بَرْقُ حَيِّ النَيْرَبَيْنِ(٣) بها ... واسقي مراتعها سَحًّا كسَحُّون
وإنْ أتَيْتَ الحِمَى وَهْنًا فحيِّ به ... حيًّا أقاموا(٤) بجَزْمانا وجِسرين(٥)
٦ يُشْفَى الغليلُ بريّاه ويُسْعِدُه ... نُسَيمَةٌ خطرَتْ من قلب قَلْبين
وامْطِرْ دموعَك بالمِيطور وابكِ علَى ... زَمانِ لَهْوٍ قَطَعْناه بِعرنين/ [١٢٧ظ]
وسَلْ حمائمَ ذاكَ الدَّوحِ مبتكرًا ... يَنُحْنَ شَجْوًا بأفْنانِ البساتين
٩ حيثُ الشقائقُ تلقا خدها خفر ... والوردُ تزهوا(٦) بمنشورٍ ونسرين
والنرجسُ الغَضُّ قد أضْحت محاجِرُه ... تحكي فتُورَ عيونِ الخُرَّدِ العين
وللبنفسج أنفاسٌ معطَّرةٌ ... تُزْري بضايعِ عِطْر الهند والصين
١٢ ما أطْيَبَ العيشَ أيامَ الربيعِ بها ... لنا وأحسَنَ أيامًا بِتِشْرين
تَروقُ في الصيف لي والحرُّ محتدِمٌ ... ولستُ أكرهها وقتَ الكَوانين
ولا أَبيعُ شذَى ذاكَ النسيمِ بها ... بمُلْكِ مصرٍ ولا أموال قارون
١٥ ما المَقْسُ(٧) داري ولا السبعُ الوجوه ولا ... أرَى المقامَ بِدَيْر الطينِ(٨) يُغنيني

---

(١) عجز البيت مضطرب.

(٢) أنظر: خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب، عني بتحقيقه شكري فيصل دمشق ١٩٦٨، ص٢٤.

(٣) نيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين. أنظر: خريدة القصر وجريدة العصر ص٢٣.

(٤) من نواحي غوطة دمشق، أنظر: ديوان ابن منير الطرابلسي جمعه وقدم له عمر عبد السلام تدمري، ص٤.

(٥) من قرى غوطة دمشق أنظر: ديوان ابن منير الطرابلسي، ص٣.

(٦) كذا في الاصل.

(٧) فرضة القاهرة منذ عصر الفاطميين، ومكانها قرب الأزبكية الحالية، ثم تحول مجرى النيل وانحسر ماؤه في أواخر القرن السادس الهجري عن بولاق. راجع: المواعظ والاعتبار للمقريزي ١٢١/٢.

(٨) يقع في قرية العدوية جنوبي الفسطاط على شاطئ النيل. راجع معجم البلدان لياقوت ٢٨٦/٢.

ولا أرى نُزْهَتي في اللُّوق[1] لائقةً ... من بعد سَطرا ومقرا والميادين
ولا القرافةُ تُلْهيني زيارتها ... عن قاسيون والأرصاد تشفيني
ولا تسلَّيت عن بابِ البريد بما ... أراه في اللّيل من سوء الدخاخين
كلّا ولا سَرْحةُ القصرين تقنعني ... عن جَوسقٍ في ذرا جَدْيا وزِبْدينِ
هذا حديثي ولا طال المطالُ ولا ... حال الزمانُ وعندي من يُسَلّيني
سأُرْحِلُ العِيسَ عنها وهي صاغرةٌ ... إلى الشآم[2] وأدنَى الرزق يكفيني
أسْعَى له فيعنّيني تَطَلُّبُه ... ولو قَعَدْتُ أتاني لا يُعَنّيني

[١٢٨و] العبد الفقير إلى الله تعالى قَرطاي العزّي الخزنداري/ مؤلف هذا التاريخ المبارك، قصد أن يعارض هذه القصيدة النونية، وذلك لتفضيل الشيخ تاج الدين الصرخدي مدينة دمشق على مدينة مصر، وذلك أن بمصر أربعة أشياء لم يكن في الأرض مثلُها: أولها ماؤها والثاني ذهبُها، والثالث عساكرها، والرابع خلاعةُ أهلها. من جملة قصيدته، شعر: [من البسيط]

إملا المسامعَ من مصرٍ لتشفينِ ... واحْيي فؤادي بذكراها لتُحْييني
وانْقُل أحاديثَها عَنّي وقُلْ خَبَرًا ... مني ودَعْ من ذَرى جديا وزِبْدين
وقِفْ بجامعِ طولونٍ وسِرْ سَحرًا ... نحو المدينة لا نحو الميادين
تَرى الجِنانَ وما فيها مزخرفةً ... والخُرَّدَ العِينَ لا كالخُرَّد العِينِ
من كُلّ هَيْفاء تُزْري بالغزال ضُحًى ... وبالبدور وبالأغصان في اللّين
وكلّ أغْيَدَ قد لانَتْ معاطفُه ... وسُجّيَتْ وُرْدُ خدَّيْه بمُرْسين
واللفظُ أعْذَبُ من ماء الزلال ولم ... يُبدلوا طِيْبَ لفْظ الراء بالغَين
والفَرْوُ والصوفُ والقطن الغليظ ولبـ ... ـسُ البَشْت عندهمُ لبسُ المجانين
كل الكثافة طبعًا فيهمُ خُلِقَتْ ... سِيْما إذا كان فيهم ابنُ سِتّين
إنْ قُلْتَ عن مُرْدِها حَدِّثْ ولا حرَجٌ ... وإنْ تقُلْ عن نِساها لا تقيين
[١٢٨ظ] وإنْ تَصِفْ فهوَى مصرٍ ورقَّتُه ... وماؤها الشهْدُ فاملا كَيْ تُحَيِّيني/

---

(١) ناحية اللوق، الجهة التي انحسر عنها ماء النيل من ساحل المقس إلى منشأة المهراني بالقاهرة، وعرفت بباب اللوق، وهو باب الميدان الصالحي، وقد بقي ذلك الباب إلى ما بعد سنة ٧٤٠هـ. راجع: خطط المقريزي ١١٧/٢.

(٢) في الأصل: الشام، وبها يضطرب الوزن.

وللحُبوشِ بمصرٍ بركةٌ عجَبٌ ... فيها سُلِبتُ فلا عقلي ولا ديني
وإنْ عبرتَ بدير الطين، قف لترَى ... حُسْنَ الشماميس ما بين الرهابين
بالدّور والنُزْل قَتلَى والزُمور بَكَت ... عليهمُ هذه قتلَى الفلسطيني
وجُزْ بمصرٍ وروضتها وجِيزتها ... وحُسْن مقياسها ما بين بحرين
ورمل بولاقَ إنْ عاينتَه سحَرًا ... جزيرة الفيل في البستان تخبين
وتَمَّ شُرْبَكَ في شُبْرا وقُمْ غطَطًا ... للمِنْيةِ الصبح وانزل كَيْ تمنّيني
والكوم والريش والسّبعُ الوجوه إلى ... مِنْية سُراك وبِتْ بين الرياحين
وإن تَقُل مَطرِيّاتٌ وبلسَمُها ... وتوفر الخندق المعمور يكفيني
وفي الجُنَينةِ العُظمَى ترَى عجَبًا ... من أعْيُنِ التُرْك إنْ عاينتَ تَسْبيني
وإنْ أُتيْتَ لباب النصر قفْ نفَسًا ... بين الخوانك واجلسْ بين قصرَيْن
وغُضَّ طَرْفكَ إنْ عاينتَ بدرَ دُجًى ... فإنّ قلبي بَلاهُ كان من عيني
سأُرْحِلُ العِيْسَ من أرض الشآم إلى ... مصرٍ ودَعْ مَنْ لَحَاني أنْ يُخلِّيني
رِزقٌ كثيرٌ ولا خَوفٌ ولا تَتَرٌ ... ولا جُفولٌ بنارٍ أو دخاخين
ونحن في طيبِ عَيْشٍ رزقُنا غَدَقٌ ... يومًا بيومٍ لنا آتٍ يكفّيني
جَعَلْتُ سُكْنايَ بابَ النصر مُجْتَهِدًا ... وَسْطَ المدينةِ والأسوار تُحويني/ [١٢٩و]
وقلت للركب: إنْ جرتَ(١) الشآمَ ضُحًى ... سَلِّمْ سَلِمْتَ على جيران جَيْرون(٢)

ثم دخلت سنة خمسٍ وثمانين وستمائة من الهجرة النبوية

والخليفة بالديار المصرية على ما هو عليه، والملوك بالأقاليم، كل منهم على ما هو عليه، وصاحب مصر والشام إلى حدود الفراة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، رحمه الله، وسنقر الأشقر في صهيون، والأمراء الذين كانوا صحبته متفرقين في القِلاع، وبعضُهم في الأغوار، وهم يطلبون الرضَى وتجديد الأيمان من السلطان الملك المنصور قلاوون.

وفي هذه السنة رسم السلطان الملك المنصور لنائبه الأمير حسام الدين طُرنطاي أن يتوجّه إلى سنقُر الأشقر، وينزل على صهيون، ويحاصرها ويضيّق على من بها. فتوجه

---

(١) كذا في الأصل، وربما كانت: جُزْتَ، أو: زُرْتَ.

(٢) أنظر: ديوان ابن منير الطرابلسي، ص١٧٢: جَيْرون أحد متنزهات دمشق، وقيل: هي دمشق نفسها.

الأمير حسام الدين طُرنطاي إلى صهيون وحاصرها حصارًا أشدّ حصار، ونصب عليها المجانيق. كل هذا بعد أخذ الكَرك، ونزول أولاد الملك الظاهر منها[١].

ذِكْرُ ما جَرى في صهيون

قال: ولما رأى سنقُر الأشقر أن طُرنطاي قد نزل على صهيون، وأنه لا يرحل حتى يملكَها منه، خاف على نفسه، وأنه متى وقع القتال تخامر أصحابه عليه. فنزل سنقُر الأشقر إلى باب القلعة، وسَيَّرَ رسُلَه إلى الأمير حسام الدين طُرنطاي وسأله أن: «تحضر إلينا». وكان الرسول في ذلك أقوش الموصلي/ الحاجب، وهو الذي حرق بباب الإسطبل [١٢٩ظ] السلطاني بالقلعة المحروسة عند قتلة السلطان الملك الأشرف. وكان قليلًا أن يتحدّث بلسان التركية، فإنه كان جنسه أرمني.

ولما حضر آقوش الموصلي بين يدي سنقُر الأشقر، قال له: «من تكون؟» قال: «أنا آقوش الموصلي حاجب الملك المنصور». قال: «ومن بعثك إلينا؟» قال: الأمير حسام الدين طُرنطاي». قال: فنظر سنقر الأشقر إليه زمانًا وقال: «واللهِ لولا خوفي من الملك المنصور، وحياتي من الذي سَيَّرك، رميتُكَ في كَفّة المنجنيق».

ثم حصل له منه زَجْر وإنكار وكلام لا يمكن شرحه في هذا الكتاب. فنزل الحاجب إلى الأمير حسام الدين طُرنطاي وقال: «سَيَّرتَني إلى إنسان فعل بي ما فَعل وشتَمني». وشكى أضعاف ما جرَى عليه، وقال في جملة كلامه: «واللهِ لولا حُرمَتُكَ قتلني».

ثم سَيَّرَ سنقُر الأشقر من جهته رسولًا إلى طُرنطاي يقول: «يا أمير حسام الدين، أنت خوشداشي، وأنا وأنت مماليك السلطان، وأنا طلبتك لمصلحة السلطان والمسلمين ومصلحتِك، فتسيِّر لِي رجل[٢] من السوقة؟

قال: ولما سمع الأمير حسام الدين كلام سنقُر الأشقر، لبس لأمة حربه، وركب وتوجّه إلى القلعة. ولم يكن معه أحد من خلقِ الله تعالى. فلما صعد القلعة ورآه سنقُر

---

(١) راجع كتاب السلوك ١/٧٣٠؛ وزبدة الفكرة ٢٥٤؛ وذيل مرآة الزمان ٤/٢٨١؛ وعقد الجمان ٢/٣٤٨؛ وتذكرة النبيه ١/١٠٢؛ وكنز الدرر ٨/٢٧٦؛ وتشريف الأيام والعصور ١٢٣.

(٢) كذا في الاصل، وصوابه: رجلًا.

الأشقر، ونزل ماشيًا واعتنقا. وجاء طُرنطاي إلى أن قبّل الأرض بين يديه/ [١٣٠و] وقال له: «يا أمير حسام الدين، و(١) لِمَ لبستَ لأمة الحرب؟ إنما أنا وأنت مماليك واحد، وأنا مملوك السلطان وعتيقه، وأنا ما أتحدَّث إلّا معك. فأنت نائبه، وأنت أستاذي، وما أعرف إلّا أنت». كل هذا وطُرنطاي يقبل يد سنقر الأشقر.

قال: ولما سمع الأمير حسام الدين، خلع لأمة حربه، وجلسنا جميعًا بباب القلعة، وأمر الأمير حسام الدين للعساكر ألّا يطلع أحد إلى القلعة. ثم إن طُرنطاي اختارَ النزولَ إلى أسفل، فمنعه سنقُر الأشقر وحلف بالطلاق والعِتاق: «أنك ما تنزل من هذه القلعة إلى أن تطلع سناجق السلطان عليها. وأنزل في خدمتك كما طلعت في خدمتي».

قال: فعند ذلك طلعت السناجق السلطانية على صهيون، وطلع العساكر والجند ينظرون ما يتحرر بينهما. وجرى بينهما أمور وأقاويل يطول شرحُها، من جملتها أن طُرنطاي حلفَ لسنقر الأشقر أن: «تطلع نهار الغد إلى القلعة وتعمل مصلحتك فيها، وتنزل بحريمك وأموالك وما تختار منها». فحلف سنقُر الأشقر بالطلاق والعِتاق: أني ما [١٣١] عشت لا أطلع هذه القلعة ولا يطلعها غير سناجق مولانا السلطان».

قال صاحب التاريخ: لما اجتمعا(٢) هذان الأميران وتحادثا فيما بينهما وتصادقا وتصاحبا، وطلع السنجق السلطاني على قلعة صهيون، ودقّت البشاير بها ودمشق ومصر،/ [١٣٠ظ] قال: فعند ذلك قدّم السيف والمصحف، وحضر الأشراف والقُضاة والعُدول، وحلف الأمير حسام الدين طُرنطاي أربعين يمينًا: «أنني ما دمتُ حَيًّا، لا مكّنتُ من يؤذيك، وإن مت أنا فالله المفتصل(٣) فيك». وعُملت نسخة الأيمان أربعين يمينًا. ثم سُيِّرت النسخُ إلى السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، رحمه الله.

ولما وصلت النسخ إلى السلطان الملك المنصور، طلب القضاة والعُدول والأشرافَ، وحلفَ أربعين يمينًا، من جملتها الطلاق والعِتاق: «أنني لا أؤذي خوشداشي الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، ولا أتعرّض إليه بأذًى ما دمت حيًّا».

---

(١) الواو زائدة في الأصل.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: اجتمع.

(٣) كذا في الأصل، وربما تكون: المصطفل؟ وهي لفظة عامية شائعة.

وكان السلطان الملك المنصور – رحمه الله – قليلَ سفك الدماء وقليل أن يكذبَ في أيمانه، وقليل الشرّ، وكثير الشفقة[١] على مماليكه إذا فعلوا ذنبًا.

وفي هذه السنة فتح السلطان الملك المنصور صَهْيون على يد مملوكه طُرنطاي، وكان فتوحها في مستهلّ سنة سبع وثمانين.

وفي هذه السنة كان القاضي زين الدين النويري المالكي قاضي القضاة بالديار المصرية.

ذِكْرُ السبب الذي آل الحكم العزيز للقاضي زين الدين المالكي بالديار المصرية

ذِكْرُ محاسن السلطان الملك المنصور قلاوون، رحمه الله

قال القاضي شرف الدين ابن الوحيد: إن السلطان الملك المنصور قبل أن يؤولَ الملكُ إليه، كان في الديار المصرية أميرٌ يُقالُ له الأخضري. فوهبه السلطان الملك الظاهر سَيْفًا/ [١٣١و] صاعقة. ثم مات الأخضري. فلما سمع الملك المنصور بموت الأخضري، سأل عن السيف، فقيل له: «عند أمين الحكم».

وكان القاضي زين الدين في ذلك الوقت أمين الحكم. فسَيّر إليه قلاوون يطلب منه السيف. فزجر القاضي زين الدين الرسولَ، وأبقَى[٢] القولَ على من سَيّره. فلما بلغ ذلك قلاوون، سَيّر مملوكه طُرنطاي بنفسه. فلما جاء طُرنطاي إلى زين الدين المالكي قال له: «السيف؟» قال: «عندي». قال: الأمير يطلبه». قال: «لا كَيد ولا كرامة لا لك ولا لأميرك». فقال له طُرنطاي: «فقم إليه». فقام معه.

فلما حضر زين الدين المالكي بين يدي قلاوون، قال له: «سيف الأخضري عندك؟» قال: «نعم». قال: «سَيّره إليَّ». قال: «لا». قال: «ولِمَ؟» قال: «لأني لا أُعطيه إلّا للسلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري. فإنْ كنت أنتَ السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري سلّمت لك السيف وأشهدتُ عليك».

---

(١) في الأصل: السفه

(٢) القراءة هنا غير واضحة، ولعل المقصود من اللفظة: وأتبع، وثنّى...

ولما سمع قلاوون هذا الكلام عَظُمَ عليه، فزجر زين الدين، وأمر ببطحه وقال: «السيف». قال له زين الدين: «لا تطيل، واللهِ ما أُعطي السيفَ إلّا من يدي ليد السلطان الملك الظاهر». فخاف قلاوون الفتنة، فأمر أن يقيموه، وأجلسه إلى جانبه وتَرفَّق في كلامه له، وقال له:

«والله يا قاضي، ما فعلتُ بك هذا إلّا لأمتحنك، وأنظرَ دينك، وما أنت عليه، والله أنتَ خِيارُ الناس، ومثلُكَ ومثل دينك من يكون على أموال المسلمين». / [١٣١ظ] فلما آل المُلك إلى السلطان الملك المنصور، تخيّل في نفسه أنه لا يصلح لقضاء الديار المصرية إلّا القاضي زين الدين المالكي.

وفي هذه السنة مات القاضي الصدر الأجل نفيسُ الدين الدميري قاضي قضاة المالكية. فطلب السلطان الملك المنصور جماعةً من القضاة والحكّام وقال لهم: مَنْ يصلحُ قاضيًا؟» فكتبوا جماعةً ممن يعرفون دينَهم، فقال، الملك المنصور: «أنا أعرف من أوَلّي». فطلب القاضي زين الدين النويري المالكي، وقال له الملك المنصور: «تتولّى القضاء»؟» قال القاضي: «يا مولانا – أيّدكَ الله – هنا من هو خير مني وأحَقُّ بالقضاء، ولا يمكنني ولا يحِلُّ لي أن أتولّى القضاء وهو حيّ، لأنه أحقّ مني بالحكم». قال: «من هو؟» قال: «ابن شاس». فأقام ابنُ شاس تسعة أشهر، ثم مات، رحمه الله[١].

ولما مات، طلب السلطان القاضي زين الدين النويري. فتكلّم بعض الحكام في حقّه وقال: يا مولانا، إن زين الدين النويري لا يعرف عِلْمًا ولا فِقْهًا ولا نحوًا، ولا يصلح للأحكام الشرعية إلّا من هو كامل الفضائل».

وصاحب هذا التاريخ استقبح أن يسمّيَ قائل هذا الكلام. قال السلطان الملك المنصور، رحمه الله: «زين الدين النويري فيه خِصْلتان: الدين والأمانة، ولا يصلح قاضي القضاة غيره».

وفي هذا التاريخ تولّى القاضي زين الدين النويري قاضي القضاة الديار المصرية[٢]/ [١٣٢و]

---

(١) تقي الدين أبو الحسن علي ابن القاضي شرف الدين أبي الفضل عبد الرحيم المالكي السعدي. راجع: السلوك ١/٧٢٩، ٧٣٣.

(٢) كذا في الأصل.

ووكّله السلطان الملك المنصور في أموال السلطان الأعظم محمد ولده. ومات القاضي زين الدين – رحمه الله – وهو على ما هو عليه.

ثم استهلت سنة سبع وثمانين وستماية من الهجرة النبوية

وصاحب مصر والشام والقلاع السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، رحمه الله.

وفيها خرج السلطان الملك المنصور قاصد[١] فتح طرابلس.

قال صاحب التاريخ: إن السلطان الملك المنصور لما خرج من الديار المصرية طالب[٢] الشام، ونزل بظاهر القاهرة بمنزلة تعرف مسجد التبن[٣]، مرض السلطان الملك الصالح علاء الدين ولده، وهي المرضة التي مات فيها، رحمه الله. ولما مرض السلطان الملك الصالح، رجع السلطان الملك المنصور إلى القلعة المحروسة[٤].

وفي هذه السنة سلطن السلطانُ الملكُ المنصور ولدَه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل[٥].

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستماية من الهجرة النبوية

فيها فتح السلطان الملك المنصور طرابلس. وكان فتوحُها رابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة، وكان[٦] مدّة حصاره لها أربعين يومًا. ولما فتحها أراد أن يبقيها على ما هي

(١) كذا في الأصل، وهي: قاصدًا.
(٢) كذا في الأصل، وهي: طالبًا.
(٣) ذكر المقريزي في المواعظ والاعتبار ٢/٤١٣: «يقع هذا المسجد خارج القاهرة مما يلي الخندق، عرف قديمًا بالبئر والجميزة، وتسميه العامة: مسجد التبن، وهو خطأ، وموضعه خارج القاهرة قريبًا من المطرية. وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر في أيام الأستاذ كافور...» راجع: السلوك ١/٦٨٤، ٧٥٤، وزبدة الفكرة ٢٧٠.
(٤) أنظر: السلوك ١/٧٤٤؛ وزبدة الفكرة ٢٦٣؛ وتذكرة النبيه ١/١١٥؛ وعقد الجمان ٢/٣٧٨؛ ونهاية الأرب ٣١/١٥٩.
(٥) السلوك ١/٧٤٥.
(٦) كذا في الأصل، وهي: وكانت.

عليه، فاستشار الأمراء فأشار سنقر الأشقر بخرابها فخربوها[١].

وفي هذه السنة مات الأمير عز الدين موعان ويقال: عز الدين مَعْن، وكان أعزّ خوشداشية الملك المنصور، ومات شهيدًا/، رحمه الله.[٢] [١٣٢ظ]

قال صاحب التاريخ: لما بلغ السلطان الملك المنصور قتلة عز الدين مَعْن، عَظُمَ عليه، وحزن حزنًا كبيرًا وبكا وقال: «لعن اللهُ طرابلس، واللهِ لو علمتُ أن عز الدين مَعْن يقتل على طرابلس ما نزلتُ عليها». فإن الملك المنصور وعز الدين معن كانا نفسًا واحدة.

قال: ولما فتحت مدينة طرابلس، واستقر[٣] أموالُها وضِياعها للإسلام، وردت قصائد الفضلاء والفقهاء والشعراء. من جملتها قصيدة القاضي الصدر الأجلّ شهاب الدين محمود كاتب الإنشاء الشريف[٤] يهنّي السلطان الملك المنصور بهذا الفتح المبارك، من جملتها شعر[٥]: [من الطويل]

عَلينا لِمَنْ أَوْلاكَ نِعْمَتَه الشُكْرُ لأنَكَ للإسلام يا سيفَه نَصرُ[٦]
ومنّا لك الإخلاصُ في صالحِ الدُعا إلى من له في أمر نُصْرَتكَ النصرُ[٧]
فَلِلَّه في إعلاء[٨] مُلكِكَ في الوَرَى مُرادٌ وفي التأييدِ يومَ الوَغا سِرُّ
[ألا هكذا يا وارث المُلْكِ فليكنْ جِهادُ العِدَى قَهْرًا ما بقَى الدهرُ][٩]

---

(١) عن فتح طرابلس، راجع: تاريخ الإسلام (٦٨١-٦٩٠) ٢٦؛ وزبدة الفكرة ٢٦٦؛ وكنز الدرر ٢٨٣/٨؛ وتذكرة النبيه ١٢٢/١؛ ونهاية الأرب ١٦٣/٣١؛ والسلوك ٧٤٦/١.

(٢) هو الأمير الكبير عز الدين أيبك أمير شكار، راجع: تاريخ الإسلام (٦٨١-٦٩٠) ٣٥٢؛ وتاريخ ابن الفرات ٨٩/٨؛ وعقد الجمان للعيني ٣٨٣/٢ «مُغان أمير شكار»؛ والمختار من تاريخ ابن الجزري ٣٢٨؛ والسلوك للمقريزي ٧٤٧/١.

(٣) كذا في الأصل، وهي: واستقرت.

(٤) راجع ترجمته في الوافي بالوفيات ٣٠١/٢٥ رقم ١٩٦.

(٥) أورد منها كنز الدرر لابن الدواداري (٢٩٦/٨) ٦٠ بيتًا، والمختار من تاريخ ابن الجزري (٣٣٢) ٢٧ بيتًا، والذهبي ٢٤ بيتًا، والمخطوط الذي بين أيدينا ٢٢ بيتًا، في حين أشار كتاب المختار إلى أنها تبلغ «نيفًا وستين بيتًا».

(٦) كنز الدرر: ذخر، وتاريخ الإسلام: الذخر.

(٧) سائر المصادر: الأمرُ.

(٨) كنز الدرر: إعلام، وفي النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧: ولله...

(٩) النجوم الزاهرة: جهادُ العِدَى لا ما توالى به الدهرُ.

ومثلَ الذي أعطاكَ ربُّكَ فابتهِلْ ... إليه يكون الفتحُ إنْ قِسْتَ والنصرُ](١)
فإنْ تَكُ(٢) قد فاتتكَ بدرٌ فهذه ... بما أنْزَلَ الرحمنُ من نَصْرِهِ(٣) بَدرُ
نَهَظْتَ(٤) إلى عُلْيا طَرابُلُسَ التي ... أَقَلُّ عَناها أنَّ خَنْدَقَها البَحرُ
مُمَنَّعَةٌ بِكرٌ وما(٥) في جميع ما ... تَمَلَّكْتَه إلّا مُمَنَّعةٌ بِكْرُ
وكم من حُصونٍ قد فَتَحْتَ شواهقٍ ... مَصابيحُها في الأُفْقِ أنجمُها الزُّهْرُ(٦)
وكم مرَّ مِنْ دَهْرٍ(٧) وما مَسَّها أذًى ... وكم راح من عَصْرٍ وما راعَها حَصْرُ/ [١٣٣و]
وكم ليث غابٍ رامها في جُيوشه ... وراح ولم يُحرِزْ لـه ظَفَرًا ظُفْرُ(٨)
وكم ملكٍ قد مات منها بغُصَّةٍ ... وراح ولم يبردْ له بالمُنا صَدْرُ(٩)
وأُقسمُ ما فاجأتَها بل تَقَدَّمَتْ ... إليها سرايا جيشِكَ الرُّعْبُ والذُّعْرُ
وأَنْذَرْتَها ما كان من فتحِ غيرِها ... وحذَّرتَها ما كان يَنْفَعُها الحِذْرُ(١٠)
وهاجمتها في أوّلِ الجيش فاحتوى ... عليها وباقي الجيش خَلْفَكَ لم يدرِ(١١)
وأَطْلَعْتَ فيها طائرَ السيفِ فاغتدى(١٢) ... وليس له إلّا رقابُ العِدَى(١٣) وَكْرُ
فللهِ كَمْ بِيضٍ وسُمْرٍ كواعبٍ ... على رَغْمِهم قد حازَتْ(١٤) البيضُ والسُمرُ
وكم فارسٍ من قَيْدِه ودمائه ... مَراكبُه(١٥) دُهْمٌ وألوانُها شُقْرُ

---

(١) الزيادة من كنز الدرر لابن الدواداري والمختار من تاريخ ابن الجزري، والنجوم الزاهرة ٣٢٣/٧.

(٢) كذا في كنز الدرر، وفي المختار وتاريخ الإسلام: يَكُ.

(٣) كنز الدرر: نُصْرَةٍ.

(٤) كذا في كنز الدرر، وفي تاريخ الإسلام: خندقها بَحْرُ.

(٥) كنز الدرر وبقية المصادر: وهل.

(٦) كنز الدرر وبقية المصادر: زُهْرُ.

(٧) كنز الدرر وبقية المصادر: وكم مؤمن دهرًا.

(٨) كنز الدرر وبقية المصادر، جاء عجز البيت: وراح ولم يبرُدْ له بالمُنا صَدْرُ.

(٩) سقط هذا البيت من سائر المصادر المشار إليها.

(١٠) كنز الدرر: وأنذرها، وحذرها لو.

(١١) كنز الدرر: فهاجمتها، لم يدروا.

(١٢) كنز الدرر: فاغتذى، وفي سائر المصادر: وأطلقت.

(١٣) سائر المصادر: إلا رؤوسهم.

(١٤) كنز الدرر: حارت، والمختار من ابن الجزري: جازت.

(١٥) المختار: تواكبه.

وولّى ضَلالُ الشركِ عنها ووجْهُه عَبُوسٌ ووافاها الهُدَى وله[١] بِشْرُ
وكان لهم في الأرض صِيتٌ وسُمْعةٌ فلم يَبْقَ في الدنيا لهم بعدها ذِكْرُ
وكم سمعوا[٢] أخبارَ جيشِكَ قَبْلَها فلما الْتَقَوهُ صَدَّقَ[٣] الخبرَ الخُبْرُ ١٣٤]]
قسَمْتَهمُ شَطْرَيْنِ غيرَ غَرِيقهم فللسيفِ شَطْرٌ والقُيودُ لها شَطْرُ
مَحَوْتَ شِعارَ الكُفْرِ عنها فما عَسَى يقومُ به في وَصْفِ أوصافكَ[٤] الشِّعْرُ
وإنْ تَقْصدِ الأمصارَ[٥] شَرْقًا ومَغْرِبًا فلا بَرَّ يَسْتَعْصي عليكَ ولا بَحْرُ

ذِكْرُ محاسن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، / رحمه الله [١٣٣ظ]

وكنا قد تقدم قولنا أن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي لما تمّلك الديارَ المصرية، واستناب طُرنطاي، أوصاه: «أنك لا تتعاظم على البحرية، واخفِضْ جَناحكَ لهم، ولا تدَعْ أحدًا يشكوا منك».

وكان من جملة أمراء الديار المصرية أميرًا يُسمّى سيف الدين جَرْمَك[٦]، وكان أميرًا كبيرًا، وكان تقدّم له على هلاوون خدمة، وعلى الملك الظاهر، وعلى الملك المنصور، وكان له حِصَّة يسيرة بقريةٍ من قرى الديار المصرية تُسمّى «بنْهَا العسَل». وكان أيضًا بعسكر الديار المصرية خادم يسمّى الطواشي شمس الدين صواب البحلاق، له أيضًا بتلك القرية حصّة. فكان مماليك جَرْمك المذكور يقتلون كل يوم مماليك الطواشي.

فشكى الخادم لطُرنطاي، فاستشار طُرنطاي خوشداشيته، وهل يطلب جرمك أم لا. فأشار عليه أمير يسمّى قُطزان: «أرسل وراه». فأمر طُرنطاي لأمير النقباء بإحضار جَرْمك. فلما نزل النقيب إلى بابه خرج أستاذدار جرمك المذكور وقال للنقيب: «ما تريد؟» قال النقيب: «أنت جَرْمك؟» قال: «لا». قال النقيب: «امض فإني ما أتحدّث إلا مع جَرْمك». ١٣٤]

---

(١) كنز الدرر: ولها.
(٢) كنز الدرر: بلى سمعوا.
(٣) كنز الدرر: صَغَّرَ.
(٤) كنز الدرر: أفعالك.
(٥) كنز الدرر: وإنْ تملكِ الأقطار.
(٦) راجع الرواية في: السلوك ١/٧٥١؛ ونهاية الأرب ٣١/١٦٨؛ وتاريخ الإسلام (٦٨١–٦٩٠) ٣٨.

فلما دخل النقيب إلى جرمك المذكور، لم يسلّم، وقال له: «ملك الأمراء يطلبك». قال جَرْمك للنقيب: «ما أقلّ أدبك». قال النقيب: «لا تقُلْ هذا يا أمير. أنتَ رجلٌ كبير وشيخٌ، [١٣٤و] وأمير مصر، أرسلني إليك/ ملك الأمراء، تقل لي: ما أقل أدَبك؟» قال جرمك: «امضِ وأنا خلفك». قال: «ما أروح إلّا بك». فغضب جرمك وركب وطلع القلعة مُغْضَبًا.

فلما رأته الأمراء من بعيد، وقفوا حتى لا يقفوا له عند قدومه عليهم، وذلك استقلال(١) به.

وأراد جَرْمك العبور إلى طُرنطاي من داخل الدار، فأمروه أن يأتي من ظاهر الشبّاك. فعَظُمَ عليه ذلك. فجاء ووقف إلى جانب الخادم.

قال له طُرنطاي: «ما بالك والطواشي؟» قال جَرْمك: «أي الطواشية؟» قال: «هذا». فالتفت جَرْمَك إلى الخادم ولكمه نام(١) ورفصه(٢) على بطنه غير مرّةٍ، وقال له: «لا رجلٌ مع الرجال ولا مَرة(٣) مع النساء».

وتَمّ مغضبًا إلى أن يشكوا للسلطان. فخاف طُرنطاي الفتنة، فأمر لأمير يُعرَف أيبك الخزندار(٤)، وكان في ذلك الوقت أمير جاندار وقال له: «امضِ إلى السلطان وعَرِّفْه الذي جرَى، واعرفْ كيف تكون في جوابك».

فلما دخل أيبك الخزندار إلى السلطان، وجده والمماليك الصغار حوله، قال السلطان: «ما بالك؟» قال: «إن جَرْمَك الناصري والطواشي البحلاق قد تقاولا بين يدي ملك الأمراء وقد اصطلحا». قال الملك المنصور:

«وأيُّ كلبٍ يكون الطواشي البحلاق حتى يتكلم مع مثل جَرْمَك؟ اقطعوا خبز [١٣٤ظ] البحلاق وأضيفوه إلى جرمك زيادةً على ما بيده، وعَوِّضوا البحلاق/ من خاصّنا وارضوه». ثم قال السلطان: «لا تكونوا طلبتم جرمك؟» قال: «لا». قال: «ولا سَيَّرتم إليه نقيب؟» قال: «لا». قال: «ولا وقف بين يدي طُرنطاي؟» قال: «لا». قال: «فأين جَرْمَك؟» قال: «بالباب». قال: «اطلبوه».

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل، وهي: ورفسه.

(٣) أي امرأة.

(٤) راجع كتاب السلوك ١/٧٨٢.

فلما حضر جَرْمك وهو خايف، قام له السلطان وقال: «ما لك ولطُرنطاي؟» فقبّل جَرْمَك الأرض وقال: «والله يا خوند ما أنت أستاذي؟ ما أستاذي إلّا الأمير حُسام الدين؟ وإنما أنا تكلّمت أنا وخوشداشي الطواشي وقد اصطلحنا». قال السلطان: «اطلبوا طُرنطاي». فلما حضر قال له السلطان: «ما لك وللأمير؟» قال طُرنطاي: «يا خَوَند، هو الصادق مهما قال صدق».

قال من كان حاضرًا هذه الفتنة: لم يفرُغ طُرنطاي من كلامه وقد حضرت خِلْعة مكمله كلوتة زركش وسيف ذهب وشاش خليفتي ولبّسوها لجَرْمك، وخرج الجميع من بين يدي السلطان، وخرج جَرْمَك بين يدي طُرنطاي والطواشي معه.

فلما انتهوا[1] الجميع إلى باب القُلّة، أخذ جَرْمَك بيد طُرنطاي على أن يقبّلها. فمنعه طُرنطاي وقال: «لِمَ تفعل هذا؟» قال: «أسل صدقاتك[2] تهبني الطواشي أتحدّث معه كلمتين هاهنا». فأمر طُرنطاي الطواشي أن يمشي في خدمة الأمير. فأخذ جَرْمَك بيد الخادم، وخلع الشاش والكلوتة الزركش وجعلهما على رأس الخادم/ [١٣٥و] وألبسه الخِلْعة المكملة وشدّ بيده في وسط الخادم السيف الذهب، وقال للخادم: «أنا أخطأت في حقك، وهذا وصل إليّ من بركاتك، وقد خَرجت لك عنه».

وخرج الخادم، وأتى إلى طُرنطاي وقَبَّل يده. قال: «ما هذا؟» قال: «وهَبني جَرْمَك». قال طُرنطاي: «امض إلى السلطان وقَبِّل يدَه».

فلما دخل الخادم على الملك المنصور قال له: «هذه الخِلْعَة الذي لجَرْمك وهَبها لك؟» قال: «نعم». قال السلطان: «اطلُبوا طُرنطاي». فلما حضر طُرنطاي زجرَه السلطان الملك المنصور وقال له: «ألم أقُل لك أنك لا تغلِّث[3] قلبَ خوشداشيتي؟ والله متى عدت إلى مثلها لأفعلنّ وأفعلنّ». وزجَره، وقال له: «اخرج إلى جَرْمك واعتذر له، وأنا أعلم أنه لولا جرى غير هذا وكتمتموه عني، فلو سألت عمّا جرى لكما يحصل لك مني كل أذى».

وكان جَرْمَك المذكور، قيل أنه كان ساحرًا أو يتحدّث في أشياء من علوم

---

(١) كذا في الأصل، وهي: انتهى الجميع.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) المغالث: الشديد القتال (لسان العرب).

الفَلك، أو عنده ساحر، وعنده من يتحدّث في علوم الفَلك. وكان رجلًا مِقْدامًا على الملوك في الحديث وفي البَسْط، وكان الملك الأشرف يظاهره ويؤانسه، وكان يقول في كل وقتٍ للملك الأشرف: «أنت صاحب الوقت والمملكة، وأنت الذي تفتح البلاد على يَدك، وأنت صاحب العساكر والمفاخر، وأنت الذي تفتح بغداد». وكان الملك الأشرف يرجع إلى قوله.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين / وستمائة من الهجرة النبوية [١٣٥ظ]

وسلطان مصر والشام إلى حدود الفراة الملك المنصور قلاوون الصالحي – رحمه الله – وولده الملك الأشرف سلطان على ما كان عليه، والنائب بالديار المصرية الأمير حسام الدين طُرنطاي، والوزير الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، والنائب بغزّة وما يليها الأمير سيف الدين كرتيه الجمدار، والنائب بالكرك وأعماله الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار[١]. والنائب بصفد سيف الدين بهادر الجوكندار، والنائب بقلعة صفد سيف الدين بلبان الحلّي عرف بالقَيْمَري، والنائب بدمشق الأمير حسام الدين لاجين[٢]، والنائب بقلعة دمشق علم الدين أرجواش[٣]، والنائب بحمص سيف الدين يازي.

وصاحب حماة الملك المظفر تقي الدين، والنائب ببعلبك شجاع الدين بن شورين، والنائب بقلعة مصيات جمال الدين آقوش الكنجي، وهو الحاكم على القلاع الاسماعيلية، وأمير العُربان عيسى ابن مُهَنّا، والنائب بحلب قراسنقر المنصوري، والنائب بقلعة البيرة سيف الدين طوغان، وصاحب ماردين الملك السعيد ابن الملك المنصور، والنائب بحصن الأكراد والسواحل وطرابلس الأمير سيف الدين بلبان الطبّاخي.

وصاحب سيس لاوون ليفون، وملك الشرق والعجم والعراق أرغون ابن

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٠/٣٥٢ رقم ٤٨٤٦؛ والمنهل الصافي ٣/٤٧٧ رقم ٧٢٢؛ والنجوم الزاهرة ٩/٢٦٣؛ وأعيان العصر ٢/٧٩؛ والدرر الكامنة ١/٥٠٩؛ والشذرات ٦/٦٦.

(٢) ترجمته في الوافي ٢٤/٣٨٥ رقم ٤٤٩.

(٣) ترجمته في الوافي ٨/٣٣٨ رقم ٣٧٦٦.

هلاوون، وسائر الملوك الإسلامية تحت طاعته، والنائب/[١] بالشقيف وهو شقيف [١٣٦و] أرنون الذي كان به في العام الماضي، وباقي الأمراء على حالهم.

وفي هذه السنة رسم السلطان للأمير أيبك الأفرم[٢] بالتوجُّه إلى دمشق، وأن يجهِّزَ المناجيق والزردخاناة لأجل حصار عكا. فإن السلطان لمّا دخل الديار المصرية من طرابلس، أقام مدّةً والأخبار وردت عليه أن الإفرنج الذي[٣] بعكا قد نكثوا المهادنة وقتلوا في عكه (كذا!) جماعةً من تجار المسلمين. فعند ذلك تجهَّزَ وخرج بالجيش جميعه طالب[٤] عكا.

ذِكْرُ وفاة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، قدّس اللهُ روحَه

وذلك بعد عزمه على الخروج لفتح عكا، لحقه مرضٌ فعالجته الأطباء، فلم ينجَعْ وقضَا نحبَه وَلحقه بربّه. وكان ليوم دفنه هَولًا وحُزنًا من جميع الناس، وبكَت عليه الرعايا، ودفن بتربته بالبيمارستان كأنه ما كان، فسبحان من له الدوام والبقاء.

وكانت مدّة ملكه إحدى عشر[٥] سنةً وثلاثة أشهر ويومان. واتّفق الأمراء على سلطنة ولده الملك الأشرف خليل، فبايعوه وجلس على سرير الملك[٦]. وقبض على طُرنطاي وعلى كِتبُغا، وعاقب طُرنطاي إلى أن مات، وأحاط بجميع ما له بمصر والشام. ثم ولا[٧] مملوكَه بيدَرا[٨] نائب القلعة وأفرج عن كِتبُغا. وأما الأمير أيبك الأفرم فإنه وصل دمشق وحضَّر المناجيقَ والآلات، ونادى في أرض دمشق بالجهاد لفتح عكا.

---

(١) الصفحات الأربع التالية [١٣٦ظ – ١٣٩و] بخط مغاير.
(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/٤٧٨ رقم ٤٤٣٨.
(٣) كذا في الأصل، وهي: الذين.
(٤) كذا في الأصل، وهي: طالبًا.
(٥) كذا في الأصل، وهي: عشرة.
(٦) ترجمته في الوافي ١٣/٣٩٩ رقم ٥٠٤.
(٧) كذا في الأصل، وهي: وَلّى.
(٨) ترجمته في الوافي ١٠/٣٦٠ رقم ٤٨٥٥؛ والمنهل الصافي ٣/٤٩٣ رقم ٧٣٤.

[١٣٦ظ] وكان بلغهم موت المنصور وتوليت[1] (كذا!)/ ولده الأشرف خليل. فاجتمع عالم عظيم يريدون الجِهاد، وساروا قاصدين عكا.

وأرسل الأفرم للسلطان الأشرف نجاب[2] يعلمه بالمسير، فتجهز السلطان، وسار من مصر بباقي الأمراء ونزل على عكا بالعساكر المصرية والشامية. ونصبوا المناجيق، وأقاموا يتتالون ويتنازلون إلى أن فتح الله عليهم بها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى[3] الآخر، وأنقذ الله عكا من أيدي المشركين على يدي الملك الأشرف خليل، كما كان فتحها أولًا على يد صلاح الدين يوسف، وأقامت بأيديهم ماية وثلاثين سنة، وقيل في ذلك[4]: [من مخلّع البسيط]

قـد أخَـذَ المسـلمون عَـكّـا ... وأشـبَـعـوا الـكـافـريـنَ ضَـكّـا
وسـاقَ سـلـطـانُـنـا إلـيـهـمْ ... خَـيـلًا تـدكُّ الجبـالَ دَكّـا
وأقْـسَـمَ الـتُّـرْكُ مـنـذ سـارت ... لا تَـركـوا للفـرنـج مُـلْـكـا

وقال ابن عبد الظاهر[5]: [من الرمل]

يـا بـني الأصْـفَـر قـد حَـلّ بـكـم ... نِـقْـمَـةُ اللهِ الـتـي لا تـنـفـصِـلْ
قـد نـزل الأشْرفُ في سـاحـتـكـم[6] ... فـابْـشِروا مـنـه بِـصَـفْـعٍ مُـتَّـصِـلْ

وقال محمود الحلبي[7]: [من الطويل]

مررتُ بعكا بَعْد تَخْريب سُورها ... وزَنْـدُ أُوارِ الـنـارِ في وَسْطِـهـا وارِ
وعاينتُها بعد التنصُّر قد غدَتْ ... مَجُوسيةَ الأبـراج تـسـجـدُ للـنـار

---

(١) كذا في الأصل، وهي: وتولية

(٢) كذا في الأصل.

(٣) في الأصل: جماد.

(٤) يرد هذا الشعر أيضًا في تاريخ ابن الفرات ١١٣/٨، أما إسم الشاعر عنده فهو شرف الدين البوصيري؛ وراجع الأبيات في كتاب السلوك للمقريزي ٧٦٦/١.

(٥) يرد هذا الشعر أيضًا في تاريخ ابن الفرات ١١٤/٨.

(٦) انظر: ابن الفرات ١١٤/٨: ساحلكم؛ وراجع البيتين في كتاب السلوك ٧٦٦/١.

(٧) أنظر: النويري ٢٠٣/٣١: المولى شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي، وراجع البيتين في: السلوك ٧٦٧/١؛ وزبدة الفكرة ٢٨٠؛ والوافي ٣٣٤/٢٥؛ وتذكرة النبيه ١٣٨/١.

وقال ابن ضامر[١]: [من الكامل]

أيـدي الليـالي[٣] أو تـغـيّرُ حـالُ … أدْمَى[٢] الكنائس إنْ تكنْ عَبَثَتْ بكم

شمُّ الأُنوفِ جحاجحٌ أبطالُ/ … فَلَطال ما سَجَدَتْ لَكُنّ فَوارسٌ[٤] [١٣٧و]

يوم بيوم والحروب سجالُ … فعزاء عن هذا المصاب فإنه[٥]

ولكل دهرٍ دولة ورجالُ … هذا بذاك ولا يُعَيَّرُ[٦] دَهْرُنا

ثم إن السلطان رحل ونزل بالعساكر على قلعة الروم ونازلها، إلى أن مَنّ اللهُ عليه بها، وكان[٧] مدّة المقام عليها شهرًا وثلاثة أيام. ورجع السلطان إلى دمشق وقبض على سنقر الأشقر وعلى طيقوا الناصري، وطلب لاجين نائب السلطنة، فهرب. وكان مُراد السلطان أن يخلي البلادَ لمماليكه، فتحمّلت منه قلوب الأمراء.

ورجع من دمشق طالب[٨] ديار مصر. فدخلها، وكان لقدومه يومًا مشهودًا. وانهمك على الاحتفال بمماليكه، وترك مماليك أبيه. وكان سيّء التدبير، فإنه أخرب بالقلعة قصورًا وأماكن، وكذلك بقلعة دمشق، وتنافرت عنه القلوب. وفي بعض الأيام لعب السلطان عند قُبّة النصر بالقَبق، وكان ذلك سبب ظهور أخيه السلطان الملك الناصر، وعمل مهم عظيم، ولبس الجيش جميعه[٩].

---

(١) أنظر: ابن الدواداري ٨/٣٢١: بدلًا من الشاعر ابن الضامر كمؤلف نقرأ: مما وجد مكتوبًا على أبواب كنايس عكاء، وفي السلوك ١/٧٦٧: ابن ضامن الضبع.

(٢) كنز الدرر: جَمْعُ.

(٣) نفسه: الحوادث.

(٤) نفسه: سجدت على أبوابكم.

(٥) في كنز الدرر جاء صدر البيت كما يلي: صَبْرًا على هذا المصاب فإنه.

(٦) السلوك: نُعيِّر.

(٧) كذا في الأصل، وهي: وكانت.

(٨) كذا في الأصل، وهي: طالبًا.

(٩) كذا في الأصل.

ذِكْرُ موتة السلطان الملك الأشرف خليل، رحمه تعالى

وذلك أنه خرج من الديار المصرية يريد البحيرة يتصيّد، وصحبته الأمراء [١٣٧ظ] والمقدّمين[١] وبعض الحلقة والوزير ابن السلعوس[٢] والنائب بيدرا. فلما/ وصل إلى أرض تروجه فتصيَّد بها مدة أيام. وتوجه ابنُ السلعوس إلى اسكندرية، فدخلها واستحضرَ أهلها لتحصيل المال، وكان ذلك في يوم عاشوراء.

وأما السلطان فإنه أقام في الصّيد إلى يوم السبت ثاني عشر المحرّم. فلما كان وقت العصر وهو بأرض تروجه من أعمال الطرّانة[٣]، وإذا ببيدرا قد[٤] حضر إليه مع جماعةٍ من الأمراء، وكان السلطان من أول النهار قد أمره أن يأخذ العسكر والدهليز والسناجق وأن يتقدّم، وبقي وحده وما معه إلّا الأمير [أحمد][٥] ابن الأشلّ أمير شكار. وكان لأجل القضاء سابقًا، وقع بين السلطان وبين بيدرا مناقرةٌ[٦]، وتزايد بينهما الكلام، وصار الأمير بيدرا يراجع السلطان في الكلام ويعانده ويغايظه بالألفاظ التي لا تليق [١٣٨و] لخطاب الملوك. فاحتدّ السلطان وعلاه/ غيظ وحرج، فضربه بالمقرعة على رأسه، وكان هذا سببَ الأمر الذي قدّره الله تعالى فلا رادّ لما قضى.

ثم إنّ السلطانَ الملك الأشرف ركب من الدهليز لطعم[٧] الطير، وقيل أن السلطان الملك الأشرف كان بغير سيف ومعه طبل باز. ثم إن بيدرا أوحَى إلى الأمراء أنه: «متى عبر السلطان إلى ثغر سكندرية مسَككم الجميع[٨]». فأحضر جميعُ الأمراء المصاحف، وحلَفوا جميعًا، وحلفَ بعضُهم لبعض بالطلاق والعِتاق أن: «نحن نموت على بعضنا بعض».

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: المقدمون.

(٢) في الأصل: العسلوس، ترجمته في الوافي بالوفيات ٨٦/٤ رقم ١٥٥٥.

(٣) هي من البلاد المصرية القديمة، اسمها المصري «طرنوت» وسماها العرب «الطرانة» وهي اليوم قرية صغيرة على الشاطئ الغربي لفرع رشيد ضمن مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة. راجع: النجوم الزاهرة ١٦/٨؛ وبدائع الزهور ٣٦٣/١/١؛ والسلوك ٧٨٩/١.

(٤) مكرر في الأصل.

(٥) الزيادة من السلوك ٧٨٩/١.

(٦) كلمة عامية شائعة تعني: المنافرة والخصومة مع استعمال الكلمات الجارحة النابعة من غضب شديد.

(٧) كذا في الأصل.

(٨) كذا في الأصل.

قال من كان حاضرًا هذه الفتنة:

إن الملك الأشرف لما ركب لطعم الطير، كان راكب حِجْرة[١] شهباء، وكان في وسطه شَمْلَة، وكان في يده زخمة[٢] طبل باز، وكان أنغاي[٣] حامل السلاح على رأسه، وهو من جملة المخامرين عليه. فبعث أنغاي من جهته قاصدًا إلى الأمراء يقول لهم أنه: «إذا لم تدركوه في هذه الساعة فلا تقدروا عليه بعدها».

فركب الأمراء وقصدوا السلطان وعدّوا عليه وقتلوه، رحمه الله. ثم تفرّقوا في البلاد وهم: بيدرا نائبه، ولاجين، وقراسنقر المنصوري، طُرنطاي الساقي، نوغيه السلحدار، آقسنقر الحسامي، آروس، بهادر رأس نوبة، آقوش الموصلي الحاجب، ألطُنبغا الجمدار، محمد خواجا، ومعهم جماعة كبيرة، وكان ذلك في/ الكتاب [١٣٨ظ] مسطورًا[٤].

قال من حضر هذه الفتنة: إن هؤلاء الأمراء المذكورين لما عدّوا على السلطان وقتلوه – رحمه الله – كانت كلمتهم واحدة.

فلما جرَى ما ذكرناه، تفرّقوا في أقصى البلاد، ولم ينتظم لهم كلمة. ولما قتلوه لم يطلبوا الدهليز، ولكن طلبوا القلعة، وسلطنوا بينهم بيدرا، ولقّبوه الملك القاهر. وصاح الشاويش بين يديه. وكان الشاويش يومئذٍ الحسام الشيرازي النقيب.

---

(١) الأنثى من الخيل جعلت محرّمة على الخيل إلا الحصان الكريم، وما اتخذ منها للنسل بخاصة، وفي السلوك ١/٧٨٩: حجر.

(٢) راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٤) في هامش الصفحة وبخط مغاير:
قال ابن حبيب في هذه الواقعة: [من الكامل]
تَبًّا لأقوامٍ بمالكِ رِقِّهم فتكوا وما رقّوا لحالة مترَفِ.
وافوه غَدْرًا ثم صالوا جملةً بالمشرفيِّ على المليكِ الأشرفِ
وافى شهيدًا نحو روضات المنَى يختال بين مذَهَّبٍ ومزخْرفِ
ومضى يقول لقاتليه: تمهّلوا بيني وبينكم عِراضُ الموقفِ.
كتبه الفقير المصطفى بن محب الدين.
راجع الأبيات في تذكرة النبيه ١/١٦٨ مع اختلافات.

ولما وصل الخبر إلى الدهليز بقتل السلطان، وقع القِيلُ والقال، والنهب من العربان، ورمى الناسُ قماشهم وأثقالهم. وركبت العساكر من الدهليز، وتركوا الدهليز على ما هو عليه، والقدور على النار، والطبّاخون هربوا والناس تفرّقوا، والعربان ركبوا ونهبوا الأموال، وسفكوا الدماء، وفعلوا في الاسلام ما لا تفعله التتر. وهكذا فعايل العرب في كل أرض وفي كل وقعة ومُصَافّ.

ولما وصل الخبر إلى القلعة، غُلّقت مصر والقاهرة، واحتمَى كل رجلٍ ببيته، وغُلّقت القياسر. وأمّا الحُسَامُ أستدار مملوك سنقر الرومي، فإنه في ذلك الوقت كان له صورة بينهم. لما بلغه قتل السلطان تثبت وجمع العساكر والجنايب والعصايب والسناجق ومن كان عنده من الأمراء الخاصكية، من جملتهم طغجي[١].

(١) إلى هنا ينتهي نص تاريخ قرطاي.

[illegible]

٩ [illegible]
مسطور[1].

قال من حضر هذه القصة: إن هؤلاء الأمراء المذكورين لما عتوا على السلطان
١٢ وكثرة — رحمه الله — كانت كلمتهم واحدة.

فلما جرى ما ذكرناه، تفرقوا في أنفس الثلاثة، ولم يتحقق لهم كلمة، ولا قوة
لم يطلبوا [illegible]، ولكن طلبوا [illegible]، وسقطوا بينهم [illegible]، وأشرف الملك الظاهر
١٥ وضاع الشاويش بين يديه. وكان الشاويش يوسف [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) راجع: تكملة المعاجم العربية لدوزي.

(٤) في هامش الصفحة وبخط مغاير:
قال ابن حبيب في علم الرقعة: (من الكامل)
[illegible]

[illegible]

فهارس الكتاب

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأعلام
- فهرس الأمم والقبائل والجماعات والطوائف والفرق
- فهرس الأماكن والبلدان والمباني
- فهرس الموظفين والوظائف والمهن
- فهرس القوافي
- ثبت المصادر والمراجع العربية

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

فهرس الأمم والقبائل والجماعات والعشائر والفرق

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف العين

حرف الفاء

حرف الغين

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء

فهرس الأماكن والبلدان والمباني

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الموظفين والوظائف والمهن

حرف الراء

حرف الزي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

فهرس القوافي

ل

م

ن

هـ

ثبت المصادر والمراجع العربية

المصادر العربية المطبوعة

١. **آثار البلاد وأخبار العباد**، للإمام زكريا بن محمد القزويني، دار بيروت، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤.

٢. **أخبار الدول وآثار الأُوَل في التاريخ**، لأحمد بن يوسف القرماني، ١–٣، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٢.

٣. **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، لابن شداد عز الدين أبي عبيد الله محمد بن علي:

- الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق دومينيك سورديل، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٥٣.
- الجزء الأول، القسم الثاني، تحقيق يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١.
- الجزء الثالث، القسم الأول والثاني، تحقيق يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٧٨.
- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٥٦.
- تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٦٢.

٤. **إعلام الورى بمن وُلِّي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، لمحمد بن علي ابن طولون الصالحي الدمشقي، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٤.

٥. **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق فرانز روزنتال، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٦٣.

٦. **أعيان العصر وأعوان النصر**، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ١-٦، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق ١٩٩٧.

٧. **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، لابن دقماق صارم الدين ابراهيم بن أيدمر العلائي، الجزءان ٤-٥، تحقيق كارل ڤولرز، الطبعة الأولى، القاهرة، «بولاق» ١٨٩١-١٨٩٦.

٨. **أنساب الأشراف**، لأحمد بن يحي البلاذري، ج٥، تحقيق إحسان عباس، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩.

٩. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، للقاضي أبي اليُمْن مجير الدين الحنبلي، تحقيق السيد محمد بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، الطبعة الأولى، النجف ١٩٦٨.

١٠. **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ١-١٢، تحقيق محمد مصطفى، سلسلة النشرات الإسلامية، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٥-١٩٨٢.

١١. **البداية والنهاية في التاريخ**، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ١-٧، المطبعة السلفية ومطبعة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٢.

١٢. **تاريخ الزمان**، لأبي الفرج جمال الدين غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تعريب الأب إسحق أرملة، دار المشرق، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦.

١٣. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦-٢٠٠٠.

١٤. **تاريخ الخلفاء**، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩.

١٥. **تاريخ دولة آل سلجوق**، للإمام عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني، اختصار

الشيخ الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، منشورات شركة طبع الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٠٠.

١٦. **تاريخ الملك الظاهر بيبرس «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»**، لعز الدين محمد ابن علي بن شداد، تحقيق أحمد حطيط، منشورات المعهد الالماني للأبحاث الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣.

١٧. **تاريخ إربل «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل»** لشرف الدين المبارك بن أحمد الإربلي المعروف بابن المستوفي، تحقيق سامي الصقّار، ١-٢، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠.

١٨. **تاريخ ابن الفرات**، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم:

- الجزء الرابع (ق١-ق٢)، السنوات ٥٦٣-٥٨٨، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، الطبعة الأولى، البصرة ١٩٦٧-١٩٦٩.
- الجزء الخامس (ق١)، السنوات ٦٠٠-٦١٥، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، الطبعة الأولى، البصرة ١٩٧٠.
- الجزءان السابع والثامن، السنوات ٦٧٢-٦٩٦، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٩-١٩٤٢.
- الجزء التاسع (ق١-ق٢)، السنوات ٧٨٩-٧٩٩، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٦-١٩٣٨.

١٩. **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**، المعروف بتاريخ ابن الجزري، ١-٣، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الجزري، تحقيق عمر تدمري، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٨.

٢٠. **تاريخ اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب العباسي، ١-٢، دار صادر، بيروت (د.ت).

٢١. **تاريخ ابن خلدون «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»**، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ١-٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٨.

٢٢. **تاريخ ابن الوردي**، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٧٤٩/١٣٤٨).

٢٣. **تاريخ الدول الإسلامية (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)**، لابن الطقطقا، صفي الدين محمد بن علي بن محمد، دار صادر، دار بيروت، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٠.

٢٤. **تاريخ مختصر الدول** لابن العبري غريغوريوس الملطي، أبي الفرج جمال الدين، تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٨.

٢٥. **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده** لشمس الدين الشجاعي، تحقيق باربرة شيفر، منشورات المعهد الألماني للآثار، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٨.

٢٦. **التاريخ المنصوري «تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان»**، لأبي الفضائل محمد بن علي ابن نظيف الحموي، تحقيق أبو العيد دودو، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

٢٧. **التاريخ المنصوري** المعروف بـ **«تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان»**، لأبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي، طبعة فاكسيميلي، نشرها B. Gryaznevic، موسكو ١٩٦٠.

٢٨. **تالي كتاب وفيات الأعيان**، لفضل الله الموفق بن أبي الفخر الصقاعي، تحقيق جاكلين سوبله، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، الطبعة الأولى ١٩٧٤.

٢٩. **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ١–٢، لابن الوردي زين الدين عمر بن المظفر، تحقيق محمد مهدي السيد حسن، النجف، الطبعة الأولى ١٩٦٩.

٣٠. **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، للأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٧.

٣١. **تحفة الألباب** لأبي حامد المازني الأندلسي الغرناطي، في المجلة الآسيوية، عدد تموز–أيلول ١٩٢٥، ١–١٤٨ Journal Asiatique.

٣٢. **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، للحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، ١-٣، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦-١٩٨٦.

٣٣. **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين)**، للحافظ المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبع عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٧.

٣٤. **ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب**، للمرتضى محمد بن محمد الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٦٩.

٣٥. **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور** (٦٧٨-٦٨٩هـ)، لأبي الفضل محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦١.

٣٦. **تكملة المعاجم العربية** لرينهارت دوزي، ١-١٠، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي وآخرون، وزارة الثقافة والفنون، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٧٨-٢٠٠٠.

٣٧. **جمهرة الأمثال**، لأبي هلال العسكري، ١-٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٦٤.

٣٨. **الجوهر الثمين في سِيَر الملوك والسلاطين**، لابن دقماق صارم الدين ابراهيم بن محمد، ١-٢، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.

٣٩. **حُسْن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية**، لشافع بن علي، ناصر الدين بن عباس بن اسماعيل الكناني، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦.

٤٠. **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، لكمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق ابن الفُوَطي البغدادي، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٣٢.

٤١. **خريدة القصر وجريدة العصر**، للعماد الكاتب الأصفهاني محمد بن محمد، قسم

شعراء الشام، ١–٣، تحقيق شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٥.

٤٢. **خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)**، ١–٢، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة ١٨٥٣.

٤٣. **درّة الأسلاك في دولة الأتراك**، لابن حبيب، بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر، تحقيق A. Meursinge و H. Weijers، في Orientalia II, S. 149-197، ليدن ١٨٤٥.

٤٤. **درة الأسلاك في دولة الأتراك**، لابن حبيب، أبو محمد الحسن بن عمر، تحقيق پ. ليندر، في: Le Monde oriental VII, S. 1-81.

٤٥. **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية** (كنز الدرر لابن الدواداري، الجزء الثامن)، لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق أولريخ هارمان، منشورات المعهد الألماني للآثار، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧١.

٤٦. **الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب** (كنز الدرر لابن الدواداري، الجزء السابع)، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢.

٤٧. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، ١–٥، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٦–١٩٦٧.

٤٨. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، ١–٤، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن ١٣٤٨–١٣٥٠.

٤٩. **الدليل الشافي على المنهل الصافي** لابن تغري بردي الأتابكي، ١–٢، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٩.

٥٠. **دول الإسلام في التاريخ**، لشيخ الإسلام محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي، ١–٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٤٥.

٥١. **ديوان ابن النبيه المصري** كمال الدين أبي الحسن علي بن محمد، تحقيق عمر محمد الأسعد، بيروت ١٩٦٩.

٥٢. **ديوان ابن النبيه المصري**، أبي الحسن علي بن محمد، مطبعة جمعية الفنون، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٩هـ.

٥٣. **ديوان الصاحب جمال الدين يحيى ابن مطروح المصري**، طبعة مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى، القسطنطينية ١٢٩٨هـ.

٥٤. **ديوان أبي الطيّب المتنبي** بشرح أبي البقاء العكبري (التبيان في شرح الديوان)، ١-٤، تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه، مكتبة الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦.

٥٥. **ديوان القاضي الفاضل** عبد الرحيم بن علي البيساني، تحقيق أحمد أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦١.

٥٦. **ديوان العباس ابن الأحنف**، طبعة مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى، القسطنطينية ١٢٩٨هـ.

٥٧. **ديوان التلعفري**، محمد بن يوسف بن مسعود، شهاب الدين الشيباني، تحقيق السيد محمد سليم الأنسي، الطبعة الأولى، المطبعة الأدبية، بيروت ١٣١٠هـ.

٥٨. **ديوان ابن منير الطرابلسي**، أبي الحسن أحمد، تحقيق عمر تدمري، مكتبة السائح، طرابلس (لبنان) ١٩٨٦.

٥٩. **ذيل مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، لنور الدين علي بن عبد الرحيم المعروف بابن المغيزل، تحقيق عمر تدمري، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٤.

٦٠. **الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)**، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٤.

٦١. **ذيل العبر**، أو **(من ذيول العبر) ١-٣**، ولي الدين أبو زرعة العراقي أحمد بن عبد الرحيم، تحقيق صالح مهدي عباس. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩.

٦٢. **ذيل مرآة الزمان** للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ١-٤، مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى، ١٩٥٥.

٦٣. **ذيل الكامل في التاريخ** لشهاب الدين محمود.

٦٤. **ذيل العبر**، أو «**من ذيول العبر**» تحقيق محمد رشاد عبد المطلب، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٠.

٦٥. **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، لمحيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٧٦.

٦٦. **روض المناظر في علم الأوائل والأواخر** لابن الشحنة الحلبي، محمد بن محمد أبو الوليد محب الدين، **«مختصر تاريخ أبي الفداء والتذييل عليه إلى العام ٨٠٦هـ»، الجزءان ٨-٩، بولاق ١٢٩٠هـ و١١-١٢، بولاق ١٣٠٣هـ.**

٦٧. **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، لكمال الدين أبي القاسم عمر بن العديم، ١-٢، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥١-١٩٥٤.

٦٨. **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، لبيبرس المنصوري الدوادار، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

٦٩. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، لأحمد بن علي المقريزي، ١-٤، تحقيق محمد مصطفى زيادة وعبد الفتاح عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦-١٩٧٢.

٧٠. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، عبد الحي أبو الفلاح، ١-٨، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣١-١٩٣٢.

٧١. **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تأليف أحمد بن ابراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٨.

٧٢. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، للشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد القلقشندي، ١-١٤، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩. والفهارس إعداد محمد قنديل البقلي، القاهرة ١٩٧٠.

٧٣. **طبقات الأمم**، لصاعد الأندلسي أبو القاسم القاضي، تحقيق الأب لويس شيخو، الطبعة الأولى، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩١٢.

٧٤. **طبقات الشافعية الكبرى**، (١-٨)، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧١.

٧٥. **طبقات الشعراء المحدثين**، لابن المعتز، عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٦.
٧٦. **العبر في خبر من غبر**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ١-٥، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠-١٩٦٦.
٧٧. **العسجد المسبوك والجوهر المملوك في طبقات الخلفاء والملوك**، للملك الأشرف الغساني إسماعيل بن العباس بن علي، ١-٢، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٥.
٧٨. **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، لبدر الدين محمود العيني «عصر سلاطين المماليك»، ١-٤، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧-١٩٩٢.
٧٩. **العقد الفريد** لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، ١-٨، تحقيق محمد سعيد العريان، الطبعة الثانية، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٣.
٨٠. **عيون التواريخ** لمحمد بن شاكر الكتبي:
- الجزء العشرون، (من السنة ٦٤٥هـ إلى ٦٧٠هـ)، تحقيق فيصل السامر، دار الحرية، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٠.
- الجزء الحادي والعشرون (من السنة ٦٧١هـ إلى ٦٨٧هـ)، تحقيق نبيلة داود وفيصل السامر، وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٤.
- الجزء الثاني والعشرون (من السنة ٦٨٨هـ -إلى ٦٩٩هـ، تحقيق نبيلة داود، الطبعة الأولى، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٩١.

٨١. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لموفق الدين ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم الخزرجي، تحقيق نزار رضا، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٥.
٨٢. **الغيث المسجم في شرح لامية العجم** للطغرائي الحسين بن علي، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ١-٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥.
٨٣. **فوات الوفيات والذيل عليها**، لمحمد بن شاكر الكتبي، ١-٥، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٣-١٩٧٤.

٨٤. **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، لابن الشعار الموصلي المبارك بن أحمد، ١-١٠ نشره بالتصوير الفوتوستاتي فؤاد سزكين ومازن عماوي في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، عن مخطوطة السليمانية بإستامبول رقم ٢٣٢٧، فرانكفورت ١٩٩٠.

٨٥. **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير الجزري عز الدين علي بن محمد، ١-١٢، تحقيق تورنبرج، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٥-١٩٦٧، مصورة عن الطبعة الأولى، ليدن ١٨٦٦-١٨٧٦.

٨٦. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، ١-٢، الطبعة الأولى، استامبول ١٩٤٧-١٩٥٤.

٨٧. **كنز الدرر وجامع الغرر** لابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبدالله، ١-٩:

١. **الدرة العليا في أخبار بدء الدنيا**، تحقيق بيرند راتكه، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٨٢.

٢. **الدرة اليتيمة في أخبار الأمم القديمة**، تحقيق إدوارد بدين، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٩٤.

٣. **الدر الثمين في أخبار سيد المرسلين والخلفاء الراشدين**، تحقيق محمد السعيد جمال الدين، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٨١.

٤. **الدرة السنيّة في أخبار الدولة الأموية**، تحقيق جونهيلد غراف وأريكا كلاسن، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٩٤.

٥. **الدرة السنية في أخبار الدولة العباسية**، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، بيروت ١٩٩٢.

٦. **الدرة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦١.

٧. **الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب**، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٧٢.

٨. **الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية**، تحقيق أولرخ هارمان، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٧١.

٨٧. **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق هانس روبرت رويمر، الطبعة الأولى، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦٠.

٨٨. **لسان العرب**، لابن منظور المصري محمد بن مكرم، ١-١٥، دار صادر، بيروت ١٩٥٥.

٨٩. **المجموع المبارك** للمكين جرجس بن العميد (**أخبار الأيوبيين**)، تحقيق كلود كاهين، Bulletin D'Études Orientales 15 (1955-1957), S.109-184.

٩٠. **المختار من تاريخ ابن الجزري** المسمّى «**حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**»، لشمس الدين الجزري محمد بن ابراهيم، اختيار الإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق خضير عباس المنشداوي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨.

٩١. **مختصر التاريخ** لابن الكازروني، ظهير الدين أبو الحسن، تحقيق مصطفى جواد، الطبعة الأولى، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٠.

٩٢. **المختصر في أخبار البشر**، لأبي الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، ١-٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦-١٩٦١.

٩٣. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان** لأبي محمد اليافعي عبد الله بن أسعد عفيف الدين، ١-٤، حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى ١٩١٨-١٩٢٠.

٩٤. **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** (الجزء الثامن)، ٢/١، لشمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي المعروف بسبط ابن الجوزي، مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن ١٩٥١-١٩٥٢.

٩٥. **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ١-٣، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٤.

٩٦. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد ابن يحيى، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٥.

٩٧. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري، شهاب الدين

أحمد بن يحيى، **«قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين»** تحقيق دوروتيا كراڤولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٥.

٩٨. **معجم الأدباء**، لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ١–٢٠، تحقيق د.س. مرجليوث، دار المأمون للتراث، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٣٧.

٩٩. **معجم البلدان** للشيخ الإمام شهاب الدين، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ١–٥، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٥٥–١٩٥٧.

١٠٠. **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، ١–٣، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٣.

١٠١. **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ٤–٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، وزارة الثقافة، مطبعة دار الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٢–١٩٧٧.

١٠٢. **المقفّى الكبير** لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ١–٨، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١.

١٠٣. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، ١–٧، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٤–١٩٩٤.

١٠٤. **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، (أنظر: **خطط المقريزي**).

١٠٥. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ١–١٦، تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية).

١٠٦. **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تأليف موسى بن يحيى اليوسفي، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦.

١٠٧. **نكت الهميان في نكت العميان**، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد زكي، مطبعة الجماليه، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩١١.

١٠٨. **النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، للمفضل بن أبي الفضائل، تحقيق سميرة كورتانتامر، فريبورغ، ألمانيا ١٩٧٣.

١٠٩. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ١–٣١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة ١٩٢٣–١٩٨٧.

١١٠. **الوافي بالوفيات**، لخليل بن أيبك الصفدي، ١–١٩، ٢١–٢٢، ٢٤–٢٥، ٢٧–٣٠، تحقيق هيلموت ريتر وآخرين، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٢–٢٠٠٤.

١١١. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لابن خلكان شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد، ١–٨، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨.

المصادر المخطوطة

١. **تاريخ الدول والملوك**، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، الجزء السادس، المكتبة الوطنية، ڤيينا، فلوجل رقم ٨١٤.

٢. **تاريخ الدول والملوك**، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، الجزء السادس، مكتبة الفاتيكان، المخطوط رقم Ar. 726.

٣. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المكتبة الوطنية، باريس، Ar. 1703.

٤. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المكتبة الوطنية، باريس، Ar. 1702.

كتاب

تاريخ مجموع النوادر